مــرآة الإســلام

للدكتور/ طه حسين

دراسة وتقديم

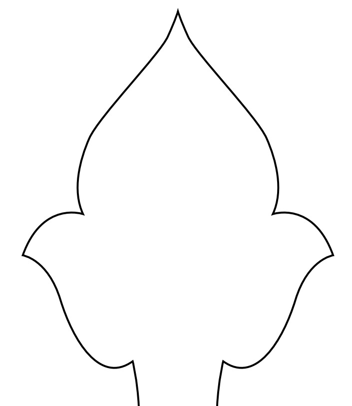
أ.د/ محمد عمارة

هدية صفر ١٤٤٠هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الأزهر

مجلة إسلامية شهرية يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
تأسست عام ١٣٤٩ هـ - ١٩٣١م



بسم الله الرحمن الرحيم

بطاقة حياة

- ولد طه حسين (١٣٠٧ - ١٣٩٣هـ/ ١٨٨٩ - ١٩٧٣م) في عزبة الكيلو - مركز مغاغة - محافظة المنيا - بصعيد مصر - في ٢٠ ربيع أول سنة ١٣٠٧هـ / ١٤ نوفمبر سنة ١٨٨٩م.. ولقد فقد بصره في سن مبكرة.

- حفظ القرآن الكريم بكُتَّاب القرية.. ثم التحق بالأزهر - في القاهرة - سنة ١٩٠٢م.. وفيه تتلمذ على عدد من شيوخ الأزهر، من أبرزهم الشيخ سيد المرصفي، والشيخ الشنقيطي، والشيخ عبد العزيز جاويش.. وحضر درسين للأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده - كانا آخر دروس الإمام قبل وفاته سنة ١٩٠٥م - وكان طه حسين يومئذ في الرابعة عشرة من عمره.

- كان متمردًا على الدراسة بالأزهر، فحرمه شيوخه من نيل شهادة العالمية، فالتحق بالجامعة المصرية - الأهلية - سنة ١٩٠٨م.. وفي الجامعة تأثر بمناهج النقد التي درسها على المستشرقين (نللينو) (١٨٧٢ - ١٩٣٨م) و(ليتمان) (١٨٧٥ - ١٩٥٨م) و(جاستون فييت) (١٨٨٧ - ١٩٧١م).. ومن الجامعة نال أول دكتوراه منحتها الجامعة عن رسالته (تجديد ذكرى أبي العلاء) سنة ١٩١٤م.

- بدأ تعلم اللغة الفرنسية سنة ١٩٠٩م بمدرسة ليلية أنشأها الشيخ عبد العزيز جاويش.

- ارتبط بـ(حزب الأمة) - حزب أحمد لطفي السيد..

وكتب شعرًا ونثرًا في صحيفته (الجريدة).. وكانت أولى قصائده المنشورة - بالجريدة - في ١ / ١ / ١٩٠٨م في رثاء حسن باشا عبد الرازق رئيس حزب الأمة وفيها هجاء للحزب الوطني -حزب مصطفى كامل باشا- وعندما تُوفي مصطفى كامل سنة ١٩٠٨م لم يتبعه طه حسين، رغم أن مصر كلها قد اهتزت لوفاته.

- ثم قادته علاقاته بالشيخ عبد العزيز جاويش إلى صحافة الحزب الوطني - بعد تراجع دور حزب الأمة - واستمرت هذه العلاقة حتى سفره إلى فرنسا سنة ١٩١٤م.

- في هذه المرحلة نشر مقالات في النقد الأدبي والفكر الديني في صحف (الجريدة) و(مصر الفتاة) و(الشعب) و(الهداية) و(الوطن) و(العلم).. فكتب عن الوطنية المصرية، والدستور، والحكم النيابي، وتحرير المرأة، والتدين، وتحكيم القرآن والشريعة، والفضيلة.. وفي النقد الأدبي هاجم بضراوة أعلام العصر المنفلوطي، والرافعي، وحافظ إبراهيم، وكتاب (المؤيد) فضلًا عن شيوخ الأزهر.. وكانت له آراء في هذه الفترة -خالفها هو بعد سفره إلى فرنسا- منها:

- نقده التزيي بالأزياء الإفرنجية.. وتحريمه زواج المسلم من الكتابية الأوروبية!

- كانت أولى محاضراته بنادي الموظفين - في أكتوبر سنة ١٩١١م - عن تاريخ اللغة العربية.

- سافر إلى فرنسا مبعوثًا من الجامعة المصرية إلى جامعة السوربون سنة ١٩١٤م وعاد إلى مصر ثانية شتاء سنة ١٩١٥م بسبب الحرب العالمية الأولى.. ثم استأنف السفر ثانية إلى فرنسا سنة ١٩١٥م.. ومن السوربون نال الدكتوراه سنة ١٩١٧م عن رسالته (فلسفة ابن خلدون الاجتماعية).. كما نال: إجازة الآداب سنة ١٩١٧م.. والدبلوم العالي في التاريخ القديم واللغتين اليونانية واللاتينية.

- وفي فرنسا تزوج سنة ١٩١٧م من زوجته (سوزان برسّو).

- ولقد عاد من فرنسا سنة ١٩١٩م، فدرّس بالجامعة المصرية دروس التاريخ اليوناني والروماني.. وشغل كرسي التاريخ القديم.. ونشر سنة ١٩٢٠م كتابه (صحف مختارة من الشعر التمثيلي عن اليونان).. وفي سنة ١٩٢١م نشر كتابه (نظام الأثينيين.. لأرسطو).

- وعندما أصبحت الجامعة حكومية سنة ١٩٢٥م تولى فيها كرسي الأدب العربي.

- وفي سنة ١٩٢٥م نشر كتابه (قادة الفكر) الذي عبر فيه عن الإعجاب الشديد بكل ما هو غربي.. كما أسهم سنة ١٩٢٥م في تأليف كتاب (الإسلام وأصول الحكم).. وفي الدفاع عنه بصحيفة (السياسة).. وفي العام التالي سنة ١٩٢٦م نشر كتابه (في الشعر الجاهلي) الذي أثار ضجة فكرية وسياسية كبرى.

- في حقبة العشرينيات وبعد انقسام زعماء ثورة ١٩١٩م

إلى (سعديين) -مع سعد زغلول- و(عدليين) -مع عدلي يكن- انحاز طه حسين إلى العدليين، وهاجم (الوفد) وسعد زغلول.. وأصبح من أهم كُتاب (الأحرار الدستوريين)، وصحيفة (السياسة) التي كان يكتب لها منذ أواخر سنة ١٩٢٢م مقالين في الأسبوع -الأحد والأربعاء- وأشرف على صفحتها الأدبية منذ خريف سنة ١٩٢٣م.. وكان يرأس تحريرها في غيبة رئيس تحريرها د/ محمد حسين هيكل.. كما نشر مقالات ثقافية وسياسية في (الأهرام) عامي ١٩٢١م و١٩٢٢م.

- ولانحيازه في العشرينيات لأحزاب الأقلية، لم يكتبْ أيَّ نقد لحكومة (اليد الحديدية) التي رأسها محمد محمود باشا (يونيو ١٩٢٨ - أكتوبر ١٩٢٩م) والتي عطلت الدستور والبرلمان.

- انتُخب عميدًا لكلية الآداب في بداية سنة ١٩٢٨م، وذلك ليوم واحد.. ثم استقال تحت ضغوط أجنبية تريد بقاء العمادة في الأساتذة الأجانب.. فتولاها الفرنسي (جوستاف ميشو).. ثم عاد فانتخب عميدًا في نوفمبر سنة ١٩٣٠م.

- في سنة ١٩٣٢م تجدد الجدل حول كتابه (في الأدب الجاهلي).. الذي هو امتداد متطور لكتابه (في الشعر الجاهلي).. ووقف الأزهر ومجلس النواب ومعهما حكومة إسماعيل صدقي ضد الكتاب.. وفي ٢٠ مارس ١٩٣٢م قرر مجلس الوزراء فصل طه حسين من وظيفته الجامعية.. فانتقل

إلى صحافة حزب الوفد، وأصبح من كبار كُتاب صحف (كوكب الشرق) و(الوادي).. ومع الكتابات السياسية، بدأ يتوجه مع كوكبة من الكُتاب والمفكرين إلى الكتابة في الإسلاميات.. وإلى جانب صحافة الوفد بدأ في تلك الحقبة الكتابة في مجلات (الرسالة) و(الهلال) و(الجهاد) و(الحديث) وغيرها.

– عاد إلى الجامعة أواخر سنة ١٩٣٤م أستاذًا.. ثم انتخب عميدًا للآداب أواخر مايو سنة ١٩٣٦م وحتى سنة ١٩٣٩م.

– تولى منصب المراقب العام للثقافة بوزارة المعارف ١٩٣٩ – ١٩٤٢م.. وشغل منصب المستشار الفني لوزارة المعارف ١٩٤٢–١٩٤٤م.. وأشرف على إنشاء جامعة الإسكندرية ١٩٤٢ – ١٩٤٤م.. وأسس لإنشاء جامعة عين شمس.. ولنواة جامعة أسيوط.. وأسس المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد.. وأنشأ كرسيًا للغة العربية وآدابها بجامعة أثينا.. وتولى وزارة المعارف بحكومة الوفد – يناير سنة ١٩٥٠م – يناير سنة ١٩٥٢م.. وهو صاحب قرار مجانية التعليم الثانوي والفني.

– شغل منصب المستشار لدار الكاتب المصري – مؤسسة أسرة هراري – اليهودية المصرية – ما بين أكتوبر سنة ١٩٤٥م وحتى مايو سنة ١٩٤٨م.

– انتُخب عضوًا بمجمع اللغة العربية سنة ١٩٤٠م.. ورأس المجمع منذ سنة ١٩٦٣م وحتى وفاته.. وكان عضوًا منذ ١٩٦٤م بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب.. كما تولى

رئاسة اللجنة الثقافية بجامعة الدول العربية.. ورأس تحرير صحيفة (الجمهورية) سنة ١٩٦٠م.

- أيد ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢م التي نظرت إليه كمفكر، ونصير للعدالة الاجتماعية -وليس كحزبي-، وأصبح من كبار كُتابها المدافعين عن توجهاتها الوطنية والعربية.. وفي عدم الانحياز.. ومناصرة حركات التحرر الوطني.. وضد الأحلاف العسكرية الاستعمارية.. مع نقد خفيف، بالصمت أو التلميح ...

- كان أول كاتب ينال جائزة الدولة التقديرية للآداب سنة ١٩٥٨م.. كما نال وسام قلادة النيل سنة ١٩٦٥م.. وحصل على العديد من الألقاب والأوسمة وشهادات الدكتوراه الفخرية من عدد من الجامعات - من جامعة ماليزيا سنة ١٩٦٦م - ومن جامعة مدريد - ومن جامعة غرناطة سنة ١٩٧٠م.. وتسلم جائزة الأمم المتحدة لحقوق الإنسان قبل وفاته بيومين.

- قام برحلات وزيارات خارجية كثيرة.. وشارك في العديد من المؤتمرات الفكرية والثقافية.. وكانت رحلته إلى الحجاز سنة ١٩٥٥م .. ذات تأثير عميق في تطوره الفكري ومراجعاته الفكرية.

- كان حريصًا طوال حياته الفكرية على أن تكون أفكاره لافتة للأنظار.. بل ومثيرة للجدل.. وخاض الكثير من المعارك والمساجلات الفكرية والأدبية مع كثير من أعلام عصره -

المنفلوطي.. والرافعي.. وحافظ.. وشوقي.. والعقاد.. والمازني.. وزكي مبارك.. ومنصور فهمي.. ومحمد حسين هيكل.. وساطع الحصري.. ورئيف خوري.. ومحمود أمين العالم.. وعبد العظيم أنيس... إلخ... إلخ.

– ولقد نشر في حياته نحوًا من ألف وخمس مئة مقالة، وأربعة وخمسين كتابًا في الفكر والأدب والنقد، وست روايات، ورواية لم تكتمل –هي (ما وراء النهر) التي بدأها سنة ١٩٤٦م ونشرت بعد وفاته سنة ١٩٧٥م– وخمسة كتب في القصص القصيرة.. وله اثنتا عشرة قصة لم تُجمَع، وأحد عشر كتابًا مترجمًا، وثلاثون مقالة مترجمة، وسبعة عشر كتابًا مؤلفًا بالاشتراك مع آخرين، وثمانية كتب محررة بالاشتراك مع آخرين، ومقدمات لثلاثة وأربعين كتابًا، وثلاثٌ وعشرين قصيدة شعر لم تجمع ولم تنشر في حياته.. ونصوص فرنسية ترجمت بعد وفاته ونشرت تحت عنوان (من الشاطئ الآخر).. ولقد ترجمت العديد من كتبه إلى العديد من اللغات الغربية والشرقية.. كما أشرف على نشر العديد من المصادر والمراجع الفكرية، ومنها موسوعة قاضي القضاة عبد الجبار بن أحمد الهمداني (المغني في أبواب التوحيد والعدل) في الفكر الاعتزالي.

– وله شعر جيد، منه ما ضاع، ومنه ما نشر في الصحف.. ولقد ذكر في الجزء الأول من (الأيام) عن وفاة أخيه بالكوليرا –صيف سنة ١٩٠٢م– أنه كان ينفق وقتًا طويلًا في نظم قصائد

يَرثي بها أخاه، ويختم كل قصيدة بالصلاة على النبي ﷺ واهبًا ثواب هذه الصلاة إلى أخيه.

– ولقد أنجب ابنته (أمينة) – التي أطلقت عليها زوجتُه اسمًا فرنسيًا (مارجريت) – وابنًا هو (مؤنس) – الذي أطلقت عليه زوجته اسمًا فرنسيًا (كلود) – ولقد أهدته ابنته مصحفًا صغيرًا، فقال لها: «لك العهد يا ابنتي: لا يفارقني مصحفك الدقيق حيًا أو ميتًا».. أما ابنه، فلقد نال الدكتوراه من فرنسا عن (تأثير الآداب الإسلامية في الأدب الفرنسي).. ولقد نصح ابنته أمينة بإدخال أولادها مدارس عربية.. أما ابنه فيقال إنه تنصَّر، ومات نصرانيًا في فرنسا!.

– ولقد اعتلت صحته منذ سنة ١٩٦٤م.. فكان حتى وفاته قارئًا أكثر منه كاتبًا.

– ولقد تحدث – قبيل وفاته – إلى د/ غالي شكري (١٩٣٥-١٩٩٨م) فقال:

«إن البلد لا يزال متخلفًا وفقيرًا ومريضًا وجاهلًا.. نسبة الأمية كما هي، ونسبة المثقفين تتناقص بسرعة تدعو للانزعاج.. يخيل إليَّ أنَّ ما كافحنا من أجله هو نفسه لا زال يحتاج إلى كفاحكم وكفاح الأجيال المقبلة بعدكم.. أودعكم بكثير من الألم وقليل من الأمل»!.

– ولقد توفي طه حسين ومصر مشغولة بأحداث حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣م – توفي أول شوال يوم عيد الفطر سنة ١٣٩٣هـ / ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٧٣م.. ودفن في القبر الذي

أوصى أن يُحفَر عليه هذا الدعاءُ النبوي الذي كان أثيرًا إلى قلبه، قريبًا من لسانه:

«اللهم لك الحمد، أنت نور السماوات والأرض، لك الحمد، أنت قيوم السماوات والأرض، ولك الحمد، أنت رب السماوات والأرض ومن فيهن.. أنت الحق، ووعدك الحق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمتُ، وبك آمنتُ، وعليك توكلتُ، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت.. أنت إلهي لا إله إلا أنت».

رحمه الله.

***

- ومن بين الآثار الفكرية التي خلَّفها طه حسين، تَبرُز هذه الآثار، التي نُشرت في هذه التواريخ:

١- (تجديد ذكرى أبي العلاء) سنة ١٩١٥م.

٢- (آلهة اليونان) سنة ١٩٢٠م.

٣- (حديث الأربعاء) جـ١ سنة ١٩٢٥م.

٤- (فلسفة ابن خلدون الاجتماعية) سنة ١٩٢٥م.

٥- (قادة الفكر) سنة ١٩٢٥م.

٦- (حديث الأربعاء) جـ٢ سنة ١٩٢٦م.

٧- (في الشعر الجاهلي) سنة ١٩٢٦م.

٨- (في الأدب الجاهلي) سنة ١٩٢٧م.

٩- (الأيام) جـ١ سنة ١٩٢٩م.

١٠- (حافظ وشوقي) سنة ١٩٣٣م.
١١- (على هامش السيرة) جـ١ سنة ١٩٣٣م.
١٢- (في الصيف) سنة ١٩٣٣م.
١٣- (أديب) سنة ١٩٣٥م.
١٤- (من بعيد) سنة ١٩٣٥م.
١٥- (القصر المسحور) سنة ١٩٣٦م.
١٦- (مع المتنبي) سنة ١٩٣٦م.
١٧- (من حديث الشعر والنثر) سنة ١٩٣٦م.
١٨- (على هامش السيرة) جـ٢ سنة ١٩٣٧م.
١٩- (على هامش السيرة) جـ٣ سنة ١٩٣٨م.
٢٠- (مستقبل الثقافة في مصر) سنة ١٩٣٨م.
٢١- (مع أبي العلاء في سجنه) سنة ١٩٣٩م.
٢٢- (الأيام) جـ٢ سنة ١٩٤٠م.
٢٣- (دعاء الكروان) سنة ١٩٤١م.
٢٤- (الحب الضائع) سنة ١٩٤٢م.
٢٥- (لحظات) سنة ١٩٤٢م.
٢٦- (أحلام شهرزاد) سنة ١٩٤٣م.
٢٧- (شجرة البؤس) سنة ١٩٤٤م.
٢٨- (صوت باريس) جـ١ ، جـ٢ سنة ١٩٤٣م.
٢٩- (صوت أبي العلاء) سنة ١٩٤٤م.
٣٠- (جنة الشوك) سنة ١٩٤٥م.
٣١- (حديث الأربعاء) جـ٣ سنة ١٩٤٥م.

٣٢- (فصول في الأدب والنقد) سنة ١٩٤٥م.
٣٣- (الفتنة الكبرى) جـ١ سنة ١٩٤٧م.
٣٤- (ما وراء النهر) سنة ١٩٤٧م.
٣٥- (رحلة الربيع) سنة ١٩٤٨م.
٣٦- (مرآة الضمير الحديث) سنة ١٩٤٨م.
٣٧- (المعذبون في الأرض) سنة ١٩٤٩م.
٣٨- (الوعد الحق) سنة ١٩٤٩م.
٣٩- (جنة الحيوان) سنة ١٩٥٠م.
٤٠- (بين بين) سنة ١٩٥٢م.
٤١- (ألوان) سنة ١٩٥٢م.
٤٢- (الفتنة الكبرى) جـ٢ سنة ١٩٥٣م.
٤٣- (خصام ونقد) ١٩٥٥م.
٤٤- (من هناك) سنة ١٩٥٥م
٤٥- (نقد وإصلاح) سنة ١٩٥٦م.
٤٦- (أحاديث) سنة ١٩٥٧م
٤٧- (رحلة الربيع والصيف) سنة ١٩٥٧م.
٤٨- (من أدبنا المعاصر) سنة ١٩٥٨م.
٤٩- (مرآة الإسلام) سنة ١٩٥٩م.
٥٠- (من أدب التمثيل الغربي) سنة ١٩٥٩م.
٥١- (من لغو الصيف إلى جد الشتاء) سنة ١٩٥٩م.
٥٢- (الشيخان) سنة ١٩٦٠م.
٥٣- (خواطر) سنة ١٩٦٧م.

٥٤- (الأيام) جـ٣ سنة ١٩٦٧م.

هـذا إلـى مقـالات صحفيـة -في سـت مجلـدات- جمعتها وطبعتهـا دار الكتب والوثائق القوميـة.. ومجلدان فيهما أوراقه ومراسـلاته جمعتهما ونشرتهما دار الكتب والوثائق القومية.. ومجلـد ضخـم عن الوثائق السـرية لطه حسـين حققـه وقدم له الدكتور عبدالحميد إبراهيم، وكتاب (من الشاطئ الآخر) الذي ترجمه عن الفرنسية عبد الرشيد الصادق محمودي والذي نشر سـنة ١٩٩٢م. وكتاب (طه حسـين الشـاعر الكاتب) لمحمد سـيد كيلاني والذي يضم عددًا من أشـعاره ومقالاته المبكرة.. وكتـاب الكتابات الأولى لطه حسـين التـي حققها وقدم لها د/ عبدالرشيد الصادق محمودي والذي نشر سنة ٢٠٠٢م.[1]

(١) انظـر في هذه الترجمة: المقدمـات والدراسات التي كتبها عن طه حسين: د/ سعيد إسماعيـل علي، إبراهيم عبـد العزيز، د/ أحمد زكريا الشلـق، د/ رءوف عباس - في (تراث طـه حسين - طبعة دار الكتب والوثائق القوميـة - ج١ - ج٦ سنة ١٤٢٣هـ- سنـة ٢٠٠٢م، سنة ١٤٢٨هـ- سنة ٢٠٠٧م، ١٤٢٥هـــ- سنة ٢٠٠٤م، ١٤٢٤هـ - سنة ٢٠٠٣م، سنة ١٤٢٥هـ - سنة ٢٠٠٥م، سنة ١٤٢٧هـ- سنة ٢٠٠٦م) و (أوراق طه حسين ومراسلاتـه) ج١، ج٢، إشراف ودراسة: د/ أحمـد زكريا الشلق، د/ محمد صابر عرب - طبعة دار الكتب والوثائق القومية سنة ١٤٢٨هـ - سنة ٢٠٠٧م و(الوثائق السرية لطه حسين) تحقيق وتقديم: د/ عبد الحميد إبراهيم - طبعة دار الشروق سنة ١٤٢٧هـ- سنة ٢٠٠٦م. ومحمـد سيد كيلاني (طه حسين الشاعر الكاتب) طبعة دار القومية العربية - القاهـرة سنة ١٩٦٣م. وحسين محمد بافقيه (طه حسين والمثقفون السعوديون) طبعة بيروت سنة ١٤٣٠هـ - سنة ٢٠٠٩م.

(الموسوعـة العربيـة) طبعة دمشق سنة ٢٠٠٣م. ود/ غالى شكـري (ماذا يبقى من طه حسين؟) طبعة بيروت سنة ١٩٧٤م وسوزان طه حسين (معك) ترجمة: بدر الدين عرودكي - مراجعـة: محمود أمـين العالم طبعة المركز القومي للترجمـة - القاهرة ٢٠٠٩م. =

بين يدي هذا الكتاب

المراجعات الفكرية في تاريخ الفكر الإنساني حقيقة بارزة يشهد عليها تاريخ الأفكار، دينية كانت أو بشرية هذه الأفكار.. فسحرة فرعون قد راجعوا إيمانهم بألوهية فرعون، وآمنوا برب موسى وهارون -عليهما السلام-، والحواريون، الذين نصروا المسيح عليه السلام قد راجعوا مقولات الكهنة والكتبة والفريسيين الذين جعلوا بيت الرب مغارة لصوص، والوثنيون العرب الذين طالما عبدوا الأحجار، هم الذين حملوا رايات التوحيد والتنزيه إلى العالمين فى مشارق الأرض ومغاربها.

وإمام الأشعرية أبو الحسن الأشعري (٢٦٠ - ٣٢٤هـ / ٨٧٤ - ٩٣٦م) كان معتزليًا، ثم راجع الأصول الخمسة للاعتزال. وقاضي القضاة عبد الجبار بن أحمد الهمداني (٤١٥هـ- ١٠٢٤م) أصبح فيلسوف المعتزلة بعد أن كان من خصوم الاعتزال.

وفي جيل طه حسين.. النصف الأول من القرن العشرين - راجعت كوكبة من كبار المفكرين مذاهب التغريب والعلمانية والفرعونية وأصبحوا أعلامًا وطلائع لليقظة الإسلامية والإحياء الحضاري للأمة بالإسلام.. ومن هؤلاء الأعلام: منصور فهمي باشا (١٣٠٣- ١٣٧٩هـ- ١٨٨٦ - ١٩٥٩م) والأستاذ العقاد (١٣٠٦ - ١٣٨٤هـ/ ١٨٨٩

=وجمال أحمد عبد الحليم العسكري (الاتجاهات الدينية) في أدب طه حسين ج١، ج٢ طبعة الهيئة العامة للكتاب - القاهرة سنة ٢٠٠٨م.

- ١٩٦٤م) والدكتور محمد حسـين هيكل باشا (١٣٠٥ - ١٣٧٥هـ / ١٨٨٨ - ١٩٥٦م) والأستاذ خالد محمد خالد (١٣٣٩ - ١٤١٦هــ - ١٩٢٠ - ١٩٩٦م).. وغيرهـم كثيرون.

وفيما يتعلق بالدكتور طه حسـين فلقد أفردنا لإيابه الفكري -من التغريـب إلى الإسـلام- كتابنا (طه حسـين مـن الانبهار بالغـرب إلـى الانتصار للإسـلام) وفيـه تتبعنا تفاصيـل رحلته المتعرجـة.. والشـاقة.. والطويلة.. والعريضـة والعميقة التي انتهـت به إلـى إعلان الإيـاب الروحي إلى الإسـلام فـي رحلته الحجازية سنة ١٩٥٥م عندما تحدث في الحرم المكي عن هذه الرحلـة، فوصفها «بأنها تلبية لدعـوة آمرة من خارج النفس!.. عـادت فيها النفس الغريبـة إلى وطنها بعد غربـة غريبة طويلة جدًا، وهي مدركة لما بين الله وبينها من حسـاب عسير وراجية من الله أن يجعل من عسره يسرًا»[٢]!

وبعـد أربـع سـنوات من هـذا الإيـاب الروحي -فـي الرحلة الحجازية- أصدر طه حسـين كتاب مراجعاتـه الفكرية كتاب: (مرآة الإسـلام) الذي راجع فيه كل كتاباتـه التي أثارت الجدل وفجـرت المعارك الفكرية الكبرى فـي النصف الأول من القرن العشرين.. ففي هذا الكتاب:

- يكشف طه حسين عن ألوان من إعجاز النظم القرآني، لعله لم يسبق إليها.

(٢) المصدر السابق ص٣٣٧، ٣٣٨، ٣٣٩، ٣٤٠، ٣٤١، ٣٥٨، ٣٥٩، ٣٥٥

- وفيــه رفض قاطع للغرور العقلانــي، الذي طغى على فكره في مرحلة الانبهار بالغرب ومناهج الشك الغربية.

- وفيه رفض للتأويل الباطني، وتأويلات التصوف الإشراقي لآيــات القرآن الكريــم.. فلقد رفض -في هــذا الكتاب- تأويل الآيات المتشــابهات حتى من قِبَل الراســخين فــي العلم.. إذ لا يعلم تأويله إلا الله.

- وهو -في هذا الكتاب- ناقد للفلسفة والفلاسفة، ولإقحام الفلسفة في الدين، هذا الإقحام الذي قاد «المعتزلة إلى مذهبهم في نفــي الصفات، وظنهم أن العقل يســتطيع معرفة كل شــيء وحتى معرفة الذات والصفات».

- وهو في هذا الكتاب، يُكثِر من الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ قرابة الثمانين مرة.

- وفيــه تتميز وتمتاز نظرات طه حســين في القرآن الكريم؛ فعندما يسوق شواهده في المشركين واليهود والنصارى، يتمنى القارئ لو أن الفرصة قد ســنحت لطه حســين كي يفســر القرآن الكريم، إذن لَأضيف إلى المكتبة القرآنية تفسير متميز وممتاز.

- وفيــه تجلــت العلاقة الحميمة بين طه حســين والإســلام مؤسَّسةً على العقل والنقل والوجدان.

- وفيــه نقد لأبي العــلاء المعري وغروره العقلاني و«شــكه السخيف».

- وذلك علاوة على ما فيه من نقد ذاتي لما ســبق وأورده طه حسين في كتاب (مستقبل الثقافة في مصر).

- وفي هذا الكتاب تخلّص أسلوب طه حسين من التكرار الذي كان يعيبه عليه كثيرون. وإذا أردنا -في إشارات موجزة- أن نضرب بعض الأمثال على ما في هذا الكتاب (مرآة الإسلام) من مراجعات فكرية، فإننا نشير -على سبيل المثال- إلى:

أ- ما جاء فيه من نقض لما سبق أن ذكره طه حسين (في الشعر الجاهلي)، وذلك عند تفسير قوله تعالى:

﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

(البقرة: ١٢٨، ١٢٩)

ففي هذا التفسير يقول طه حسين.. «فالله يثبت في هذه الآيات دعاء إبراهيم وإسماعيل أثناء رفعهما القواعد من البيت، أن يجعلهما الله مسلمين له، وأن يجعل من ذريتهما أمة مسلمة له، وأن يبعث في هذه الأمة رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة.. فإبراهيم إذن هو الذي سمّى المؤمنين مسلمين، وهو أبوهم، وقد كان مسلمًا»[3].

ففي كتاب (في الشعر الجاهلي)، كان طه حسين يعتبر هذه العقائد ألوانًا من الحيل والأساطير!

ب- وبعد الانبهار بالفلسفة اليونانية -في (قادة الفكر)-

(٣) مرآة الإسلام ص٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٣، طبعة دار المعارف - القاهرة ١٩٥٩م.

واعتبارها «أشد من الدهر قدرة على البقاء» !.. نقرأ نقده فلسفة المسلمين الذين ساروا في الغلو العقلاني سيرة الفلسفة اليونانية.. فيقول:

«...ولم يلبث المسلمون أن عرفوا ألوانًا من الثقافات الأجنبية، والثقافة اليونانية خاصة والفلسفة اليونانية على وجه أخص، فتأثروا بهذا كله واتخذوه وسيلة إلى الدفاع عن دينهم كما فعل النصارى واليهود ثم مضوا إلى أبعد من ذلك فآمنوا بالعقل وحكَّموه في كل شيء، وزعموا أنه وحده مصدر المعرفة، وأنه هو الذي يحسِّن ويقبِّح من أعمال الناس حسنها وقبيحها، وأنه يستطيع أن يعرف الله، وأن يعرفه بقوته، سواء جاءته الأنبياء الهداة إلى الله أو لم يجيئوا وقد غرهم إيمانهم بالعقل فدفعهم إلى شطط بعيد ولم يخطر لهم أن العقل الإنساني مَلَكةٌ من ملكات الإنسان وأن هذه الملكة كغيرها من ملكات الإنسان محدودة القوة، تستطيع أن تعرف أشياء وتقصر عن معرفة أشياء لم تهيأ لمعرفتها، وهذا هو الذي فتح عليهم أبواب هذا الاختلاف الذي لا ينقضي، وجعلهم فرقًا نيفت على السبعين.. لقد تورطوا في أشياء أساغتها عقولهم ولا تستطيع عقولنا نحن أن تسيغها، ولسنا في حاجة إليها لنحسن الإيمان بالله والعلم بقدرته، وبما وصف نفسَه به من الصفات؛ لأننا قد عرفنا أن العقل الإنساني ليس من القوة والنفوذ بحيث ظن فلاسفة اليونان ومَن تبعهم من متفلسفي النصارى واليهود والمسلمين»[٤].

---

(٤) المصدر السابق ص٢٧٨، ٢٨٠.

جـ- وبعد أن كان يقول -(في الشعر الجاهلي)- : «إنه من أنصار الجديد الذين خلق الله لهم عقولاً تجد من الشك لذة، وفي القلق والاضطراب رضًا»[٥]... أصبح ناقدًا للغلو العقلاني عند المعتزلة «فلقد تجاوزت المعتزلة ما ألف الصالحون من القصد، فأغرقوا في تحكيم العقل فيما لا يستطيع العقل أن يحكم فيه»[٦].

د- وبعد أن عرض سنة ١٩١٤م -في (تجديد ذكرى أبي العلاء)- مذهب المعري الذي لا يؤمن إلا بالعقل.. وإن تردد فيه فتردده إنما يكون بين (العقل) وبين (الشك) فقال:

«والواقع أن أبا العلاء لم يتخذ لنظره الفلسفي مذهب أهل السنة، ولا مذهب السوفسطائية وأصحاب الشك ولا مذهب المعتزلة أيضًا ذلك أنه لا يؤمن إلا بالعقل وحده فخالف بهذا أهل السنة؛ لأنهم يقدمون الشرع على العقل، وإن آمنوا به، وخالف مذهب المعتزلة؛ لأنهم على تقديمهم للعقل يتخذون الشرع لنظرهم أصلًا ودليلًا ويعتزون به ويلجئون إليه، وخالف مذهب السوفسطائية؛ لأنهم يتهمون العقل فلا يؤمنون به، ولا يعتمدون عليه.

وإذن فهو يرى رأي الفلاسفة النظريين من اليونان والمسلمين في الاعتماد على العقل خاصة.. لقد قال في الرد على الباطنية:

(٥) في الشعر الجاهلي ص٥.
(٦) مرآة الإسلام ص٢٧٧.

يرتجي الناس أن يقوم إمام ... ناطق في الكتيبة الخرساء
كذب الظن لا إمام سوى العقـ ... ـل مشيرًا في صبحه والمساء
فإذا ما أطعته جلب الرحـ ... ـمة عند المسير والإرساء

وقال:

سأتبع من يدعو إلى الخير جاهدًا ... وأرحل عنها ما إمامي سوى العقل

فهذا الحصر تصريح بأن الرجل لا يأتمّ إلا بعقله.. على أنه لم يستطع أن ينتحل للعقل العصمة ولا أن يزعم قدرته على الإيصال إلى اليقين المطلق، بل حفظ للشك حقه في الدخول على ما أثبته العقل.. على أنه لا يعمم الشك إلا في مسائل الغيب، فأمَّا عالم الشهادة فلا يبسط أبو العلاء الشك عليه؛ فلم يكن من أهل الشك، ولا من الذين يتخذون الشرع لهم إمامًا وإنما هو من الذين لا يثقون إلا بالعقل، فإذا وثقوا به فلا يستسلمون إليه»[7].

بعد هذا الذي عرضه سنة ١٩١٤م، رأيناه -في (مرآة الإسلام)- ينتقد هذا الغلو العقلاني عند أبي العلاء فيقول: «انظر إلى رجل حكيم كأبي العلاء، كيف غره الإيمان بالعقل فظنَّ أنه الإمام ولا إمام غيره، وأنه وحده يهدي الناس في المسيرة والإرساء.. وكيف انتهى به إيمانه بالعقل إلى مقالة لا يسيغها الدين ولا يقرها الإسلام في قوله:

قلتم لنا خالق حكيم ... قلنا صدقتم كذا نقول
زعمتموه بلا مكان ... ولا زمان ألا فقولوا
هذا كلام له خبيء ... معناه ليست لنا عقول

(٧) تجديد ذكرى أبي العلاء ص٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٢.

فعقله لم يستطع أن يتصور الخالق الحكيم في غير زمان ولا مكان، فاضطره ذلك إلى أن يصف الخالق الحكيم بما يصف به سائر المخلوقات من الخضوع للزمان والمكان، وهذا سُخف لا يقول به مؤمن.

وكل هذا وأمثاله عند أبي العلاء وغيره من الذين غرهم العقل فأسرفوا في الإيمان به، وحكّموه فيما لا يستطيع أن يحكم فيه، لا يدل إلا على الحيرة والعجز والقصور عن بلوغ الحقيقة التي حاولوا أن يبلغوها»[٨].

هـ- ورأيناه، بعد أن كان يقول إن الناس مندفعون إلى العلم والمعارف الحديثة، دون أن يعبئُوا بالتوفيق بينها وبين العقائد.. يرفض التأويل.. والغلو العقلاني.. ويرى أن الدين مطلق، بينما العلم محدود.. ويسفه الغلو الباطني القائم على الإغراق والإغراب في التأويل.. فيقول:

«...وما أحب أن أعرض لتأويل هذه الطير الأبابيل التي رمت الحبشة بحجارة من سجيل فجعلتهم كعصف مأكول؛ لأني أوثر دائمًا أن أقبل النص وأفهمه كما فهمه المسلمون الأولون حين تلاه عليهم النبي ﷺ فهؤلاء الذين يزعمون أن الطير الأبابيل إنما كانت وباءً من الأوبئة، وكانت الحجارة ضربًا من الميكروبات إنما يقولون هذا من عند أنفسهم وهم يعلمون حق العلم أن النبي وأصحابه لم يفهموا هذه السورة على هذا النحو وما كان لهم أن يفهموها على هذا

(٨) مرآة الإسلام ص٢٨٠، ٢٨١.

النحو، فهم لم يكونوا يعرفون الميكروب، وما كان لهم أن يعرفوه.

وكذلك الذين يقولون إن السماوات السبع التي تُذكر في القرآن هي الكواكب السيارة، إنما يرجمون بالغيب ويقولون ما لم يقله النبي وأصحابه، ومصدر هذا أنهم يريدون أن يلائموا بين القرآن ومستكشفات العلم الحديث فيضطرهم ذلك إلى تكليف النصوص من التأويل ما لا تحتمل، وليس على الدين بأس أن يلائم العلم الحديث أو لا يلائمه، فالدينُ من علم الله الذي لا حدَّ له، والعلم الحديث كالعلم القديم محدود بطاقة العقل الإنساني، وبهذا العالم الذي يعيش الإنسان فيه.

ومن أسخف السخف أن نحاول الملاءمة بين ما لا حد له وما هو محدَّود بطبعه. وصدق الله حين أنبأ بأن الراسخين في العلم يقولون:

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ (آل عمران: ٨)

إن كل الذين حاولوا أن يعرفوا الله بعقولهم معرفة دقيقة لم يكتفوا بما اكتفى النبي ﷺ وأصحابه -رحمهم الله- من قبول نص القرآن وفهمه في يسر وإسماح، وفي غير تكلف ولا إسراف في التأويل، والله عز وجل ينبئنا في القرآن أنه أنزل الكتابَ فيه آيات محكمات هن أم الكتاب وآخر متشابهات، وبأن الذين في قلوبهم زيغ يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، مع أن العلم بتأويله موقوف على الله عز وجل وبأن الراسخين في

العلــم يقولون آمنا بــه كل من عند ربنا ، وذلك في قوله عز وجل في سورة آل عمران :

﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴾

(آل عمران : ٧ ، ٨)

وهــذه هي المقالــة التي يجب على كل مؤمــن أن يقول بها ويتخذهــا دينا ، ولســت أدري أيصل العقل إلــى أن يبلغ ما لم يبلغــه الآن مــن القوة أم لا ، ولكن الشــيء المحقق هو أن عقل القدماء وعقل المحدثين من أصحاب الفلســفة والعلم لا يزال أضعــف وأقصــر باعًا من أن يصلا إلى استكشــاف حقيقة الله ، أو البحــث عــن صفاته وإصــدار هذه الأحــكام التــي أصدرها الفلاسفة والمتكلمون ، اغترارًا بالعقل واستجابة لما لا تنبغي الاستجابة له .

ومن أجل هذا أقول : إن المُؤَوِّليين من المحدثين كالمؤولين من القدماء قد اســتجابوا لعقولهم القاصرة واغتروا بها ، وقالوا فيما ليس لهم أن يقولوا فيه ، وطمعوا فيما ليس لهم أن يطمعوا فيه ، ولو قد تواضع أولئك وهؤلاء ، ووقفوا أنفسهم حيث تنتهي بهم قوتهم ، لكان خيرًا لهم وللذين افتتنوا بهم من الناس .

وشــر آخــر . . ملأ حيــاةَ المســلمين فســادًا أي فســاد ، وهو

الغلـو في التأويل إلى أبعد ما يتصور العقـل، وإلى غير ما يفهم صراحة مـن نصوص القرآن.. كهؤلاء الباطنيـة الذين زعموا أن العلم بالدين علمان: علم ظاهر وهو ما عليه الناس في كثرتهم، وعلـم باطن وهو ما هم عليـه وجعلوا يتركون ظاهر النص؛ لأنه لا يليـق إلا بعامة الناس ولا يلائم خاصتهم ثم يلتمسـون للنص تأويلًا يخالف كل المخالفة ما يفهم منه لغة، وما فهمته جماعة المسـلمين حين سـمعوا النبي يتلو عليهم القرآن ويبين لهم ما أنـزل عليهم، وغلـوا في ذلك كل الغلو حتى أحدثوا لأنفسـهم دينًـا لا يدين به غيرهم من المسـلمين فأفسـدوا الدين والعقل معًا»[٩].

هكذا اتخذ طه حسين -من التأويل- هذا الموقفَ المحافظَ، الذي يستغربه أولئك الذين لم يدركوا هذا التطور الفكري الذي أحرزه الرجلُ في العديد من الميادين.

و- وغير النقد الشـديد للتأويل الباطنـي للنصوص القرآنية -الـذي أخرج أصحابه عـن الدين، والذي أفسـد الدين والعقل معًا- رأينا طه حسين ينتقد التصوف الباطني ومذاهب الإشراق، ووحدة الوجود.. فيقول:

«...ولـم يلبث التصـوفُ أن تأثر بما عرف المسـلمون من ثقافة الهند والفرس، ومن ثقافة اليونان خاصة وتحول الزهد من تفـرغ للعبادة وإمعان فيها إلى محاولـة الاتحاد بالله أو الاتصال به، أو معرفته من طريق الإشـراق ثـم اختلط التصوف بمذاهب

(٩) المصدر السابق ص ٣٢، ٢٨٢، ٢٨٣، ٢٨٤.

الباطنية فازداد تعقيدًا إلى تعقيد»[10].

ز- وبعد أن كان يقول: إن الحكم إنما يقوم على «المنافع»، لا على «الدين ولا على اللغة».. وأننا يجب أن نسير في هذا الحكم سيرة الأوربيين -الأجانب- رأيناه يرفض «هذا الشر العظيم» الذي جاء به الأجانب، ويدعو إلى إقامة الحكم على ما جاء به الدين واللغة العربية.. ويفضل النموذج الإسلامي في الفقه على نظيره الروماني، فيقول: «ولم يلبث الأمرُ أن صار إلى شر عظيم حين غلبت العناصر الأجنبية على شئون الحكم، فأقامت هذه الشئون على المنافع، غير حافلة بما يأمر به الله من العدل والإنصاف والمساواة والشعور المتصل بهذه الرقابة الرهيبة التي فرضها الله على الناس.. ثم لم يكتف الحكام الأجانب بهذا كله، ولكنهم جهلوا اللغة العربية، فلم يقدروها قدرها، ولم يلتفتوا إلى أنها لغة القرآن والسنة والثقافة..

ومن أجل هذا كله غاضت تلك الينابيع الغزيرة التي كانت تمد عقول الفقهاء بهذا الإنتاج الخصب الرائع، الذي لا نعرف أنه أتيح لأمة قديمة قبل الأمة الإسلامية، حتى الأمة الرومانية التي برعت في الفقه وتعمقته».[11]

ح- وبعد أن كان مع الوطنية المصرية المجردة من العروبة والإسلام.. ثم مع الفرعونية الرافضة للعروبة والوحدة أو حتى الاتحاد مع العرب.. رأيناه يتحدث عن الوحدة الإسلامية وليس

---

(10) المصدر السابق ص286.

(11) المصدر السابق ص297، 298، 299.

فقــط الوحدة العربية . . وعن أن القرآن الكريم هو صانع الوحدة الإسلامية والعربية - قديمًا . . وحديثًا . . ومستقبلًا فيقول :

« . . .وإذا كان هناك الآن وحدة إســلامية عامة ، أو شيء يشبه هــذه الوحدة فبفضــل القرآن وُجــدت ، وبفضل القرآن ســتبقي مهمــا تختلف الظروف وتدلهم الخطوب(١٢) ، وإذا كانت هناك وحــدة يحاول العرب أن يعــودوا إليها ويقيموا عليها أمرهم في الحيــاة الحديثة كما قامت عليهــا حياتهم القديمة ، فالقرآن هو أساس هذه الوحدة الجديدة كما كان للوحدة القديمة »(١٣) .

وبعد الإعراض عن التجديد الإسلامي ، ونقد مذهب الأفغاني ومحمــد عبــده فــي الإحيــاء والإصــلاح . . والدعوة -بــدلًا من ذلك- للســير وراء النموذج الغربي . . رأيناه يُشِــيد بالمجددين المســلمين مثل الأفغانــي . . ومحمد عبــده . . وعلمــاء التنوير الإسلامي- فيقول :

« ولقــد أتيح للمســلمين ، لحســن حظهم أفراد مــن العلماء فــي عصور مختلفة لم يجحدوا التقليــد جملة ، وإنما حاولوا أن يُعمِلوا عقولهم ويثبتوا شــخصيتهم وينشروا النور من حولهم ، وينظروا من علم القدماء فيما أعرض الناس عن النظر فيه .

وكان هــؤلاء العلمــاء يجدون نفــورًا منهــم وإعراضًا عنهم ، وربما وجدوا تشــهيرًا بهــم ومقاومةً لهم ، وربمــا أصابهم أذًى

(١٢) تدلهم الخطوب: تشتد الأمور.

(١٣) المصدر السابق ص١٦١.

يكثـر أو يقـل باعتبار الظروف التي تحيط بهـم وتحيط بالناس من حولهم...

ي- وبعـد كتاب (مسـتقبل الثقافة في مصـر) والدعوة إلى أن نسـير سـيرة الأوربيين في الإدارة والحكم والتشـريع أعلن طه حسـين أن القرآن دين وشـرع.. وأن مصادر التشـريع هي: القرآن والسـنة والإجماع والاجتهاد.. فقال: «إن القرآن يشرع للمسـلمين ما ينفعهم في الدنيا ويعصمهم من عذاب الآخرة إن استمسـكوا به وأنفذوه على وجهه، فيشرع لهم من أمر الزواج والطلاق والميراث والوصية والبيع والشراء وغير ذلك ما تقوم عليـه حياتهم الاجتماعيـة وحياتهـم الفردية أيضًـا.. فكل ما يعرض للمسـلمين من الأمر في حياتهم من المشـكلات يجب عليهم أن يردوه إلى الله ورسـوله، يلتمسون له الحل في القرآن، فـإن وجدوا هذا الحل فهو حسـبهم، وإن لم يجـدوه فعليهم أن يلتمسـوه في سـنة النبـي ﷺ، فيما صحت بـه الرواية عنه من قول أو عمل.. فإذا التُمس حل المشكلات في القرآن فلم يوجد والتُمـس في السـنة فلم يوجد، فالمسـلمون يرجعون إلى أصل ثالث من أصول الأحكام في الدين، وهو إجماع أصحاب النبي.. فإن لم يجد المسـلمون في القرآن ولا في السـنة ولا فيما أجمع عليه أصحاب النبي حلًا لبعض مشـكلاتهم فعليهم أن يجتهدوا رأيهم، ناصحين لله ورسوله وللمسلمين».[14]

(١٤) المصدر السابق ص١٤٦، ٢٣٤، ٢٣٥.

هكـذا تحـدث طه حسـين عـن مصـادر التشـريع والحكم والسياسـة في الدولة الإِسـلامية.. ففصل سنة ١٩٥٩م ما سبق أن أجمله سـنة ١٩٥٣م في لجنة وضع الدسـتور عندما دعا إلى هيمنة القرآن الكريم على القوانين والدستور.. ولم تكن صدفة أن ذلـك العـام -١٩٥٣م- كان العام الذي حن فيه طه حسـين لزيـارة مكة والمدينة، تلـك الزيارة التي آب فيهـا الغريب إلى الوطـن الذي صنع عقله وقلبه ووجدانـه وعواطفه كلها.. فوُلد -في هذه الرحلة الحجازية- ميلادًا جديدًا!

هكذا حدث التحول الحاسم لطه حسين مئة وثمانين درجة!

فبعـد أن كانـت طريق النهضة هـي وحدها طريـق النموذج الغربي -لا تعدد فيها.. ولا عدول عنها-.. أصبحت الطريق:

أن يثوب المسـلمون إلى أنفسـهم، ويُحيُوا تراثهم القديم، مضيفيـن إليـه العلـم الحديـث.. مـع التحذيـر مـن «العلـم الاسـتعماري» الذي يقطع ما بين المسلمين وتاريخهم، والذي يُفنِيهم والأمم المستعمرة إفناءً.. أي أصبحت (الإِسلامية) هي طريق اليقظة والنهوض.. وفي ذلك قال طه حسين:

«إنني أُلح على أن يثوب المسـلمون إلى أنفسهم، ليصبحوا أكْفاءً لقدمائهم من جهة، وأندادًا للذين يحاولون أن يستذلوهم من جهة أخرى.. فالمسـتعمرون في العصر الحديث يوشـكون أن يفرضـوا على المسـلمين ضروبًا من العلم قـد تخرجهم من الجهل، ولكنها ستقطع الأسـباب حتمًا بينهم وبين تاريخهم،

وتفنيهم في الأمم المستعمرة إفناء.. وسبل المسلمين إلى هذه اليقظة الخصبة واحدة لا ثانية لها، وهي أن يذكروا ما نسوا من تراثهم القديم، لا ليقولوا إنهم يذكرونه بل ليعرفوه حق معرفته، ويفقهوه جِدَّ الفقه، ويحسن المتخصصون منهم العلم بدقائقه وتيسيره لغير المتخصصين.

هذه واحدة، والثانية أن يستدركوا ما فاتهم من العلم الحديث، ويبتغوا إليه الوسائل التي تتيح لهم أن يتحققوه كما تحققه أصحابه، وأن يوطنوه في بلادهم، ويجعلوه مِلكًا لهم، وأن يبذلوا من الجهد ما يمكنهم في يوم قريب من ألا يكونوا عيالًا على المستأثرين به، بل يشاركون فيه مشاركة الأنداد الأكفاء.. وهذا الرقيّ متصل بالإسلام وحده.. فالقرآن وسنة النبي ﷺ وسيرة الخلفاء الصالحين من المسلمين.. وعلم العلماء المسلمين الذي سُجِّل في الكتب، والذي لم ينشر إلا قليله.. كل هذا مطلوبٌ العلمُ بحقائقه، وأن يتجاوز هذا العلمُ العقولَ الأفهامَ إلى القلوب والأمزجة، ويؤثر في الضمائر أعمقَ التأثير، ويؤثر في السيرة الظاهرة للمسلمين أعمق التأثير أيضًا». [(١٥)]

(١٥) المصدر السابق ص٣٠٦، ٣٠٧، ٣٠٨، ٣٠٩، ٣١٠، وانظر: طه حسين (الشيخان) ص١٦٣، ١٩٣، ٢٠٧، ٢٢٩ طبعة دار المعارف – القاهرة ٢٠٠٣م.

مرآة

الإسلام

(١)

في أواسط القرن السادس للمسيح كانت الأمة العربية متخلفة أشد التخلف بالقياس إلى الأمم التي كانت تجاورها، لها في الجنوب بقايا حضارة كانت قد درست ولم يكن أهل الجنوب أنفسهم يعلمون من أمرها إلا أخلاطًا هي إلى الأساطير أقرب منها إلى الحق.

كانوا يذكرون حِميَر وملوكها من التبابعة وكانوا يذكرون سبأ وكانوا يذكرون الأذواء بل كان الأذواء ما يزالون يحتفظون بشيء من سلطانهم يعيشون في حصونهم ويتسلطون على أهلها وعلى من حولها فى حواضر الجنوب وبواديه.

وكانت هناك مع ذلك قبائل متبدية لا تخضع لأحد منهم وإنما تعيش عيشة الأعراب في بواديهم وكانت في الجنوب مدن كبار أو صغار فيها بقية من حضارة ولكنها لا تُغنِي عن أصحابها شيئًا.

ولم يكن الجنوب العربي خالصًا للعرب وإنما كان الحبشة يتسلطون على جزء عظيم منه، وعجز العرب عن إجلاء هؤلاء المحتلين، فاستعانوا بالفرس على ذلك وأعانهم الفرس، ولكن لا ليردوا عليهم سلطانهم ولا ليخلصوا لهم وطنهم بل ليقوموا مقام الحبشة الذين أجلوهم.

وكان أهل الجنوب مع ذلك قد وصلت إليهم دعوة الدينين: اليهودي والمسيحي، وأكبر الظن أن يهوديتهم ومسيحيتهم كانتا تتأثران بجهلهم وغلبة البداوة عليهم كالذي سنراه حين نتحدث عن شمال الجزيرة.

ومهما يكن من شيء فمن الإِسراف في الخطأ أن نظن أن أهل جنوب الجزيرة العربية في ذلك الوقت قد كانوا على شيء ذي خطر من الحضارة بمعناها الصحيح، ولكنهم على كل حال كانوا يحيون حياة خيرًا من الحياة التي كانت تحياها سائر الأمة العربية في قلب الجزيرة وشمالها.

كانت لهم بقية من زراعة وكانت تصل إليهم تجارة الهند وأشياء من تجارة الحبشة والفرس وكان أهل الشمال كما سنرى يلمون بهم كل عام فينقلون ما عندهم من التجارة لينشروها في العالم المتحضر، وكان هذا كله يتيح لهم شيئًا من ثراء فلم يكن عيشهم قاسيًا ولا غليظًا كعيش غيرهم من العرب.

وكان ما ورثوا من بقايا حضارتهم الدارسة وما وصل إليهم من الديانتين السماويتين وما أتيح لهم من هذا الثراء المتواضع كان كل ذلك قد جعلهم أرقَّ قلوبًا وأصفى طِباعًا من أهل الشمال ولكنهم على هذا كله كانوا متخلفين بالقياس إلى الأمم المتحضرة فكانت كثرتهم الكثيرة أمية وكان أقلهم يكتبون ويقرءون.

فإذا تركنا الجنوب إلى قلب الجزيرة العربية -أي إلى نجد- فالحياة القاسية والعيش الغليظ والجهالة المطبقة ونظام القبائل الذي يقوم على العصبية أكثر مما يقوم على أي شيء آخر.

ولم يكن حال الشمال في تهامة والحجاز خيرًا من حال نجد وإن وجدت في الحجاز مدن أو قرى، كما كان يقال في تلك الأيام وإن عاش أهل هذه المدن أو القرى عيشة الاستقرار والدعة لا يرحلون عن مدنهم أو قراهم تتبعًا للغيث والتماسًا

للكلأ وإنما يرحلون تجارًا إلى الجنوب في الشتاء وإلى الشمال في الصيف، كما يحدثنا بذلك القرآن الكريم عن قريش.

كان لأهل الطائف وأهل يثرب شيء من زراعة ولكن حياتهم كانت تقوم على زراعتهم هذه اليسيرة وعلى تجارتهم أيضًا وكانت حياة مكة تقوم على التجارة من جهة وعلى الحج من جهة أخرى يفد إليها العرب من أقطار الجزيرة في موسم الحج فيقضون نسكهم ويتَّجرون أيضًا وتنتفع مكة بما يحملون من ألوان التجارة.

ومن حول هذه المدن أو القرى كانت البوادي بما فيها من شظف العيش وقسوة الحياة؛ والتنقل في التماس المراعي والخصومات المتصلة التي تثيرها العصبية بين القبائل والتي تنتج الغارات والحروب ومع ذلك فلم يستطع أهل هذه المدن أو القرى أن يَبرَءوا من العصبية ولا أن يعيشوا عيشة المتحضرين بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة وإنما كانت العصبية قوام حياتهم يعيشون عيشة القبائل في البادية وقد تثار بينهم الخصومات وقد تشب بينهم الحروب.

وكان هذا كله يستتبع كثيرًا من جفاء الأخلاق وغلظ القلوب بحيث لم تكن حياة أهل القرى تمتاز من حياة أهل البادية إلا بشيء من ثراء كانت تستأثر به قلة من الأغنياء، الذين يتسلطون على من يعيش معهم من الناس تسلطًا لا يخلو من عسف وظلم وأثرة واستعلاء.

وكانت اليهودية قد استقرت في شمال الحجاز لأسباب لا نحققها ولا يبينها التاريخ، فإلى جانب الأوس والخزرج في يثرب كانت تعيش قبائل يهودية، وفي خيبر كذلك،

وهــذه القبائــل اليهودية كانت تحيا نفــسَ الحياة التي كان العرب يحيونها من حولها قليل من حضارة وكثير من بداوة.

وكانت كثرة اليهود في الحجاز أمية كالعرب لا يقرأ ولا يكتب منهــم إلا أحبارهــم وكان هؤلاء الأحبار أقرب إلــى الجهل منهم إلى العلم وقليل منهم من كان يحسن العلم بدينه فكيف بسائر اليهود!

وسنرى فيما يأتي من هذا الحديث كيف صور القرآن الكريم جهل اليهود من أهل الحجاز بدينهم وكتابهم ولسنا نعلم -على سـبيل التحقيق- متى وصلت بعــض القبائل العربية إلى أطراف الشام وأطراف العراق.

ولكن المحقــق أن العرب في ذلك العصر الذي نتحدث عنه كانوا قد جاوزوا الجزيرة العربية شــمالاً إلى الشــام واســتقروا فــي أطرافه وأنهــم كذلك كانوا قد جاوزوا جزيرة العرب شــرقًا إلــى العراق وإلى الجزيرة وغلبت النصرانية على أولئك وهؤلاء ولكنهــا كانــت نصرانية خاصــة يجهل أصحابهــا حقائقها ولا يكادون يعرفون منها إلا مظاهر وصورًا.

وكما أن الإمبراطوريــة البيزنطية قد حمتْ هؤلاء العربَ في الشام واتخذت منهم حرسًا للحدود بينها وبين الجزيرة العربية وجعلت منهم ملوكًا وســادة وأجزلت لهم العطاء ويســرت لهم ســبل العيش فكذلــك صنعــت الإمبراطورية الفارســية بالعرب الذين اســتقروا في العراق، اتخذتهم حرسًا للحدود بينها وبين الجزيــرة العربية وجعلت منهم ملوكًا وســادة وملكت بعضهم وأغدقت عليهم العطاء.

(٢)

وإذن فقد عرف العرب النصرانية في الشام والعراق وربما عرفوها في مكة أيضًا وفي الطائف بفضل التجارة من جهة وبفضل من كان يصل إليهم من الرقيق من جهة ثانية وبفضل بعض التجار الذين غامروا بأنفسهم وبتجارتهم فوصلوا إلى مكة واستقروا فيها وكذلك عرف العرب المسيحية في الجنوب في مدينة نجران التي اضطهد المسيحيون من أهلها وعذبوا في دينهم كما يحدثنا المؤرخون وعرف العرب اليهودية في جنوب الجزيرة وشمالها.

فليس صحيحًا إذن أن الأمة العربية في ذلك العصر كانت تعيش في عزلة لا تعرف من أمر الأمم المجاورة لها شيئًا، فاليهودية والمسيحية لم تتنزلا على أهل الجنوب ولا على أهل الشمال من السماء وإنما جاءتا أولئك وهؤلاء من الاتصال بالأمم المتحضرة المجاورة.

وليس من شك في أن بعض العرب الذين جاوروا الفرس وخضعوا لسلطانهم خضوعًا ما، قد عرفوا المجوسية الفارسية واتخذوها لهم دينًا، وقد يقال إن أهل البادية في نجد وتهامة والحجاز كانوا بمعزل من هذا كله قد انقطعوا لأنفسهم وفرغوا لحياتهم تلك الغليظة القاسية، ولكن هذا أيضًا لا يستقيم؛ فمن عرب البادية والقرى ظهر شعراء كانوا يُسمون بعرب الشام وعرب العراق ويأخذون جوائز ملوكهم وسادتهم ويعودون بعد ذلك إلى قومهم في البادية فيحدثونهم بما رأوا وما سمعوا.

وهذه التجارة المتصلة بين أهل القرى وبين الأمم المجاورة كانت جديرة أن تعرِّف العرب كثيرًا من شئون الفرس والروم والحبشة أيضًا.

ولأمرٍ ما تنصر أفراد من قريش كورقة بن نوفل وزيد بن عمرو، ولأمر ما نجد فيما ينسب إلى بعض الشعراء في ذلك العصر من الشعر ما يدل على أنهم قد عرفوا أطرافًا من المسيحية واليهودية كالذي نجده عند النابغة الذبياني وعند زهير وعند الأعشى وعند أمية بن أبي الصلت الذي قال فيه النبي ﷺ فيما روى الشيخان: «كاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم».

ونحن لا نجد عند شعراء هذه الأطراف من الديانتين اليهودية والمسيحية فحسب وإنما نجد عندهم -إن صح ما ينسب إليهم من الشعر- وصفًا لأطراف من حضارة تلك الأمم كوصفهم لمجالس اللهو والشراب والغناء وغير ذلك.

فعزلة الأمة العربية إذن سخف من السخف لا ينبغي أن يُقبَل أو يُطمَأن إليه، وكل ما في الأمر أن قلب الجزيرة العربية وشمالها لم يخضعا لسلطان أمة متحضرة وإنما خُلِّي بينهما وبين الحياة الحرة يحياها أهلهما كما يريدون أو كما يستطيعون فعاشوا عيشتهم تلك الغليظة الجافية لم تصل إليهم الحضارة وإنما وصلت إليهم أطراف منها فهموا بعضها وقصروا عن فهم بعضها الآخر، فسيطرت عليهم جاهليتهم بكل ما فيها من الآثام والشرور والمنكرات.

(٣)

وكان لهم دين غليظ كحياتهم هو هذه الوثنية الساذجة الغليظة التي لم تفكر فيها عقولهم ولم تمتزج بقلوبهم وإنما كانت أخلاطًا ورثوها عن آبائهم فلم يغيروا منها شيئًا، بل أنكروا كل من حاول أن يغير منها شيئًا كالذي صنعت قريش بزيد بن عمرو حين أظهر السخط على دينها.

وإذا أردنا أن نحلل هذا الدين الذي كانت العرب تدين به في غير فقه ولا تعمق فسنرى أولًا أنهم لم يكونوا ينكرون أن للسماوات والأرض وما فيهن خالقًا هو الإله الأعظم، واقرأ إن شئت قول الله عز وجل:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾

(لقمان: ٢٥)

ثم اقرأ إن شئت هذا البيت الذي أحبه النبي ﷺ من شعر لبيد فيما روى الشيخان:

ألا كل شيء ما خلا الله باطلُ وكل نعيم لا محالة زائل

ولكن علمهم بوجود الله كان ساذجًا لم يبلغ أعماق قلوبهم ولم يصل إلى دخائل ضمائرهم ولم يمتزج بنفوسهم فاتخذوا من دون الله آلهة قريبة منهم يرونها بأبصارهم ويلمسونها بأيديهم بل قد يصنعون كثيرًا منها بأيديهم كهذه الأصنام التي كانوا يتخذونها من الحجارة أو من الخشب وكهذه الأشجار التي كانوا يعظمونها ويطيفون بها ثم لم يكتفوا

بذلـك بـل اعتقـدوا أن الأرض التـي يعيشـون عليها ليسـت خالصـة لهم وإنما يعيش عليهـا معهم كائنات أخرى حية هي أقوى منهم قوة وأشـد منهم بأسًـا كائنـات لا يرونها ولكنهم قد يسـمعونها وقد يخيل إليهـم أنهم يرون آثارها وهي كانت -فيمـا زعمـوا- تخالـط آلهتهم وتجـري علـى أيديها بعض الأحـداث وربما خالطـت أفرادًا منهم فأنطقتهم بأشـياء فيها أنباء بما كان وأنباء بما سيكون، وهذه الكائنات هي الجن أي الكائنات المستخفية المسـتورة التي لا يراها الناس ولكنهم يرون -فيما زعموا- بعض ما تفعل ويتلقون منها -فيما زعموا أيضًا- بعض ما تقول.

ربما اعتقـدوا أن الآلهـة التي كانوا يتخذونها ليسـت في أنفسـها خالقة لشـيء ولا مدبّرة لشيء ولكنها واسطة بينهـم وبين الإلـه الأعظم الذي خلق السـماوات والأرض والـذي يدبـر الأمر كله فهـم لا يعبدون هـذه الآلهة لأنها تسـتطيع وحدها أن تنفعهـم أو تضرهم وإنمـا يعبدونها لتشـفع لهم عند الله ولتقربهم إلـى الله زلفى كما نقرأ في القرآن الكريم.

فهم مشركون لا يجحدون الله ولا يعبدونه وحده وإنما يعبدون معه آلهة أخرى يتخذونها واسطة بينهم وبينه.

وتمضي القرون على هذا النحو من الوثنية فتضاف إليه على مر الزمان الخرافات والسخافات وإذا هم يقربون إلى آلهتهم كأنهم يرشـونها لتشـفع لهم عند الله وهم يستشـيرونها في

أكثر أمرهم ويستقسمون عندها بالأزلام وهم يرضون عنها حين ترضيهم ويسخطون عليها حين تسخطهم لا يخطر لهم أنها أعجز من أن ترضي أو تسخط وإنما يحاولون الأمر ويستعينون بآلهتهم فإن تم لهم ما حاولوا من الأمر رضوا وزعموا أن الآلهة قد سمعت لهم وأجابتهم إلى ما طلبوا وإن لم يتم ما حاولوا سخطوا وزعموا أن آلهتهم لم تستجب لهم ولم تعنهم.

كذلك كانت هذه الوثنية ساذجة إلى أقصى حدود السذاجة سخيفة إلى أبعد غايات السخف ولم يفكر هؤلاء العرب الوثنيون فيما يمكن أن يكون بعد الموت، بل قدروا أن لهم حياتهم هذه التي يحيونها على الأرض وأن آلهتهم وسطاء بينهم وبين الله على أن يقضوا آرابهم وينفقوا حياتهم هذه كأحسن ما يحبون، فإذا أدرك الموت جيلاً منهم مضى لسبيله وجاء جيل بعده وقد ورث عنه دينه وآراءه في الله الذي خلق السماوات والأرض وفي هذه الآلهة التي تسعى لهم عند الله فيما يريدون من الخير وفي رد ما يخافون من الشر والمكروه.

وكثير من هؤلاء العرب الوثنيين كانوا يتصلون بالمسيحيين واليهود يسمعون منهم ويقولون لهم ويعاملونهم في شئون الحياة على اختلافها، ولكنهم على ذلك لا يتأثرون بما يرون من دينهم ومن مذاهبهم في الحياة.

(٤)

ولا أكاد أشك في أن وثنية أهل مكة لم تكن صادقة ولا خالصة، وإنما كانوا يتجرون بالدين كما كانوا يتجرون بالعروض التي كانوا يجمعونها من الجنوب ومن أنحاء الجزيرة العربية لينقلوها إلى أقطار أخرى من الأرض كانت محتاجة إليها فهم كانوا أزكى قلوبًا وأنفذ بصيرة وأكثر ممارسة لشئون الحياة في قريتهم تلك وفي غيرها من المواطن التي كانوا يختلفون إليها بتجارتهم، وهم كانوا بحكم ممارستهم للتجارة يتصلون بأمم متحضرة في الشام ومصر وفي العراق وبلاد الفرس أيضًا، وكانوا يرون مذاهب هذه الأمم في الحياة ومذاهبهم في الدين أيضًا فلم يكن من الممكن أن يؤمنوا لهذه السخافات التي كان يؤمن بها العرب الوثنيون.

فإذا أضفت إلى ذلك أن الكعبة كانت بين ظهرانيهم وأن العرب كانوا يحجون إلى هذه الكعبة من جميع أنحاء الجزيرة وأنهم لم يكونوا يأتون مكة للحج وحده وإنما كانوا يأتون للحج والتجارة أيضًا في تلك الأسواق التي كانت تقام كل عام قريبًا من قريتهم - عرفتَ أنهم إنما كانوا يظهرون الإيمان بتلك الوثنية والتعظيم لتلك الآلهة ترغيبًا للعرب في الحج وتحقيقًا لمنافعهم منه.

والذي نراه من حياة قريش قبيل الإسلام وحين بعث النبي ﷺ فيهم يدلنا أوضح الدلالة وأقواها على أنهم

لم يكونوا أهل إيمان ولا أصحاب دين، وإنما كانوا قبل كل شيء أصحاب تجارة يسعون فيها عامهم كله تسافر قوافلهم في جمع العروض ثم تعود فتستقر في مكة وقتًا لتسافر بعد ذلك بهذه العروض تحملها إلى الآفاق، ولم يكونوا يؤثرون على تجارتهم شيئًا، ولم يكن يشغلهم إلا التفكير في جمع المال من أغنيائهم وأوساطهم وفقرائهم أيضًا لجلب العروض ثم بيعها وجلب عروض أخرى لبيعها في الجزيرة العربية نفسها وفي توزيع الأرباح التي تحققها التجارة على أصحاب الأموال فكانوا ينفقون عامهم في أخذ وعطاء وانتقال واستقرار يتحدثون في المال والتجارة إذا لقي بعضهم بعضًا ويفكرون في المال والتجارة إذا خلوا إلى أنفسهم وإذا شغفت النفوس بالمال وجدّت في جمعه واستثماره شُغلت به عن كل شيء، وملك عليها أمرها كله وأوشك أن يكون لها إلهًا تعبده وحده لا تشرك به شيئًا.

والمال فتنةٌ لقلوب الرجال يفسد عليها كل شيء، ويوشك أن يصرفها عن كل خير، وكذلك كانت قريش في ذلك العصر مؤمنة بالمال مذعنة لسلطانه لا يعنيها إلا أن تستثمره وتكثره وتضيف بعضه إلى بعض وتستمتع أثناء ذلك بما يمكن أن يتيح لها من طيبات الحياة وخبائثها أيضًا.

فقريش كانت تحب الترف بمقدار ما يتاح لمثلها منه، وتحب التسلط بشرط ألا ينقص من مالها شيئًا.

وإذا أردتَ أن تصور مكة كما كانت في ذلك العصر فاذكر مدينة مــن مدن الفينيقيين الذين لم يكــن يعنيهم إلا التجارة والمــال، واذكــر بعــد ذلك أن المــدن الفينيقية لــم يكن في واحــدة منها بيت يجمع الناس إليه من الآفاق كما كان الحال في مكة.

وكان ســكان مكة فــي ذلك العصر يأتلفــون من طبقات ثلاث:

- طبقــة لها كل الحقــوق وهي قريش تســتند حقوقها إلى ما كانت ترى من شــرف أصولها أولًا ومن أنها صاحبة البيــت ثانيًــا وكانــت هــذه الطبقة الشــريفة المســتأثرة بالحقوق كلها تنقســم في نفســها إلى: فئة الأغنياء أولي الثراء العريض.

- وفئة الذين يملكون من المال ما يتيح لهم أن يتجروا سواء سافروا للتجارة أو اكتفوا بإعطاء أموالهم للمتجرين.

- وفئة أخرى فقيرة قد تملك القليل وتتجر فيه وقد لا تملك شيئًا فهي مضطرة إلى أن تعمل لتعيش.

وهــذه الفئات الثلاث من قريش كلها متســاوية في الشــرف وفي الاســتمتاع بالحقوق وهي من أجل ذلــك تكون فئة ممتازة لطبقة السادة.

وتأتي بعدها طبقــة أخرى طبقة الحلفاء وهم ناس من العرب على اختلاف قبائلهم أووا إلى مكة ليأمنوا فيها فهي مدينة حرام يأمــن اللاجئ إليها مهما تكــن جنايته وجرائره على قومه وناس

من العرب آخرون تسامعوا بغنى قريش ودعة الحياة في مكة فأقبلوا يبتغون فضلًا من رزق.

وكل هؤلاء وأمثالهم لم يكن يتاح لهم المقام المطمئن في مكة إلا إذا حالفوا حيًا من أحياء قريش أو فردًا من أفرادها فهم أحرار إذا حفظوا حق الحلف والجوار تحميهم قريش فيأمنون ويسعون في الرزق ولكنهم ليسوا من قريش وإنما هم طبقة دونها تعيش في ظلها ولا تشارك في حقوقها.

وطبقة ثالثة: هي الرقيق الذي لا حق له حتى في نفسه يملكه سيده كما يملك ما في بيته من أداة يسخره فيما يريد من أمره كما يشاء ليس له أن ينكر ولا أن يعترض وإنما عليه أن يسمع ويطيع، وسيده يملك أن يحرره بالعتق كما يملك أن يبيعه أو يهبه، كما يملك أن يعاقبه أشد العقوبة وأيسرها وله عليه حق الموت والحياة ولكن قريشًا لم تكن تغلو في استعمال هذا الحق.

وإلى جانب هذه الطبقات الثلاث كان يعيش بمكة شُذَّاذٌ من الآفاق ليسوا عربًا ولكنهم عجم من أمم مختلفة أقبلوا متجرين بتجارة تحتاج إليها الطبقة الغنية والوسطى، بعض هؤلاء كان يتجر باللهو: يسقي الخمر ويُسمِع الغناء ويُلهِي من احتاج إلى اللهو من شباب قريش بألوان من المتاع ليس من السهل أن يوجد في البيئات العربية، وبعضهم كان يتجر بالنقد يصرف الدنانير والدراهم ويقوّم الذهب والفضة بهذين النقدين.

وكان هؤلاء الأجانبُ يعيشون في أمن لا يعرض لهم أحد بمكروه لمكان الحاجة إليهم وأكثرهم كانوا من المسيحيين أقبلوا من بلاد الروم وربما كانوا ينفعون قريشًا بما يحدثونهم من أحاديث بلادهم وبما يفتحون لهم في هذه الأحاديث من أبواب التجارة والربح.

كذلك كانت تعيش مكة في ذلك العصر يضطرب فيها هؤلاء السكان على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم وأجناسهم، وواضح أن أكثر الرقيق لم يكونوا عربًا فلم تكن قريش صاحبة حرب لأن المال والتجارة لا يحبان الحرب.

فكانت تشتري هؤلاء الرقيق فيما كانت تشتري من العروض وربما اتجرت فيهم أحيانًا ولكنها كانت تشتريهم في أكثر الأحيان لمنافعها ومآربها وحاجاتها المختلفة، وواضح أن هؤلاء الرقيق لم يكونوا يدينون دين سادتهم وإنما كان منهم المسيحي واليهودي والمجوسي حسب البلاد التي نشئوا فيها واجتلبوا منها، ومن الطبيعي أن أغنياء قريش وأهل الطبقة المتوسطة منهم لم يكونوا يعملون إلا في التجارة فكان الرقيق يكفونهم حاجاتهم اليومية: يرعون عليهم ما كانوا يملكون من الإبل والغنم ويُعنَون بما كانوا يملكون من الخيل ويعملون فيما كانوا يملكون من الأرض خارج مكة في الطائف أو في غيرها ويقومون بخدمتهم في دورهم ويخدمونهم في أسفارهم في الصيف والشتاء، وربما كان بعضهم يحسن حرفة من الحرف فكان سادتهم

يســخّرونهم في اصطناع حرفهم هذه والاكتســاب منها على أن يكون كســبهم لســادتهم لا يملكون لأنفســهم شيئًا إلا ما يقوتهم ويقيم أودهم.

وكذلــك اجتمعتْ في مكة أجنــاسٌ مختلفة من الناس وألوان مختلفــة مــن الديانات وكان مــن الطبيعي أن يؤثر هــذا كله في حياة قريش.

وليس شيء أشد تأثيرًا في حياة الناس من اتصالهم بالأجناس المختلفة ذوي الحضارات والديانات المختلفة، وهذا هو الذي يفسر لنا ما امتازتْ به قريش من العرب كافة -في ذلك العصر- من ذكاء القلوب وسعة الحيلة ونفاذ البصيرة وبُعد النظر وحسن السياسة لأمورها كلها والبراعة في القيام على المال واستثماره وفي فهم الناس والنفوذ إلى أعماقهم.

ولكن قريشًــا على ذلك كانت تســكن قرية في واد غير ذي زرع، قرية منقطعة انقطاعًا تامًا من البلاد المتحضرة، كل شــيء كان يؤهل قريشًــا وقريتهم للحضارة وللحضــارة الممتازة لولا هذا الانقطاع الذي فرض عليها.

ومــن الحق أن قريشًــا كانت تتصــل اتصالًا منتظمًــا بالبلاد المتحضرة بحكم أسـفارها في التجــارة ولكن الحضارة لا تنقل مــن مكان إلى مكان كما تنقل العروض وإنما تنشــأ في بيئة من البيئــات تنبت مــن الأرض ثم تقوى وتشــتد ويزيدهــا الاتصالُ بالأمم المتحضرة نموًا وازدهارًا.

(٥)

كذلك كانت تعيش قريش في القرن السادس للمسيح، ليس من اليسير أن نحدد لها نظامًا من نظم الحكم التي يعرفها الناس فلم يكن لها ملك ولم تكن جمهورية أرستقراطية بالمعنى المألوف لهذه الكلمة، ولم تكن جمهورية ديمقراطية بالمعنى المألوف لهذه الكلمة أيضًا، ولم يكن لها طاغية يدبر أمورها على رغمها، وإنما كانت قبيلة عربية قد احتفظت بكثير من خصائص القبائل البادية. فهي منقسمة إلى أحياء وبطون وفصائل، والتنافس بين هذه الأحياء والبطون والفصائل قائم يشتد حينًا ويلين حينًا آخر ولكنه لا يصل إلى الخصومات الدامية كما كانت الحال في البادية، وأمور الحكم -إن صح أن يذكر لفظ الحكم- تجري كما كانت تجري في القبيلة البادية.

وكل ما وصلت إليه قريش من التطور في شئون الحكم هو أنها لم يكن لها سيد أو شيخ يرجع إليه فيما يشكل من الأمر وإنما كان لها سادة أو شيوخ يلتئم منهم مجلس في المسجد الحرام أو في دار الندوة وأمام هذا المجلس تعرض مشكلات التجارة وتعرض المشكلات التي تكون بين أحيائها، وقد تعرض المشكلات التي تثار بين الأفراد إن بلغت من الخطر أن تثير خصومة بين حين أو أكثر.

ومضى أمر قريش على هذا النحو إلى آخر العصر الجاهلي.

وكأنها أحست قبيل البعثة أن هذا النظام لا يكفل العدل الشامل الذي يطمئن إليه الأقوياء والضعفاء جميعًا وإنما يكفل العدلَ بين السادة وأنصاف السادة ويخلي بين هؤلاء وبين شيء من الظلم يقع على الضعفاء من الحلفاء وممن أووا إلى مكة ليقيموا فيها إقامة تقصر أو تطول.

ومن أجل هذا اجتمعتْ طائفةٌ من خيار هؤلاء السادة وأقويائهم وتحالف أعضاؤها على أن يرفعوا الظلم ويقوموا دون المظلوم حتى ينتصف من الظالم ودون الضعيف حتى يأخذ حقه من القوي. وهذا الحلف هو المعروف بحلف الفضول الذي شارك فيه النبي ﷺ فيمن شارك فيه من بني هاشم قبل البعثة وقد ذكر النبي بعد ذلك هذا الحلف وأثنى عليه.

(٦)

وكانت ثقيف تعيش نحو هذه العيشة في الطائف إلا أن أمرها لم يكن كأمر قريش على الحج والتجارة. فلم يكن إلى الطائف حج لمكان الكعبة من مكة.

وكانت ثقيف قد رُزقت شيئًا من الخصب فاصطنعت الزراعة وزراعة الفاكهة خاصة، واعتمدت أو كادت تعتمد في تجارتها على قريش، فكانت قريش تشتري عروض الطائف وتنشرها فيما تنشر من تجارتها، وربما أسهم بعض الأغنياء من ثقيف بأموالهم في تجارة قريش. فكانوا كغيرهم من أهل مكة في ذلك.

على أن شيئًا من حسن الصلة كان قائمًا بين قريش وثقيف، فكان بينهم الصهر من جهة، وربما اشترى بعض الأغنياء من قريش أرضًا بالطائف واغترس فيها الحدائق والكروم، وربما اتخذ بعض الأغنياء من قريش لأنفسهم دورًا في الطائف يفزعون إليها من مكة بحيث نستطيع أن نقطع بأن قريشًا وثقيفًا كان بينهما شيء يشبه الحلف ويقوم على المصالح المشتركة في الزراعة والتجارة جميعًا.

ولم تكن ثقيف على قوتها في الجاهلية تمتاز بمثل ما كانت قريش تمتاز به من ذكاء القلوب ونفاذ البصيرة وإنما كانت ثقيف تمتاز بشيء من القوة والمنعة وتمتاز بالمكر والدهاء وحسن المداورة والبراعة في الكيد للخصم أو العدو.

(٧)

أمـا يثرب فقد كان شـأنها يختلف عن شـأن هاتين القريتين اختلافًا شـديدًا فهـي أولًا بعيدة عنهما بعدًا يحـول بينها وبين مشـاركتهما فـي كثيـر أو قليل من الأمـر ، وهي ثانيًـا لم تكن خالصـة لقبيلة واحـدة كما كانـت مكة خالصـة لقريش وكما كانـت الطائف خالصـة لثقيف وإنما كان يسـكنها قبيلتان من العـرب ترجعان إلى أصل يمني واحد ولكنهما تختصمان دائمًا ويشـتد التنافس بينهما أحيانًا حتـى يورطهما في حرب تتصل وقتًا طويلًا .

وهاتـان القبيلتان هما الأوس والخـزرج وكانت كل قبيلة منهمـا تُمضِـي أمورها علـى طريقة القبائل لا يفـرق بينهما وبين أهل البادية إلا أنهما مستقرتان في مدينتهما لا تنتجعان الغيـث وإنما تنتظرانه ولا تتنقـلان في التماس الكلأ . وكلتا القبيلتين كانتا تعيشـان على الزراعة وعلى اسـتثمار النخل خاصة .

ثم هناك فرق آخر بين يثرب من جهة وبين مكة والطائف من جهة أخرى وهو أن يثرب لم تكن خالصة لأهلها من العرب وإنما كان اليهود يشـاركونهم فيها . وكانت المعاملات في الزراعـة والتجـارة تجري بين اليهود وبيـن هاتين القبيلتين بحكـم الجـوار والاشـتراك فـي الأرض وفـي المصالح على اختلافهـا ، وكان لكل قبيلـة من الأوس والخـزرج حلفاؤها

مـن اليهود يحاربـون معهـا إن حاربت ويسـالمون معها إن سالمت .

ومـن أجـل هذا كلـه كان الفـرق عظيمًا بين أهـل يثرب من العـرب وأهل مكة والطائف ، فأهل يثرب أصحاب زراعة متصلة يزرعون ليعيشوا ولا يكادون يتجرون خارج الجزيرة العربية إلا قليلًا ، وهم بعد ذلك مخالطون لأهل الكتاب من اليهود مخالطة متصلة .

فـلا غرابة في أن يؤثر هذا كله في أخلاقهم وفي طبائعهم فيجعلهم ألين عريكة وأرق شمائل وأسمح أخلاقًا . ولكنهم علـى ذلـك ظلـوا كغيرهم مـن العـرب مشـركين يعبدون الأوثان ويؤمنـون بكثير مما كان أهل البادية يؤمنون به من السخافات والخرافات ، وظلوا كغيرهم من العرب يعظمون البيـت الحرام بمكة ويمجدونه في الموسـم مع غيرهم من الحجيج .

وكانـوا فـي هذا العصر الـذي نتحدث عنه قـد بلغ منهم الجهـد لكثـرة الاختلاف بيـن القبيلتين وما كان ينشـأ عن ذلـك من الخصومات والحروب ، ثم لأن اليهود على ما كان بينهم وبيـن القبيلتين من الجوار واشـتراك المصالح كانوا يستظهرون على هؤلاء العرب الجهال الأميين ، يستظهرون عليهـم بما عندهم من كتـاب ، وبما لهم من دين مهما يكن أمـره فقد كان أرقى من هذه الوثنية الغليظة التي كان العرب يدينون بها .

(٨)

وليس غريبًا -بعد هذا الذي عرض عليك في إيجاز من شئون الأمة العربية في وبرها ومدرها- أن تنشأ عن هذه الحياة التي كانوا يحيونها أخلاق غليظة كغلظ هذه الحياة، وعادات منكرة كنكر هذه الحياة أيضًا، فهؤلاء الذين يعبدون الأصنام التي يصنعونها بأيديهم، ويعبدون الأشجار التي لا يتحرجون من أن ينتفعوا بثمارها وغصونها إن احتاجوا إلى ذلك، لا ينتظر منهم أن تصفو طباعهم وتمتاز أخلاقهم وتلين قلوبهم وتحسن شمائلهم بل عكس هذا كله هو الذي ينتظر منهم.

فإذا أضفت إلى ذلك ما كانت البداوة تفرض على أهلها من الفقر والعوز وقسوة الحياة وأن أهل القرى إنما هم قوم عاشوا بداة أولًا ثم استقروا في قراهم بعد ذلك دون أن يضيعوا من خصائص البداوة إلا أقلها. فليس غريبًا بعد هذا كله أن نعرف من عادات هؤلاء العرب ما نعرف من الغلظة والقسوة والجفاء وليس غريبًا أن نعرف أنهم كانوا يقتلون أولادهم خشية الفقر والإملاق. ويئدون بناتهم خشية الفقر والإملاق والعار أيضًا. وليس غريبًا أن نعرف أن العلاقة بين رجالهم ونسائهم لم تكن مهذبة ولا نقية ولا مبرأة مما يعاب، إلى غير ذلك من العادات الكثيرة التي غيرها الإسلام وحفظ الشعر منها شيئًا غير قليل.

ومن الطبيعي أن أهل القرى كانوا أرق طباعًا من أهل

البادية إلى حد ما، فلسنا نعرف أن أهل مكة أو الطائف أو يثرب كانوا يقتلون أبناءهم أو يئدون بناتهم، حال بينهم وبين هذا ما أتيح لهم من لين العيش وسعة ذات اليد. ولكن أهل القرى كانوا قلة ضئيلة بالقياس إلى أهل البادية فلا ينبغي أن يتخذوا عنوانًا لهم.

ومهما يكن من شيء فقد كان أهل الوبر وأهل المدر سواء في وثنيتهم تلك الغليظة، لم يكادوا يتأثرون تأثرًا ذا بال بمن جاورهم من اليهود والنصارى. وعسى أن يكون اليهود والنصارى الذين استقروا بين العرب هم الذين تأثروا بالحياة العربية وغلظها وما كان يشوبها من العادات والأخلاق.

فقد يكون من النافع حقًا أن نقيس نصرانية نجران إلى النصرانية التي كانت منتشرة في البلاد المتحضرة وأن نقيس يهودية يثرب وخيبر إلى يهودية اليهود الذين كانوا متفرقين في البلاد المتحضرة أيضًا. كلا الدينين انقطعت الصلة أو كادت تنقطع بينه وبين الذين كانوا يقومون عليه من الأحبار فتبدى وإن استقر في هذه القرى لأن هذه القرى نفسها كانت أقرب إلى البداوة منها إلى الحضارة.

وعلى كل حال فلم يكد العرب ينتفعون بما كان بينهم وبين اليهود والنصارى من اتصال وإنما ظلوا كما كانوا حتى جاءهم دينهم الجديد.

(٩)

وكان بين قريش رجل من أشـراف‍هم يتجر كما يتجرون ويحضـر مجالسـهم فـي المسـجد وفـي دار النـدوة هـو عبدالمطلـب بن هاشـم ولكنه كان يمتاز مـن قومه بكثير مـن الوقار وميل إلـى الدين والنسـك يعظم مـا كان قومه يعظمـون مـن هذه الآلهة ولكن عن إخـلاص وصدق لا عن تكلـف ورياء. وقد أتيحت له أشـياء زادته امتيازًا من قومه فخاصمـوه أول الأمر ثم أكبروه بعـد ذلك: فهو قد احتفر بئر زمزم.

وحدث أصحاب الأخبار بأنه لم يحتفرها من عند نفسه وإنما أتاه آتٍ في نومه فأمره باحتفارها وبين له مكانها، فأقبل على ما أمر به حتى أنفذه.

ويقـول أصحاب الأخبار: إنه وجد كنزًا أثناء احتفار البئر قبـل أن يصل إلى الماء فخاصمته فيـه قريش فجعله للكعبة ولـم يأخـذْ هو ولا غيره منه شـيئًا ثم أنبط المـاء فخاصمته فيـه قريش تـرى أن البئر لها ويرى هو أنهـا له لأنه احتفرها بيده وأنبط ماءها بجهده. ولجت قريش في الخصومة -فيما يقـول أصحاب الأخبار- حتى أجمعوا إلـى أن يحتكموا إلى أحـد الكهان فأوفدوا مع عبدالمطلب وفـدًا يخاصمونه إلى ذلـك الكاهن ولكنهـم لم يحتاجوا إلى هـذا الاحتكام؛ لأن آية ظهـرت لهم في الطريق أقنعتهم بـأن عبد المطلب ليس متكذبًا ولا متكلفًا.

قال الرواة: وفي أثناء هذه الخصومة أحس عبد المطلب أنه وحيد ليس له من الولد من ينصرونه فنذر لئن أتيح له عشرة منهم ليقربن أحدهم إلى الآلهة.

وقد أتيح له عشرة من الولد فأزمع أن يقرب أحدهم وهمَّ بذلك ولكن قريشًا أبت عليه لأنها استبشعت عمله هذا. وما زالت به حتى أقنعته بأن يقرع بين ابنه وبين عشرة عشرة من الإبل. فجعل كلما أقرع خرج السهم على ابنه حتى بلغت الإبل مئة فقربها إلى الآلهة ونجا ابنُه ذاك الفتى.

فإذا صورت هذه القصة شيئًا فإنما تصور نزوع عبد المطلب إلى شيء من الدين وإخلاصه فيه وإسماحه[16] في سبيله بالولد والمال جميعًا.

وتصور كذلك عزوف قريش عن المفظع من الأمر وإنكارها في عنف وإلحاح هذا القربان البشع الذي يضحى فيه بالإنسان للآلهة.

على أن ذلك الفتى الذي افتداه أبوه بالإبل فأغلى في الفداء لم يعمَّر وإنما زوجه أبوه ثم أرسله إلى الشام مع قومه لتجارة فذهب ولم يعد أدركه الموت بيثرب في عودته من الشام. وقد ولد له بعد موته صبي هو الذي اختاره الله ليأتي العرب بدينهم الجديد.

وفي تلك الأيام نفسها تعرضتْ مكةُ لخطر شديد: أقبل

(١٦) أسمحت نفسه: ذلت وأطاعت وانقادت. (المجلة)

الحبشــةُ إليها من اليمن غزاة يريدون أن يملكوا الحجاز كما ملكوا اليمن وأن ينشروا في الحجاز دين المسيح كما حاولوا نشــره في اليمن بعــد أن انتقمــوا لتلك المدينة المســيحية : نجــران وكانوا بالطبع مزمعين أن يهدموا الكعبة وأن يحطموا مــا نصب عليها من الأوثان ولكــن الله بالغ أمره قد جعل لكل شــيء قدرًا ، فهو يصد الحبشــة عن مكة ويمنعهم أن يدخلوها ويردهــم إلى اليمــن مدحورين قد بلغ منهــم الجهد وأصابهم ما أصابهم من الشــر الذي صوره الله عز وجل أروع تصوير في السورة الكريمة :

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ﴾

(الفيل : ١ – ٥)

ومــا أحــبّ أن أعرض لتأويل هــذه الطير الأبابيــل التي رمت الحبشــة بحجارة من سجيل فجعلتهم كعصف مأكول لأني أوثر دائمًا أن أقبل النص وأفهمه كما قبله وفهمه المسلمون الأولون حين تلاه عليهم النبي ﷺ .

وفي هــذه الموقعة أظهر عبد المطلب مــن الصبر والجلد ومن الشــجاعة والثقة ما لم يظهره غيره من أشــراف قريش . فضــلًا عن أوســاطها وعامتها ، ذلك أنه أشــار على قريش أن

تخلــي مكة وتلوذ بشــعاب الجبال وتخلي بيــن هذا الجيش العظيم وبين ما يريد. فســمع له قومه وتجنبوا الحرب وأقام هــو بمكة لــم يعتزلها فيمــن اعتزلها وإنما قــام عند الكعبة يدعو الله ويستنصره.

ويقــول الــرواة: إن الجيــش أغــار فيما أغار علــى إبل قريش فاحتازهــا وجــاء عبد المطلب حتى اســتأذن علــى أبرهة عظيم الحبشة وقائد جيشها.

فلما أدخل عليــه لم يكلمه إلا في إبل له أخذها الجيش فيما أخذ من إبل قريش.

قــال الرواة: فصغــر عبد المطلب في نفــس أبرهة، وقال لــه: كنت أظن أنك جئت تكلمني في شــأن مكة وفي شــأن بيتكــم هذا الذي تعظمونــه، فإذا أنت لا تســألني إلا أن أردَّ عليك إبلك!

قــال عبد المطلــب: فإني أكلمك في مالي الــذي أملكه فأما البيت فإن له ربًا يحميه إن شاء.

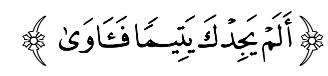
فــردت عليــه إبلــه وعــاد إلى مكانــه مــن الكعبــة يدعو الله ويستنصره.

قــال الرواة: وأصبــح أبرهة من غدٍ مزمعًا دخــول مكة وهدم البيــت ولكــن الله حــال بينه وبين ذلــك بما أرســل عليه وعلى جيشــه من تلك الطيــر الأبابيل التي رمتهم بحجارة من ســجيل فجعلتهم كعصف مأكول.

وعادت قريش إلى مكة موفورة لم ترزأ شيئًا فازداد إكبارهم لعبد المطلب وشجاعته وثقته وثباته حيث لم يثبتوا وإنما فروا فلاذوا بشعاب الجبال.

في نفس هذا العام الذي سمته قريش وسماه الرواة بعد ذلك (عام الفيل) وُلد هذا الصبي يتيما كما رأيت آنفًا فسماه عبد المطلب محمدًا وكفله واسترضعه في بني سعد من هذيل حتى إذا أتم الرضاعة واحتفظت به المرضع بعد رضاعه وقتًا ردته إلى أمه. فجعل ينشأ بمكة في ظل جده الشيخ ثم سافرت به أمه- حين كان في السادسة من عمره- إلى يثرب تريد أن تزور وأن تزير الصبي قبر أبيه عبد الله بن عبد المطلب ولكنها خرجت من مكة ولم تعد إليها كما خرج زوجها عبد الله من قبل فلم يعد إلى وطنه.

أدركها الموت في بعض الطريق منصرفها من يثرب عائدة إلى مكة. وعادت بالصبي حاضنته بركة -التي عرفت في الإسلام بأم أيمن- فقامت على خدمته في ظل جده وأصبح الصبي يتيمًا لأبيه وأمه جميعًا. على أنه لم يبلغ السابعة حتى فقد جده أيضًا فأخذه اليتم من جميع أقطاره: فقد أباه وأمه وجده ولكن الله آواه كما يقول في سورة الضحى:


﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴾

(الضحى: ٦)

وكفــل الصبيَّ بعد موت الشــيخ عمُّه أبو طالب فكان له نعم الكافل ونعــم الولي. وكان أبو طالب صاحب ســفر في التجارة كغيره من أشراف قريش وأوساطها.

فيقول الرواة: إنه هم بالســفر في تجارته إلى الشــام ذات عام والصبي في الثانية عشرة من عمره فتعلق به الصبي وألح في أن يصحبه في ســفره ذاك، ورق لــه قلب عمه فحمله معه إلى الشام.

ويقول الرواة: إنه لم يكد يبلغ به مشارف الشام حتى عاد به مســرعًا إلى مكة عن أمر راهبٍ مــن رهبان النصارى علم من أمر الصبــي ما لم يعلم عمه فأوصاه أن يرده إلى وطنه وأن يحرزه في مكة من مكر النصارى واليهود.

وشــب الصبي في كفالة عمه حتى إذا بلغ الرابعة عشــرة من عمره شــهد حــرب الفجار التــي كانت في حرم مكــة بين قيس وقريش.

شــهد الحربَ ولكنه لم يشارك فيها كان أصغر سنًا من ذلك فكان ينبل على أعمامه. وأكبر الظن أنه حين أينع جعل يســعى في رزقه فكان يرعى الغنم على قومه حتى إذا نيف على العشرين سلكت الحياة به طريقًا أخرى.

(١٠)

كان فقيرًا لا يكاد يملك شــيئًا وكان يكتســب قوته من رعي الغنم ولكنه فتى من قريش ومن أشــرافها . ورعي الغنم قد يليق بالصبية وبأمثالهم من الذين لم يتقدم بهم الشباب فأما إذا شبوا واســتتموا قوتهم فليس لهم بد من أن يســلكوا طرقًا أخرى إلى الــرزق . وعمــه صاحب تجارة وقــد مات أبوه تاجــرًا وجدُّه كان صاحــب تجارة أيضًــا . فما يمنعه أن يســلك الطريق التي ألفت قريش سلوكها .

وقد أقبل عليه عمُّه ذات يوم فأنبأه بأن خديجة بنت خويلد امــرأة غنية مــن أكثر قريش مالًا وأوســطهم نســبًا قد جهزت تجارة ضخمة إلى الشام ونصح له بأن يكون رسولها بتجارتها تلك وأنبأه بأنه يســتطيع أن يسعى له في ذلك عند خديجة إن صح عزمه على السفر . فقبل الفتى ورضيت خديجة ورأته مكة ذات يــوم خارجًــا في قافلتها إلى الشــام يصحبه غلام لخديجة يقال له : ميســرة وقد بلغ الشام فباع واشترى وعاد مع القافلة فــأدى إلى خديجة تجارتهــا وأدى إليها مع هــذه التجارة ربحًا لــم يتــح لها في تجــارة قــط . وكأن الله لم يجعل هــذه التجارة إلا وســيلة لشــيء آخر وراءها فقد وقع الفتى من قلب خديجة ويصبح لها زوجًا وهي تكبره بخمس عشــرة ســنة فيما يقول الرواة .

ومنذ ذلك اليوم عاش في مكة عيشة الموفورين لا يشكو حاجة ولا يجد ضيقًا كما قال له الله عز وجل في سورة الضحى:

﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾

(الضحى: ٧)

وقد أتيح له من خديجة الولدُ وأتيح له معها الأمن والدعة، ولكنه في ذلك الطور من أطوار حياته ظهرت فيه خصال لم تكن مألوفة في شباب قريش: فهو شديد النفرة من اللهو وشديد النفرة من اللغو أيضًا، وهو أبعد الناس عن التكلف وأقربهم إلى الإسماح واليسر، وهو أبغض الناس لهذه الأوثان التي كان قومه يعبدونها مخلصين أو متكلفين، وهو أصدق الناس إذا تكلم وأوفاهم إذا عامل وأبعدهم من كل ما يزري بالرجل الكريم وهو بعد ذلك أوصل الناس للرحم وأرعاهم للحق وأشدهم إيثارًا للبر. فهو يجد عمه الذي كفله صبيًا ويافعًا قد كثر ولده وقل ماله ويريد أن يعينه دون أن يؤذيه فيأخذ منه صبيه عليًا ويرد عليه من العناية واللطف والبر بعض ما أدى إليه أبوه حين كان صبيًا يتيمًا. وقد شاعتْ عنه هذه الأخلاق وعرف بهذه الخصال حتى أحبته قريش وسمته الأمين وعاملته على أنه الأمين حقًا.

وفي ذات عام همتْ قريش أن تعيد بناء الكعبة فعزمت

بعد تردد، ونقضتْ البناءَ وأخذت في إعادته وشاركها الأمين فيما فعلتْ حتى إذا بلغت موضع الحجر الأسود اختلفت أحياء قريش فيمن يضع هذا الحجر في موضعه، يرون أن من يتاح له ذلك سيظفر بشرف أي شرف. وما هي إلا أن يتحول الخلاف إلى خصومة تشتد وتعنف حتى يخشى شرها، ولكن ذوي أحلامهم وأولي رأيهم يشيرون عليهم بالتحكيم وبأن يحكموا أول من يدخل عليهم المسجد فيثوبون إلى الهدوء والرضا، ويكون الأمين أول داخل عليهم فيحكمونه، فيقضي بينهم قضاءً يرضيهم ويكون له مع ذلك ما بعده. يبسط رداءه ويضع الحجر في وسطه ثم يأمرهم بأن يأخذوا بأطراف الرداء فيحملوه ويمشوا به حتى إذا بلغوا البناء أخذ الحجر فأقره بيده في موضعه.

على أنه قد أخذ يميل إلى العزلة شيئًا فشيئًا ثم اشتد عليه حب العزلة فجعل يترك مكة بين حين وحين ويمضي وقد تزود لعزلته حتى إذا بلغ غار حراء خلا فيه إلى نفسه الأيام والليالي، فإذا انقضى زادُه أو كاد ينقضي عاد إلى أهله فتزود من جديد ورجع إلى غاره فأوى إليه ومكث فيه ما شاء الله أن يمكث. أصبحت هذه الخلوة له عادة ولكنه يعود إلى أهله ذات يوم ولهان مُفَجَّعًا شديد الاضطراب ويقص على خديجة شيئًا عجبًا.

(١١)

أنبأهـا بأنــه كان خاليًا إلى نفســه في غار حــراء ولكنه ينظر فيرى شــخصًا أمامه ويسمع فإذا هذا الشخص يكلمه يقول له : اقــرأ قال : ما أنــا بقارئ –يريد : لا أعرف القــراءة– فضمه ضمًا شــديدًا –أو غطه غطًا شديدًا– كما يقول حديث الشيخين فيما يرويان عن عائشــة – حتى بلغ منه الجهد ثم أســلمه وقال : اقرأ قــال : مــا أنا بقــارئ فغطّه غطًا شــديدًا حتى بلغ منــه الجهد ثم أرسله فقال :

﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥ ﴾ .

(العلق : ١ – ٥)

ثم استخفى حتى لا يرى النبي ﷺ شيئًا ولا يسمع شيئًا فيخــرج من الغــار وقد أخــذه روع أي روع وهــو في طريقه مســرع إلى أهلــه ولكنه يســمع صوتًا يناديــه فينظر أمامه فلا يرى شــيئًا وينظر عن يمينه فلا يرى شــيئًا ، وينظر عن شماله فلا يرى شيئًا وينظر خلفه فلا يرى شيئًا فيرفع رأسه فيرى ذلك الشــخص الذي أتاه في الغاز جالسًا على كرسي بيــن الســماء والأرض فيبلغ به الروع أقصــاه ويمضي أمامه لا يلوي على شــيء حتــى يأتي أهله مرتاعًــا مذعورًا : يقول زملوني زملوني –أو دثروني دثروني– وصبوا عليَّ ماءً باردًا فتفعــل خديجة ما طلب إليها حتى يذهب عنه الروع فيقول

لزوجه بعد أن أنبأها نبأه: لقد خشيت على نفسي. تقول له خديجة: كلا والله ما يُخزيك الله أبدًا إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق.

قال المحدثون ورواة السيرة: فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة -وكان امرأً قد تنصر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب وكان شيخًا كبيرًا قد عمي- فقالت له خديجة: يا بن عمّ اسمع من ابن أخيك.

فقال له ورقة: يا بن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ بخبر ما رأى فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزَّل الله على موسى عليه السلام، يا ليتني فيها جذع، ليتني أكون حيًا إذ يخرجك قومك فقال رسول الله ﷺ: «أومخرجي هم؟» قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عُودي، وإن يدركني يومُك أنصرك نصرًا مؤزرًا.

وكأنه لزم دارَه واجتنب غار حراء منتظرًا ما يكون من أمره بعد ما رأى وما سمع فأوحي إليه:

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾

(المدثر: ١ - ٧)

ومنــذ ذلك الوقــت ظهر له ما يراد به، فلم يكن ما جاءه في الغار إلا إيذانًا له بأن مهمة ثقيلة خطيرة قد ألقيت على عاتقه، وأن عليه أن يؤديها صبورًا جلدًا محتملًا في ســبيل أدائهــا ما قد يعــرض له من العنت والمشــقة والأذى، وهو على كل حــال مكلَّف بأمرين ليس أحدهما بأقل خطرًا من الآخر:

فأمــا أولهما، فهو أن يجاهد نفســه ويأخذها راضية أو كارهة بمــا ســيدعو الناس إليه مــن تكبير الله بالقلوب والألســنة ومن التطهــر من كل دنس ظاهر أو خفي، ومن هجر الرجز واجتناب المــن واســتكثار ما يأتي من طاعــة الله والاجتهاد فــي ذاته ومن الصبــر لربــه على مــا يبلوه به من ألــوان البلاء وعلــى ما يكلفه حملُه من ثقال الأعباء.

وأمــا ثانيهما فهــو أن ينذر الناس بأن حياتهــم التي يحيونها ليســت كما يظنــون لهــوًا ولعبًا واســتمتاعًا بما يتــاح لهم من اللــذات واحتمالًا لما يعرض لهم مــن الآلام والمحن والخطوب إنما هي شــيء وراءه أشــياءُ وله ما بعده فليس لهم بدٌّ إذن من أن يحتاطــوا لما وراء حياتهم من الأمر، ومــن أن يأخذوا له أهبتهم ويتزودوا بما ينبغي من الزاد.

(١٢)

وقــد تجرد النبي ﷺ لأداء مــا كلف من مهمة، وما حمل من أمانة، فأخذ نفســه بأشــد ما يأخذ الرجل به من الجهد والمشقة في ذات الله وأنفذ أمر الله في نفسه فيما اختصه به من التكاليف كما أنفذ أمر الله في كل ما كُلف أن يأمر الناس به.

وقــد بدأ بأهله وذوي قرباه فأنذرهم وبشــرهم واســتجاب له منهم من استجاب وأبى عليه منهم من أبى ثم أُمر بتعميم دعوته فأنذر قومه وبشــرهم ودعاهم إلــى الإيمان والبر والمعروف فلم يســتجبْ له منهم إلا أقلهم، وامتنع عليه أكثرهم ثم لم يكتفوا بالامتنــاع بل لــم يلبثوا أن ضاقــوا به وبدعوته وجعلــوا يردونه ردًا رفيقًــا أحيانًــا ويردونه ردًا عنيفًا في أكثــر الأحيان ثم تألبوا عليــه وجعلوا يؤذونه في نفســه وفيمن تبعه مــن الناس بأيديهم وألســنتهم ثم أصبحــت الحياة بينــه وبين قومه جهــادًا متصلًا عنيفًا أشــد العنــف وأقواه ولكنه صبر لهذا الجهــاد كما أُمِر أن يصبر واحتمل فيه من ألوان المشقة ما ينوء بالرجال أولي العزم كما أُمِر أن يحتمل وجعل يصبِّر أصحابه ويهون عليهم ما كانوا يلقون وما أكثر ما كانوا يلقون من ضروب الفتنة والعذاب.

وفي أثناء ذلك كان الوحي يتنزل عليه من السماء فيُعلن كل مــا يوحــي إليه به، يتلــوه على من آمــن معه وعلى مــن لم يؤمن فهو مكلف أن يبلغ رسالات ربه وهو يبلغها أمينًا عليها مجتهدًا في تبليغها يبشّــر وينذر ويرغب ويرهب ويجادل المخاصمين ويقرع حجتهم بحجة الله لا وانيًا ولا مستأنيًا ولا مقصرًا.

وقد هابت قريش أن تؤذيه إيذاءً ثقيلًا أو أن تخرجه من وطنه أو أن تقتله مخافة أن يغضب له قومه من بني عبد مناف فيفسد عليها أمرها كله فجعل حلماء قريش يصانعونه ويرفقون به يعرضون عليه أن يملّكوه عليهم إن كان يفعل ما يفعل ابتغاء الملك، ويعرضون عليه أن يعطوه صفو أموالهم إن كان يفعل ما يفعل ابتغاء الغنى، ويعرضون عليه التماس الطب له إن كان له رِئْيٌ من الجن يأتيه بهذا الكلام الذي يتلوه عليهم وبهذا الأمر الذي يدعوهم إليه فلم يكن يجيبهم إلا بأن يتلو عليهم بعض ما كان ينزل عليه من القرآن.

وكان حلماء قريش والمنصفون منهم يسمعون القرآن حين يُتلَى عليهم فيبهرهم بألفاظه ومعانيه ونظمه ورقته حين يرق وشدته حين يشتد ولكنهم على ذلك لا يؤمنون له بعضهم يمنعه الحسد وبعضهم تمنعه الكبرياء وكلهم يشتد عليهم ما كانوا يُدعون إليه من البر والمعروف والعدل والمساواة وإنصاف الفقراء من الأغنياء والضعفاء من الأقوياء ومن ترك آلهتهم وعاداتهم وكثير من الأخلاق التي وجدوا عليها آباءهم وتوارثتها أجيالهم جيلًا بعد جيل وقد استيأسوا منه فلجئوا إلى عمه ذاك الذي كفله صبيًا ويافعًا والذي قام دونه يحميه منذ جعل يدعو دعوته هذه الجديدة وطلبوا إليه أن يراجع ابن أخيه لعلَّه يكفّ عن ذم آلهتهم وتسفيه أحلامهم وإنكار ما تعارفوا عليه من عاداتهم وأخلاقهم ومن إفساد عبيدهم وإمائهم وحلفائهم عليهم.

وقـد قبـل منهم أبو طالـب فراجع ابن أخيه وعـرض عليه ما يقـول قومه وما يعرضـون عليه من الملك وكرائـم الأموال وما ينذرونـه به من البطش والعذاب فلم يكن جوابه لعمه إلا أن قال مقالته تلك المشهورة: «والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أرجع عن هذا الأمر ما رجعت».

وعـاد أبـو طالب إلى مشـيخة قريش بقول ابـن أخيه فلم يزدهم ذلك إلا عنادًا وإصرارًا واسـتكبارًا فعمدوا إلى إيذائه فـي أصحابـه وفي الرقيـق والضعفاء منهم خاصـة لعلهم أن يصدوهـم عـن الإقبـال عليه ويردوهـم بعد إيمانهـم كفارًا ولعلـه حين يرى ذلك أن يحس ما يشـقى بـه أصحابه فيؤثر لهـم ولنفسـه العافيـة فجعلـوا يعذبونهـم بالضـرب حينًا وبالمـاء حينًا وبالنـار حينًا وبالموت حينًـا آخر ولكنهم لم يبلغـوا بذلك منه ولا من أصحابه شـيئًا قتلوا ياسـرًا وزوجه سـمية ذات يوم وابنهما عمار يرى فلم يصرفوا الأبوين ولم يصرفـوا ابنهما عما أراد الله لهما من الكرامة بالإيمان وإنما كان ياسـر وزوجـه نموذجًـا رائعًا للصبر والجلـد واحتمال الأذى في غير شـكاة ولا تضعضع، ويقـال إن النبي ﷺ مرَّ بآل ياسـر وهم يعذبون فلم يزد ياسـرٌ على أن يقول: الدهر هكذا يا رسول الله.

ويُحدث رواة السـيرة أن النبي ﷺ قال لهم: «صبرًا آل ياسر فإن موعدكم الجنة»، وكان ياسـر وامرأته سـمية أول شهيدين في الإسـلام فلم يجزعْ عمارٌ ولم يجد الوهنُ إلى نفسه سبيلًا بل

ازداد إيمانًا مع إيمانه وصبرًا إلى صبره حتى استيأس منه معذبوه واضطروا إلى أن يرفعوا عنه العذاب.

ويتحدث الرواة أنَّ عمار بن ياسر كان أول من اتخذ مسجدًا في بيته وفيه نزلت هذه الآية من سورة الزمر:

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (الزمر: ٩)

وعذبوا (بلالًا) أشد العذاب ونكلوا به أعظم التنكيل وجعلوه هُزؤًا للصبية والسفهاء فلم يرفع عنه العذاب حتى اشتراه أبو بكر وكان رقيقًا فأعتقه.

وعذبوا كثيرًا غير هؤلاء -تجد أسماءهم في كتب السيرة- ألوانًا من العذاب وفتنوهم ضروبًا من الفتنة مكثوا على ذلك أعوامًا لا يرقبون في هؤلاء المستضعفين عهدًا ولا ذمة ولا تعطفهم عليهم رحمة.

وكان موقف قريش من المسلمين مختلفًا، فأمَّا ضعفاؤهم وفقراؤهم فكانوا يصبون عليهم العذاب صبًا لا يخافون في تعذيبهم لومًا ولا إنكارًا، وأمَّا أولو الشرف منهم الذين يأوون من قومهم إلى ركن شديد فكانوا يؤذونهم بألسنتهم ويؤذونهم بالقطيعة ويغرون قومهم أن يشتدوا عليهم، ويفتنوهم عن دينهم ما استطاعوا إلى فتنتهم سبيلًا ولكنهم على ذلك لم يبلغوا منهم شيئًا ولم يصدوهم عن دينهم وإنما وجدوا منهم صبرًا وجلدًا واحتمالًا ووجدوا من بعضهم مقاومةً وتحديًا وردًا

عنيفًا كالذي كانوا يجدونه من عمر بن الخطاب ومن حمزة بن عبدالمطلب.

وكذلك مضى الأمر بين النبي ﷺ وأصحابه القليلين وبين قريش ذات العدد والقوة والثراء لا يهن النبي ولا يضعف ولا يستخفي بدعوته وأصحابه منهم القوي الذي يجالد عن دينه ومنهم الضعيف الذي يلقى العذاب صابرًا عليه ومنهم الغريب الذي يستحب الأذى يراه قربةً إلى الله فيتصدى لمجالس قريش ويُعلن إليهم إسلامه ويحتمل منهم إيذاءهم له كالذي كان من (أبي ذر) حين أسلم وهو غريب في مكة فلم يُرضِه إلا أن يغيظ قريشًا ويتلقَّى منهم اللكز والوكز واللطم والصفع حتى يُغشَى عليه يفعل ذلك مرة ومرة ومرة حتى يأمره النبي أن يعود إلى قومه ويظل بينهم حتى يأتيه أمره.

وقد علمتْ قريش أنها لن تبلغ من النبي شيئًا بهذه الفتنة فأزمعت أن تؤذي بني هاشم كلهم، على أنهم لم يكونوا قد أسلموا جميعًا ولكنهم أولو عصبية النبي ورهطه الأدنون فأجمعوا ألا يبايعوهم وألا يصهروا إليهم ولا يزوجوهم وألا تكون بينهم وبين بني هاشم معاملة ما، واضطر بنو هاشم إلى شِعبهم يعيشون فيه عيشة المحاصَرين لا يكلمهم أحد ولا يعاملهم أحد ولا تصل أرزاقهم إليهم إلا بعد المشقة الشاقة والعسر العسير.

وكتبت قريش بهذه المقاطعة صحيفة جعلتها عهدًا بين أحيائها حتى يخلع بنو هاشم محمدًا ويسلموه إليها ولكن بني

هاشــم صبروا على الحصار واحتملوا الجهد والمشــقة والعناء إيثارًا لأحســابهم ومكثوا على ذلك عامًا وعامًا وعامًا حتى شــق ذلك على الذين يحاصرونهم أنفســهم وسعى بعضهم إلى بعض في إلغاء هذا العهد الآثم وجعل أفراد منهم ترق قلوبهم لإخوانهم هؤلاء الذيــن يحاصرون ظلمًا فيجتهدون فــي أن يوصلوا إليهم أرزاقهم يستخفون بذلك من قومهم.

وإنهــم لفي ذلــك وإذا أبو طالب يغــدو على قريش ذات يوم فيحدثهم -فيما يقول أصحاب الســيرة- بأن ابن أخيه قد زعم له أن صحيفتهم تلك التي كتبوها بينهم وأودعوها جوف الكعبة قد أدركها البِلَى وعدَتْ عليها الأَرَضة فلم تُبق فيهــا مما كتبوا إلا اســم الله الذي ذكروه فــي أولها قال أبو طالب: فانظروا يا معشــر قريش إلــى صحيفتكم تلك فإن وجدتموهــا كمــا ذكر ابن أخي كان هــذا إيذانًا لكم بأنكم تعتدون على فريق من قومكم بغير الحق وتظلمونهم ظلمًا منكــرًا وبأنْ قد آن لكــم أن ترفعوا هذا الظلــم وتكفّوا عن ذلــك العدوان وتثوبــوا إلى المعدلة بينكــم وبين إخوانكم وإن وجدتــم صحيفتكــم تلــك كهيئتهــا يــوم كتبتموهــا ووضعتموهــا فــي جــوف الكعبــة أســلمنا إليكــم محمدًا تصنعون به ما تشاءون.

فتســارع الذين رقَّتْ قلوبهم لبني هاشــم يقولون: يا معشــر قريــش لقــد أنصفكم أبــو طالــب وأعطاكــم الرضا فالتمســوا صحيفتكم تلك وانظروا؛ فإن كانتْ كما قال محمد فأجيبوا أبا

طالب إلى رفع الظلم عن إخوانكم وإلا فقد آذنكم بأنه سيُسلم إليكم ابن أخيه.

وتنظر قريش في الصحيفة فإذا كل ما كتب فيها قد مُحي ذهبت به الأرضة إلا اسم الله فإنه كما كتبوه. هنالك يُرفع الحصار ويعود القوم إلى العافية.

ولكن هذا كله إن خفف عن بني هاشم فلم يخفف على المسلمين من أصحاب النبي شيئًا فإيذاؤهم متصل وفتنتهم ماضية على عهدها.

ثم يُمتحن النبي امتحانًا شاقًا فيفقد زوجه خديجة تلك التي كانت أول من نصرته وآزرته وأجابته إلى دعوته ثم يفقد عمه أبا طالب ذلك الذي كفله صبيًا ويافعًا وقام دونه يحميه ويذب عنه وإن كان لم يؤمن له ولم يرجع عن دين آبائه، وإنما فعل ما فعل حُبًا لابن أخيه وعطفًا عليه وأداءً لحق العصبية والحسب.

ويشتد البلاء على المسلمين وتطمع قريش في النبي، فيأذن النبي للمسلمين في أن يهاجر من استطاع الهجرة منهم إلى بلاد الحبشة، حيث يستطيعون أن يعبدوا الله آمنين لا يلقون فتنة ولا عذابًا.. فيهاجر منهم من استطاع، ويأمنون على دينهم في تلك الأرض البعيدة، ويبقى النبي ﷺ ومن أبى فراقه من أصحابه بمكة يلقون ما يلقون من الشدة والبأس، لا تزيدهم الفتنة إلا إيمانًا وتثبيتًا.

وفي ذات يوم يخرج النبي ﷺ من مكة إلى الطائف يرجو أن يجد عند ثقيف من العون والجوار ما يمكنه من أداء رسالته،

ولكنه لا يلقى من ثقيف إلا أعنف الرد وأثقله، وإذا هم لا يكتفون برده والإعراض عنه، وإنما يُغرون به السفهاء والصبيان يؤذونه حتى يجهدوه وحتى يضطروه إلى ظل بستان ليستريح.

وكان في البستان صاحباه: رجلان من قريش -هما عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة- يريان النبي وقد بلغ منه الجهد وأوى إلى ظل بستانهما يستريح مما أدركه من العناء.

قال أصحاب السيرة: فيرق قلب هذين القرشيين له، ولكنهما متحفظان على ذلك، لا يُؤويان فتغضب قريش، فيدعوان (عداسًا) غلامًا لهما ويرسلانه إليه بطبق فيه عنب. ولكن (عداسًا) لا يكاد يتحدث إلى النبي ويسمع منه حتى يراه سيداه مغرقًا في البكاء مكبًا على النبي يقبله ويتلطف له. فإذا عاد إلى سيديه سألاه، فإذا هو قد مال إلى ما يدعو إليه هذا الرجل الذي آذته ثقيف وأبى سيداه أن يضيفاه. وقد رجع النبي إلى مكة فلم يستطع أن يدخلها حتى استجار بشريف من أشرافها، هو مُطعم بن عدي، فأجاره.

ثم جعل النبي يترقب موسم الحج يعرض نفسه فيه على قبائل العرب أيها يُئويه ويمنعه حتى يبلغ رسالات ربه، فترده قبائل العرب جهلًا منها أولًا، وكراهة أن تعادي قريشًا ثانيًا، حتى إذا كان في موسم من المواسم عرض نفسه على قوم من أهل يثرب فوجد عندهم ميلًا إليه وإيثارًا له فيضرب لهم موعدًا من قابل، ويصبر عامه ذاك على الأذى ثم يلقى وفد يثرب فيبايعونه على أن يُؤوه ويمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم، وقد استوثق العهد

بينه وبينهم وعاد إلى مكة راضيًا محبورًا.

ثم جعل يأذن لأصحابه في الهجرة إلى يثرب فيهاجرون أرسالًا، يهاجر الضعفاء منهم خفية ويهاجر الأقوياء منهم جهرة، وقد فشا الإسلام في يثرب، وقُرئ القرآن في كثير من دورها، والنبي مع ذلك مقيم في مكة لا يبرحها ينتظر أن يؤذن له في الهجرة... وقد استأذنه صاحبه أبو بكر في أن يكون صاحبه في سفره فقبل منه. وقد عرفت قريش ما كان من العهد بينه وبين أهل يثرب وما كان من هجرة أصحابه إليها فكرهوا أن يهاجر النبي فيصبح هو وأهل يثرب لهم عدوًا. فاجتمعوا وتشاوروا وانتهى رأيهم إلى أن يرصدوا له عند بيته ليلًا نفرًا من أحياء قريش على اختلافها ليقتلوه يضربونه ضربة رجل واحد فيضيع دمه في القبائل ولا يستطيع قومه من بني عبد مناف أن يثأروا لدمه.

قال الرواة: وقد أرصد هذا النفر من قبائل قريش عند بيت النبي ليلًا وآذنه الله بمكر قريش فلم ينم في فراشه ليلته تلك وإنما أمر ربيبه وابن عمه (عليًا) أن ينام في فراشه ويتسجّى ببرده وخرج على النفر الذين أرصدوا له، فإذا هم قد غشيهم النعاس.

قال الرواة: فوضع على رءوسهم شيئًا من تراب ومضى لميعاده مع أبي بكر. فخرجا من مكة مستخفيين حتى انتهيا إلى غار ثور، فأويا إليه ينتظران أن ينقطع طلب قريش لهما، ومكثا في الغار ثلاثة أيام يأتيهما قوتهما كل يوم.

قال أصحاب السيرة: وأصبح الرصد فعلموا أن النبي قد خرج وأنه قد فاتهم، فسقط في أيديهم. وجدَّت قريش في طلب النبي وصاحبه.

ويتحدث أصحاب السيرة: بأن فريقًا من الذين جدوا في طلبهما قد بلغوا غار ثور، ذاك الذي أويا إليه، فلم يخطر لهم أنهما يستخفيان فيه، ولو قد نظروا تحت أقدامهم لرأوهما.

والشيء الذي ليس فيه شك هو أن أبا بكر قد كان قلقًا في الغار يخشى أن يدركهما الطلب، وأن النبي كان يهدِّئ من روعه، بذلك جاءت الآية الكرية في سورة التوبة:

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

(التوبة: ٤٠)

وكان أبو بكر قد أعد للسفر كل شيء، فلما قَدَّرا أن طلب قريش لهما قد انقطع مضيا في طريقهما إلى يثرب فبلغاها. واستقبل النبي فيها أحسن استقبال، فرح به أنصاره من الأوس والخزرج في يثرب، وفرح به أصحابه الذين هاجروا قبله إليها. ومنذ ذلك اليوم الذي بلغ النبي فيه يثرب، فتحت أمامه وأمام دعوته طريق جديدة.

(١٣)

وكان مقـام النبـي ﷺ بمكة منـذ نُبئ إلـى أن هاجر ثلاث عشـرة سـنة –فيما يقول جمهور الرواة– لقي فيهن من الجهد مـا لقي وصبر فيهن على الجهد ما صبر وتأسـى به أصحابه ما اسـتطاعوا إلى التأسـي به سـبيلًا وأنزل فيهن عليه من القرآن شيء كثير.

كان فـي مكـة يدعـو إلى التوحيـد وينهى عن الشـرك ويأمـر بالعدل وينهى عن الجـور ويجهر بأن الناس جميعًا سواء عند الله لا يمتاز بعضهم من بعض إلا بالبر والتقوى، ويحذر الذين يشركون بالله ويجعلون له أندادًا عذابًا شديدًا بعد الموت وينبئ بـأن لهذه الدنيا التي يعيش الناس فيها نهايـة لا بد مـن أن تبلغها يـوم تقوم السـاعة، ويهول من أمر السـاعة هذه تهويلًا شـديدًا تنخلع لـه القلوب وينبئ بقربهـا وبأنها تفجـأ الناس على حين غفلـة منهم فتذهل الآبـاء والأمهات عن أبنائهم وتنسـي الإنسـان كل شـيء إلا نفسـه ويضطرب لهـا الكون اضطرابًـا أي اضطراب، فالسـماء منفطـرة، والكواكب منتثرة والبحـور مفجرة، والقبور مبعثرة ويومئـذ تعلم كل نفس ما قدمت من عمل وما أخرت.

وعلى هذا النحو كان يهول من أمر الساعة وما يكون بعدها من حسـاب الناس على ما قدموا وما أخروا من أعمالهم وقد سُجل كل عمل أتاه الإنسان في كتاب ينشر أمامه يحصي له

حسناته وسيئاته والنار معروضة عليه والجنة مزلفة له فهو يرى الجحيم كأبشع ما يكون ويرى النعيم كأروع ما يكون، يتمنى هذا ويشفق من ذاك ولكن كتابه قد نشر بين يديه يحكم له بالنعيم أو يحكم عليه بالجحيم لا يظلم مثقال ذرة مما عمل تضاعف له حسناته ولا تضاعف له سيئاته وإنما تحصى عليه كما هي لا يزاد فيها وقد ينقص منها إن ثقل ميزان الحسنات.. فالإنسان على نفسه بصيرة وإن ألقى معاذيره. ويومئذ يروع الكافرون حين يرون الكتاب منشورًا فيقولون:

﴿يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ﴾

(الكهف: ٤٩)

فإذا قضي بين الناس بمقدار أعمالهم ذهب أصحاب النعيم إلى نعيمهم خالدين فيه أبدًا وذهب أصحاب الجحيم إلى جحيمهم خالدين فيه أبدًا إن كانوا مشركين بالله لا يخلصون له قلوبهم ولا نفوسهم ولا ضمائرهم، وماكثين فيه دهرًا يقصر أو يطول لا يقاس ذلك إلا بعفو الله عن الذين أذنبوا واقترفوا السيئات بعد أن آمنوا.

وكانت قريش تسمع هذا كله فتنكره أشد الإنكار وتبغض من يتلوه عليهم أشد البغض فهو ينبئهم بأن المشركين من آبائهم مخلدون في العذاب وبأنهم سيلحقونهم في النار ويشاركونهم في هذا العذاب المقيم إن لم يجحدوا آباءهم

ويجحدوا دينهم هذا ويؤمنوا بالله وحده لا يشركون به شيئًا ولا يجعلون له ندًا ويؤمنوا بأن محمدًا هذا الذي يتلو عليهم ما يتلو من القرآن رسول الله قد جاءهم من عنده بالحق والبينات . . وليس لهم بد بعد هذا الإيمان من أن يلائموا بين حياتهم وبينه ومن أن يأتوا ما يأمرهم به النبي ويجتنبوا ما ينهاهم عنه ، فإن خالفوا عن ذلك فالله لهم بالمرصاد والنار لهم معدة يسلكون فيها مع المشركين من آبائهم لا يقبل منهم عدل ولا صرف ولا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون .

وكان العُتاة منهم والجبارون ربما سخروا من النبي ﷺ ومما يتلو عليهم وربما سألوه أن يأتيهم بآية تثبت لهم صدقه . فكان يتلو عليهم من القرآن ما يرد على سخريتهم وكان ينبئهم بأنه لا يأتيهم بآية إلا هذا القرآن الذي يتلوه عليهم والذي جاءه من عند ربه ويتحداهم هو فيسألهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن وكان عجزهم عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن هو الدليل على أنه ليس من كلام الناس وإنما هو من كلام الله الذي لا سبيل إلى تقليده ولا إلى محاكاته فضلا عن الإتيان بمثل ما يأتي به . وكان يتلو عليهم فيما يتلو هذه الآية الكريمة من سورة الإسراء :

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾

(الإسراء : ٨٨)

وكانوا لا يفهمون ولا تسيغ عقولهم أن تتصل الأسباب بين الله وبين واحد من الناس يوحى إليه هذا الكلام الذي كان يتلوه عليهم ويتحداهم به ويسألهم أن يأتوا بمثله. فيطلبون إليه آيات تكرههم على أن يؤمنوا له يسألونه أن يفجر لهم من الأرض ينبوعًا أو أن ينشئ لنفسه جنة من نخيل وعنب فيفجر الأنهار خلالها تفجيرًا أو يسقط السماء عليهم كسفًا أو يأتي بالله والملائكة قبيلًا أو يبتكر لنفسه بيتًا من زخرف أو يرقى في السماء فيأتيهم منها بكتاب يقرءونه. وكان الله يأمره أن يجيب على هذا التحدي بهذه الجملة اليسيرة الرائعة:

﴿سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾

(الإسراء: ٩٣)

وكان بعضهم يأتيه أحيانًا بالعظام البالية فيفتها بيده وينثرها في الهواء. ثم يسأله ساخرًا: من يحيي العظام وهي رميم؟ فكان جوابه حاضرًا من القرآن في هذه الآيات الكريمة من سورة يس:

﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾
ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾
أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ
ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ
﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

(يس: ٧٩ – ٨٣)

وكانوا يجادلونه في البعث أشد الجدال، يقولون كما يحكي عنهم القرآن الكريم في سورة الإسراء:

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا﴾

(الإسراء: ٤٩)

فكان الجواب حاضرًا كذلك من القرآن في السورة نفسها:

﴿قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا ﴿٥١﴾ يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا﴾

(الإسراء: ٥٠ - ٥٢)

كان إذن يخوفهم قيام الساعة، ويخوفهم البعث والحساب، ويخوفهم العذاب الذي أعد للمشركين والمذنبين وكان يخوفهم أشياء أخرى أيضًا: يخوفهم أن يجري عليهم مثل ما جرى على أمم من قبلهم، جاءتهم رسلهم بالبينات فكذبوهم وقالوا فيهم مثل ما تقول قريش فيه، قالوا: إنَّ بهم جِنةً، وقالوا: إنهم مسحورون، وقتلوا بعضهم، وأنذروا بعضهم بالقتل فصُب عليهم عذاب عاجل في هذه الحياة الدنيا توطئة لما أعد لهم من عذاب آجل خالد في الحياة الآخرة.

كان يقص عليهم أمر الطوفان الذي أغرق العصاة من قوم نوح، ويقص عليهم أمر الريح التي أهلكت عادًا حين عصوا أخاهم هودًا وأمر الصيحة التي أهلكت ثمود حين عصوا

أخاهــم صالحًا . ويقص عليهم ما جــرى على قوم لوط حين أمطرتهم الســماء حجارة مســومة ، ويقــص عليهم ما جرى على أهل مدين حين أهلكتهم الرجفة لما عصوا شــعيبًا ، ثم يقص عليهم في تفصيل ما أصاب فرعون وقومه حين عصوا موســى . وكان يأمرهم أن يســيروا في الأرض لينظروا كيف كانت عاقبة المفســدين ، وكان يخوفهم أن يُلم بهم مثل ما ألــم بهذه الأمم من ألوان العذاب فــي الدنيا إلى ما ينتظرهم في الآخرة من العذاب المقيم .

يتلــو عليهــم هــذا كلــه مــن القــرآن فيســمعون أحيانًا ويســخرون ويجادلون ويعرضون أحيانًا ويأبون أن يسمعوا ويعقلــوا . وكان يتلــو عليهم من القرآن خلق آدم وإســكانه هــو وامرأته الجنة ونهيه إياهما أن يقربا الشــجرة المحرمة وإغراء الشــيطان لهمــا بالمعصية وإخراجهمــا من الجنة . ويقــص عليهم كذلك من أخبار الســماء ما كان من مجاهرة إبليــس بالمعصية وإبائه أن يســجد إعظامًــا لخلق آدم كما ســجدت الملائكة وما حل به من غضــب الله عليه وما زعم من أنه سيفســد ولــد آدم وســيحملهم علــى المعصية ، في أشــياء أخرى كثيــرة كان يقصها عليهــم يعظهم بها لعلهم أن يهتدوا ، فلا يحفلون بشــيء مما يســمعون إلا هذه القلة القليلــة التي كانت روعة القــرآن تبهر قلوبهم ، وكانت قوة الحجة تســحر عقولهم فيؤمنون جهرًا أو سرًا ، كالذي كان من أمر عمر ﵁ حين أُنبئ بأن أخته وزوجها قد أســلما وقد

ألقي إليه هذا النبأ وهو في طريقه إلى النبي ﷺ ليبطش به فيما زعم فلما سمع من أمر أخته وزوجها عدل إليهما ليبدأ بهما ولكنه ينتهي إلى أن يقرأ عندهما الآيات الأولى من سورة طه فيلين قلبه بعد قسوة وترق نفسه بعد غلظة وإذا هو يذهب إلى النبي لا ليقتله بل ليشهده على أنه مؤمن بالله وبأن محمدًا رسوله.

وكذلك جرت الأمور بين النبي وأصحابه وبين قريش؛ جهاد لا ينقضي وجدال لا يكاد ينطقع واتصال للوحي أثناء ذلك وتلاوة لهذا القرآن الذي كان يوحى إلى النبي واجتماع إلى أصحابه قبل أن يهاجروا إلى الحبشة وبمن بقي منهم معه بعد أن هاجر أصحابه يعلمهم الدين ويقرئهم القرآن، وينصح لهم في أمر دنياهم كما ينصح لهم في أمر دينهم.

وفي ذات يوم قامت قريش وقعدت وانطلقت ألسنتها بالسخرية ووصل الشك إلى قلوب بعض الذين آمنوا ذلك أن النبي أصبح فأنبأ بأنه أُسري به من ليلته إلى المسجد الأقصى وتلا هذه الآية الكريمة من سورة الإسراء:

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾

(الإسراء: ١)

وواضح أن قريشًا لم تكن لتصدق أن يُسرَى بالنبي من ليلته إلى المسجد الأقصى ويعود منه قبل أن يُسفر الصبح وهم الذين ينفقون في رحلتهم إلى الشام ما ينفقون من الأيام الطوال ويلقون في رحلتهم ما يلقون من المشقة والجهد فكيف بهم حين ينبئهم النبي بأنه ذهب إلى المسجد الأقصى في القدس وعاد إلى مكة في ساعة من ليل ولكنه يصف لهم الشام والقدس والمسجد فلا ينكرون من وصفه شيئًا. هنالك اضطربت قلوبهم وفكروا في أن يعجزوه فأرسلوه إلى اليهود ينبئونهم نبأه ويلتمسون عندهم من المسائل ما يلقونها عليه يمتحنون بها صدقه.

قال رواة السيرة: فأمرهم اليهود أن يسألوه عن أمر الفتية الذين أووا إلى الكهف ما خطبهم؟ و ألقيت عليه المسألة ولكن الوحي أبطأ عليه شيئًا حتى ظنت قريش أنها قد أعجزته ثم أقبل عليهم ذات يوم فتلا عليهم قصة أهل الكهف كما عرفوها من اليهود.

فلا غرابة بعد هذا كله في أن يضيقوا به وفي أن تضيق مكة بالنبي نفسه وفي أن يثبته الله ويعزيه عن جحود قومه وعصيانهم بعد ما جاءهم الحق واضحًا جليًا فالله يقول له في سورة الكهف:

﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ
أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا
﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾

(الكهف: ٦ – ٨)

وعلى رغم هذا كله فقد أقام فيهم حتى عرض عليهم أصول

الديــن وبين لهم ما ليس منــه بُدّ ليأمنوا ســوء العاقبة في الدنيا والآخرة : بين لهم أن إلههم واحد لا شــريك له ، وأن الإِشراك به ظلم وجحود يضطر صاحبه إلى الخلود في العذاب المقيم وبين لهم أن الله قد أرسله رسولًا كما أرسل الرسل من قبله إلى قومهم وأن الإِيمــان لا يســتقيم لصاحبــه حتى يشــهد من أعمــاق قلبه بوحدة الله وصدق رســوله وحتى يكون الإِيمان بالله ورسوله ملء قلوبهم وعلى ذكر منهم في كل ما يأتون وما يدعون ، وبين لهم أن الله يأمر بالعدل والإِحسان وإيتاء ذي القربى والرفق باليتامي والمســاكين والبــر بالوالديــن وطاعتهما إلا في الكفــر بالله أو معصيتــه ؛ وبين لهم أن الله ينهاهــم عن آثام فليس لهم بد من أن يجتنبوها : ينهاهم عن القتل ظلمًا وينهاهم عن وأد البنات وقتل الولد خشية الإِملاق ، وينهاهم عن الزنى وعن الخيلاء والمرح ، وعــن الغرور والكبرياء ، وعن الكذب وقول الزور ، وعن شــهود اللغو والمشاركة فيه .

بيــن لهــم هذا كلــه وأكثر مــن هذا كلــه وبشــرهم بالمثوبة الحســنى عند الله إن آمنوا وأصلحــوا وأطاعوا ، وأنذرهم العقاب الشديد في الدنيا والآخرة إن كفروا وعصوا .

صدع بما أمره الله أن يصدع به وأدى مهمته كأحسن ما يكون أداء المهمــات لم يقصر ولــم يفتر ولم ييأس حتى أذن الله له في الهجــرة ، فهاجر بعد أن أعفى نفســه مــن كل تبعة وأدى حق الله وحــق قومه عليه وبربهم فلم يلقَ منهم إلا جحودًا وعقوقًا ، ولم يؤمن له منهم إلا القليل كما رأيت .

(١٤)

وبلـغ (يثربَ) فاســتأنف حياة جديدة وفتحت له إلى نشــر دعوته طـرق جديدة أيضًا وجد في (يثرب) مســلمين قد آمنوا بالله ورسوله قبل الهجرة وفشا الإسلام بينهم حتى كثروا ووجد بينهم مشركين لم يدخل الإيمان في قلوبهم فمنهم من هدى الله إلى الحق فآمن وصدق إيمانه ومنهم من أشفق من عواقب العناد فأظهر الإســلام وأبطن الكفر وعاش منافقًا ووجد فيها يهودًا قد استمســكوا بمــا توارثوا من دينهم فلم يكن لــه بد من أن يلائم بيــن حياته الجديدة في (يثرب) وبيــن هذه الطوائف المختلفة من الناس.

ولم تكن حياته في (يثرب) أهون ولا أيسر من حياته في مكة ولعلها كانت أشــق منها مشــقة وأحفل منها بالخطوب ولكنه اســتقبلها راضيًا بها شــاكرًا لها حامــدًا لربه على أن أتاح له الأمن والنصر والمأوى حتى يبلغ رسالته ويؤدي حق الله عليه.

وقــد بدأ بالمؤاخاة بين المهاجرين من أهل مكة والأنصار مــن أهــل يثرب، فأنشــأ بينهــم صلة قويــة بعيــدة الأثر في حياتهم هي صلة الإخاء بأوســع معانيها وأدقها ثم عقد نوعًا مــن الحلف بينه وبين أصحابه من جهة وبين اليهود من جهة أخــرى على أن يكــون بينهم النصر على العــدو والعون على الكوارث والأحداث.

ثم جعل هو ومن تبعه من المهاجرين والأنصار يعبدون الله جهـرة لا يسـتخفون بدينهم ولا يخافون فتنـة عنه وقد اتخذ النبـي مسـجدًا عامًا لأول مرة في الإسـلام يدعو فيـه إلى ربه ويقيـم فيـه الصلاة ويجلـس فيه للنـاس فيعلمهـم ويؤدبهم ويبصرهـم بمـا يجب عليهـم أن يأتـوا وينهاهـم عما يجب عليهم أن يجتنبوا ويبين لهم محاسن الأخلاق وخير الأعمال ويدلهم على ما يليق بالرجل المؤمن الكريم على نفسه وعلى غيره وما لا يليق به.

كل ذلـك في أمن ودعة وهـدوء ولم يكشـف للمنافقين من أهل (يثرب) سترًا وإنما اكتفى منهم بما أظهروا للإسلام، فلم يعرض لهم بشـيء مما يكرهون وإن كان الله قد أعلمه بمكانهم من النفاق وكان كثيرًا ما يقول لأصحابه: إني لم أومر بأن أفتش عمـا في القلوب، وكان جديرًا أن يظـل كذلك في أمنه وهدوئه وما أتيح له من هذه الحياة الوادعة على قسوتها ولكنه لم يلبث ولـم يلبث أصحابـه معه أن وجدوا أنفسـهم بيـن عدوين ليس أحدهما بأقل خطرًا من صاحبه:

فأمـا أولهمـا فهـم هـؤلاء اليهـود الذين لـم يؤمنوا بـه ولم يسـتكرههم علـى أن يؤمنوا بـه وإنما اكتفى منهم بالمسـالمة والموادعة وحسـن الجوار والمناصرة عنـد الحاجة ولكنهم لم يخلصوا لما كان بينه وبينهم من عهد وإنما أظهروا المسـالمة وأضمـروا الغدر ثم لم يكتفوا بذلك بل أظهروا التكذيب لدينه وجادلوا فيه فأكثروا الجدال.

وأمـا العـدو الآخر فقريش تلك التي تركهـا محفظة عليه أشـد الحفيظة كانـت تحب أن تقتله أو تُثبتـه أو تخرجه من مكة جهرة طريدًا على رءوس الأشـهاد ولكنها تنظر فإذا هي لم تبلغ مما أرادت به شـيئًا لم يُغنِ عنها كيدها له وائتمارها بـه وإنما كانت كما وصفها القرآن الكريم في الآية الكريمة من سورة الأنفال:

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴾

(الأنفال: ٣٠)

مكـروا به حين كان بيـن أظهرهم ولكنهـم لم يقدروا عليـه قـد أنجاه الله منهـم وأبدله بهم قومًـا آووه ونصروه فـلا يمكـن أن تطيب نفوس قريش عمـا أتيح له من الأمن والدعـة، وهـي بعد ذلك تعـرف أنها قـد ظلمته وظلمت أصحابه معه أبشـع الظلم وأشـنعه، فهي لا تأمن أن ينتقم منهـا لما أصابه، بل تحذر أن يتخذ من أمنه في يثرب ومن أنصاره هؤلاء الجدد وسيلة إلى نصب الحرب لها وهي من أجل ذلك حذرة أشد الحذر، قلقة أشد القلق، تريد أن تتقيه مهما تكن وسـيلتها إلى ذلك، فهي تؤلب عليه وتغري به وتكيد له بعيدًا عنها كما كادت له قريبًا منها تؤلب عليه العـرب وتغـري به اليهود ثـم هي بعد ذلك تـؤذي من لم تتح لـه الهجرة من أصحابه أشـد الأذى وأنكره فلا غرابة فـي ألا يحول الحول على هجرته إلـى المدينة حتى يظهر

الشــر بينه وبين قريش، ويتبين أن الأمر بينهما صائر إلى الحــرب لا محالة فقريش عدوه وهي تراه لها عدوًا، وترى مكانه من (يثرب) خطرًا على تجارتها إلى الشام ولا يكاد العــام الثاني من هجرته يبلغ ثلثيه حتى تكون الحرب بينه وبينهم يوم (بدر).

كانــوا كثــرة وكان هو وأصحابه قلة كان هــو وأصحابه يوم التقــى الجمعــان يرون عدوهــم مثليهم رأي العين ولكن شــتان بيــن قــوم يقاتلــون عن دينهــم وعن إيمانهــم بهــذا الدين وهم مســتيقنون أنهم إن ينصروا نعمــوا بانتصارهم في الحياة الدنيا وظفروا بأجرهم على الجهاد وإن يقتلوا فهم شــهداء عند الله قد ضمــن لهم نعيمًــا ليس مثله نعيم، نعيم صفــو خالد لا كدر فيه ولا انقطاع له - وبين قوم يقاتلون عن أموالهم وعما يملؤهم من الغرور والكبرياء.

فلــم تنشــب الحرب بيــن الفريقين حتى أنــزل الله نصره على نبيه وعلى المؤمنين وانهزمت قريش هزيمة منكرة قُتل صناديدها وأسرت جماعة من سادتها وكثرت الغنيمة وعاد المنهزمــون إلى مكة قد أحــرزوا تجارتهم تلك التي نجا بها أبو ســفيان ولم يكد ولكنهم عادوا بخزي أي خزي يشقون بنــار الهزيمــة وفقــد الصناديد والســادة والإخــوان والآباء والأبنــاء والأخلاء وقــد قص الله هذه الموقعــة أروع القصص في سورة الأنفال.

ومنذ ذلك اليوم -يوم بدر- تسامعت العرب بالنبيّ وأحست

قوته وبأسه وامتلأتْ قلوبهم منه رعبًا على أن قريشًا لم تصبر على هزيمتها ولم تتعزَّ عمن فقدتْ من سادتها وأحبائها فجعلت تتهيأ للثأر ترصد لذلك المال وتجمع الجموع وأخذتها العزة بالإِثم فحظرت إعلان الحزن على من قتل من رجالها.

وأقبلت حين دار العام إلى المدينة تريد أن تثأر وأن تنتصر على الذين انتصروا عليها، وقد كادت تعود إلى مكة بالخزي والخسار وخيبة الأمل، لولا أن همَّ بعض المسلمين بالفشل وطمع بعضهم في الغنيمة حين أراهم الله من النصر ما يحبون؛ فكرت عليهم قريش كرة كانت ابتلاء من الله لهم وتمحيصًا لقلوبهم ودرسًا قاسيًا عرف المسلمون كيف ينتفعون به فيما استقبلوا من أيامهم، وفيما أثير لهم من الخطوب والمشكلات.

ولكنهم على كل حال لم ينتصروا في تلك الوقعة يوم أحد، فكانت عليهم الدائرة: قتل منهم من قتل، وجرح منهم من جرح، وفر منهم كثير ولم يثبت إلا النبي ونفر قليل من أصحابه وأصيب النبي نفسه إصابة ضعيفة، ورُزئ بعمه (حمزة) وكثير من أصحابه واستطاع أبو سفيان قائد قريش أن يقول للنبي ومن بقي معه من أصحابه: اعلُ هبل، الحرب سجال يوم بيوم بدر، وقد أجاب عمر أبا سفيان عن أمر النبي ﷺ بأن الله أعلى وأجل وبأن الله قد أبقى من المسلمين من سيكونون له ولقومه بلاء أي بلاء. وعلى رغم الهزيمة التي امتحن الله بها المسلمين في ذلك اليوم وعلى رغم ما رُزئ

النبــي ومــا أصابه مــن الأذى وما أصــاب أصحابه مــن الثكل والجراحــة فقد أبى النبي أن يقبــل الهزيمة كما قبلتها قريش يــوم بدر فأمــر أصحابه أو من قدر منهم على الرحيل أن يتبعوا قريشًــا ومضى على رأسهم في إثر المنتصرين، لم يحفل بقلة أصحابه وكثرة عدوه وإنما مضى في إثرهم لا يلوي على شيء حتــى أمن كرتهم علــى المدينة، فعاد موفــورًا وقص الله وقعة (أحــد) كما كانــت مؤنبًا لمن فشــل من المســلمين وعاتبًا علــى من انصرف عــن الحرب إلى الغنيمــة مخالفًا بذلك عن أمــر النبــي وعافيًا مــع ذلك عن أولئــك وهؤلاء وآمــرًا للنبي أن يعفــو عنهــم ويســتغفر لهم ويشــاورهم في الأمــر ومعزيًا للمســلمين بعد ذلك عمن فقدوا مــن أصحابهم بأنهم أحياء عند ربهم يرزقون ومهيئًا للمســلمين لما ســيمتحنون به في أنفسهم وأموالهم ولما سيسمعون من الأذى الذي يؤذيهم به المشركون والذين أوتوا الكتاب من اليهود.

قــص الله هذا كله كأحســن ما يكــون القصص في ســورة آل عمران على أن قريشًا قد أطمعها انتصارها فلم تكد تستريح من غزوتهــا تلك وتفرغ لما كانت فيه مــن التجارة والحياة اللاهية اللاعبــة بل فكرت في غزو المدينة مــرة أخرى وجعلت تتأهب لذلــك وتؤلب العرب وتحالف القبائل واليهــود موقنة بأنها لن تأمــنَ ما بقي للنبي وأصحابه شــوكة، فليــس لها بد من أن تزيل هذه المدينة أو أن تتهيأ لزوال مكة.

وكذلــك أقبلت قريش بعد عــام وبعض عام -ومعها كثير من

قبائــل نجد . . وقد أحكمــت أمرها مع اليهــود- غازية للمدينة تلــك الغــزوة التي قصها الله في ســورة الأحزاب والتي ســميت بهذا الاسم .

وقــد عــرف النبــي والمســلمون تأهــب قريش وأحابيشــها وحلفائهــا مــن أهل نجد لغزو المدينة فتشــاوروا فــي هذا الأمر وأشــير على النبــي أن يحتفر خندقًا يمنع المشــركين من بلوغ المدينــة فتأذَّن في أصحابه بذلك وشــاركهم في احتفار الخندق كما شــاركهم من قبل في بناء المسجد يعمل بيده كواحد منهم ويحتمل في ذلك من المشــقة ما يحتملون ويلقى فيه من العناء مــا يلقــون صابرًا جادًا مثبتًــا قلوب أصحابه مغريًــا لهم بالصبر والجد حتى بلغوا من احتفار الخندق ما أرادوا .

وأقبلت قريش في جموع كثيرة جدًا من أحابيشــها وأحلافها جموعٌ تأتي من أسفل من المسلمين وهم قريش ومن جاء معهم ! وجمــوع أخرى تأتي من فوقهم وهم أهــل نجد من حلفاء قريش وجلهم من غطفان .

ورأى المســلمون ذلك فأكبروه واســتكثروه ولا ســيما وقد علمــوا أن بنــي قريظة مــن اليهود قــد نقضوا عهدهــم وغدروا بحلفائهم من المسلمين ، وخلطوا أمرهم بأمر قريش وحلفائها بغيًا وغدرًا ونقضًا للحلف والجوار .

وكان المســلمون يعلمــون إلى هذا كلــه أن بين أظهرهم من المنافقيــن فريقًا إن لم يظهروا تأييدهــم لقريش فهم يضمرون خذلانهــم للمســلمين ويأبون على كل حــال أن ينصروهم . فلا

غرابة في أن يصف الله عز وجل موقف المسلمين من هذا كله أبرع الوصف وأنفذه إلى القلوب في هذه الآيات الكريمة من سورة الأحزاب، وأن يذكر المسلمين بذلك بعد الموقعة ليعرفوا حسن بلائه فيهم وعظيم نعمته عليهم:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ۚ وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾

(الأحزاب: ٩ - ١٣)

ولم يكن بين جماعة المسلمين وبين هذه الجموع الضخمة من المشركين تزاحف ولا لقاء وإنما كان بعض الأفراد من المسلمين والمشركين تكون بينهم المبارزة من حين إلى حين. ولكن المسلمين كانوا مع ذلك في بلاء عظيم. يُمتَحنون في إيمانهم وثقتهم بما وعد الله ورسوله ويمتحنون في صبرهم على اليأس والمكروه؛ ذلك أن قريشًا وحلفاءها كانوا جديرين أن يقيموا فيطيلوا المقام ويفرضوا على المسلمين حصارًا شديدًا متصلًا، وكان بنو قريظة من اليهود جديرين أن يأخذوهم

مــن ظهورهم فلا يعرفون من يقاتلون ولا مــن أي وجه يقاتلون. ولكن الله يتيح للنبي من عدوه من يأتيه ناصحًا له.

يريــد أن ينصره فيأمره النبي أن يخــذِّل بين قريش واليهود. ويفعــل الرجل ذلك على أحســن وجه فيقنع اليهود بأن قريشًــا خليقة أن تغدر بهم حين يجد الجد ويشتد البأس ويشير عليهم بألا يشــاركوا قريشًــا في أمرها حتى تعطيهم رهائن من أنفسها ويقنع قريشًــا بســوء نية اليهــود وأن حلفهــم لا يخلو من دخل ويســتحكم الشــك عند قريش فتطالب اليهود بالقتال ويطلب اليهــود الرهائن فلا تشــك قريش فــي أنهم قد غــدروا. وبينما هم في ذلك يرســل الله ذات ليلــة ريحًا عاصفة أي العصف باردة أي البــرد تطفئ نيــران الحلفاء وتكفأ قدورهــم وتنزع خيامهم فيأخذهــم الذعر ويشــتد فيهــم الاختلاط والاضطــراب حتى لا يعــرف الرجل منهــم صاحبه. فلا يــكادون يســتقبلون الصبح حتى يجلس أبو ســفيان على راحلته وينادي في القوم بالرحيل، فيتفرق الأحزاب.

تعــود قريــش إلــى مكتهــا ويعــود حلفاؤهم من العــرب إلى بواديهم ويصف الله ذلك في الآية الكريمة:

﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾

(الأحزاب: ٢٥)

وبعــد هذه الخيبة التي منيت بها قريش وحلفاؤها لم تحاول قريــش غزو المدينــة مرة أخرى ولكنها مضــت تبث كيدها في

جزيـرة العرب تحرض على النبي وأصحابه المشـركين من أهل نجد والحجاز. وكان النبي وأصحابه من أجل ذلك لا يستريحون وإنما تأتيهم الأنباء بين حين وحين بأن هذه القبيلة أو تلك -من قبائـل العرب القريبة منهم والبعيدة عنهم- تتهيأ لبعض الشـر فيغزوها النبي بنفســه أو يرســل إليها من يغزوها. كانت قريش تبــث الكيــد وكان النبــي وأصحابه يبثون الهيبــة لهم والخوف منهم حتى إذا كان العام الســادس للهجرةِ خرج النبي وفريق من أصحابه قاصدين إلى مكة لا يريدون قتالاً ولا يفكرون في حرب وإنمــا يريدون العمرة كما كان ســائر العرب يقصدون إلى مكة حاجين ومعتمرين.

ولكنهم لا يبلغون الحديبية حتى تعلم قريش بمقدمهم فتأبى أن يدخلوا عليها مكة ويسعى السفراء بين النبي وبينهم في ذلك يؤكد النبي وأصحابه أنهم لا يريدون إلا العمرة وتأبى قريش أن يدخلوهــا عليهم وتنذر بالقتال وتتهيأ له ثم يكون الصلح الذي يعرف بصلح (الحديبية) والذي امتحن الله به قلوب المسلمين وزلــزل به قلوب بعض خيارهم، ذلك أن النبي قبل من قريش ألا يدخــل عليهم مكة عامهــم ذاك وقبلت قريــش أن يدخلوها من قابل لا يحملون من السلاح إلا السيوف في أغمادها. وشق ذلك على المسلمين حتى أقبل (عمر) على النبي يسأله: ألسنا على حق؟ قال النبي: بلى. قال عمر: أليسوا على باطل؟ قال النبي: بلــى. قال عمر: فلِــمَ نُعطِي الدنيةَ في ديننا؟ قال النبي: أنا عبد الله ورسوله ولن يضيعني.

وأعاد (عمر) سؤاله هذا على أبي بكر، فأجابه أبو بكر بمثل ما أجابه النبي به ولما عقد الصلح أمر النبي أصحابه أن يحلوا من إحرامهم فأبطئوا ولم يستجيبوا. واغتم النبي لذلك ولكنه لم يلبث أن أحل من إحرامه حتى صنع أصحابه صنيعه.

وأنزل الله:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ
وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾
هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ
جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ
جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ
ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ
وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ
عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾

(الفتح: ١ - ٧)

ويقول الرواة: إن بعض المسلمين حين تليت عليهم هذه السورة سألوا النبي: أوفتح هذا؟ قال النبي: نعم.

وكان النبي قد أرسل من (الحديبية) عثمان رضي الله عنه سفيرًا إلى قريش. فأبطأت عودته، وقيل: إن قريشًا قد فتنته فبسط النبي يده للبيعة على الموت وبايعه أصحابه لم يتخلف منهم أحد.

وأنزل الله في سورة الفتح:

﴿ لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةٗ يَأۡخُذُونَهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴾

(الفتح : ١٨ ، ١٩)

وفي يوم (الحديبية) ذاك تمت الهدنة بين النبي وبين قريش عشر سنين على أن يدخل في عقد قريش من العرب من شاء ويدخل في عقد النبي منهم من شاء وتكفّ الحرب بين الفريقين وعلى أن من جاء قريشًا من أصحاب النبي لاجئًا إليهم لم يردوه ومن جاء النبي من قريش مؤمنًا به أو لاجئًا إليه رده عليهم.

وعلى أن يأتي النبي وأصحابه من قابل معتمرين فتترك لهم قريش مكة ويدخلونها لا يحملون من السلاح إلا السيوف في أغمادها، ثم لا يقيمون فيها إلا ثلاثة أيام.

وهذه الشروط التي قامت عليها الهدنة هي التي أحفظت فريقًا من المسلمين ولكنهم لم يفطنوا لأن الهدنة بينهم وبين قريش ستكفيهم مكرها من جهة وستطلق أيديهم فيمن لم يحالف قريشًا من العرب يسالمونهم إن سالموا ويحاربونهم إن حاربوا وستريحهم إلى حين من خصومة الأعداء هؤلاء الألداء، ذلك إلى ما وعدهم الله من الفتح القريب ومن مغانم كثيرة يأخذونها.

ومهما يكن من شيء فقد طابت قلوب المسلمين آخر الأمر وعرفوا أنهم قد أسرعوا إلى الحفيظة والغضب وأنهم لو استأنوا بأنفسهم لكان خيرًا لهم وأرضى لنبيهم. ولكن الله ونبيه قد عوَّداهم العفو عن مثل هذه الهفوات.

(١٥)

ولم يكن أمر النبي مع اليهود أهون من أمره مع قريش فهم كانوا على قلتهم في المدينة جيرانًا للنبي والمسلمين. ولم يكونوا جيران خير. كان كفرهم شديدًا ومكرهم أشد وكانوا على اتصال بالمنافقين من أهل المدينة يشجعونهم ويغرونهم بالنفاق، وكانت بينهم وبين كثيرين من هؤلاء المنافقين علاقات حلف في الجاهلية فكان هذا يزيدهم كفرًا وطغيانًا وكانوا بعد هذا كله أهل كتاب يقرءون التوراة أو يقرؤها أحبارهم على أقل تقدير ويرون أنهم على شيء من الدين وأنهم سبقوا المسلمين إلى هذا الدين، فلهم سابقة علم بشئون النبوات. وكانوا يعظمون موسى ويرون المسلمين يعظمونه ويسمعون تعظيمه في القرآن فتأخذهم الكبرياء ويظنون أنهم أهدى سبيلًا من المسلمين كما ظنوا من قبل أنهم أهدى سبيلًا من النصارى، وكانوا يتباهون بدينهم وما عندهم من علم قليل على المسلمين، كما كانوا يتباهون بذلك على العرب في الجاهلية. وكانوا أصحاب جدال لا ينقضي وأصحاب عناد لا قرار له، وكانوا ذوي جرأة على الحق وافتنان في الباطل يعلمون أن المسلمين لا يقرءون التوراة في لغتها العبرانية فيحرفونها كما يشاءون وكما تشاء أهواؤهم لا يحفلون بما في ذلك من نكر ولا يأبهون لما له من عواقب. وكانوا يسألون النبي عن أشياء. فإذا

أجابهم بما كان الله يوحي إليه مارَوا في ذلك وأسرفوا في المراء.

ثـم كانوا لا يفون بالعهد إذا عاهـدوا ولا يصدقون في القول إذا قالوا ولا يسـتطيع أحد من المسـلمين أن يأمن لهم في قول أو عمل.

ثـم لـم يلبثوا أن بينوا عـن غدرهم تبيينًا لا يترك سـبيلًا إلى الشـك فـي أن جوارهم غير مأمـون: همَّ فريق منهـم -وهم بنو النضيـر- بقتل النبي وقد أقبل عليهم ذات يوم يسـتعينهم على بعض الحق كما كان الحلف يقضي بذلك فأظهروا حسن اللقاء وهموا بالغدر وأزمعوا أن يلقوا عليه من عَلٍ صخرة تودي به لولا أن نبأه الله بما كادوا له. فانصرف عنهم ثم أجلاهم عن المدينة ولم يرزأهم شيئًا.

ونكـص فريق آخـر -وهم بنو قينقاع- عـن الوفاء بالحلف. أهانوا امرأة واسـتنصرت المرأة المسـلمين فـكان خصام قتلوا فيـه رجلًا مسـلمًا واعتلوا فـي ذلك بعلل لا قيـام لها. فأجلاهم النبي عن المدينة لم يرزأهم إلا السلاح.

وغـدر الفريـق الآخـر يوم الأحـزاب فلـم يمتنعوا عن نصر المسـلمين فحسب ولكنهم أعانوا عليهم وانضموا لحلف قريش، فحاصرهم النبي والمسلمون حتى أنزلهم علـى حكمـه ثم حكم فيهم سـعد بن معـاذ رضي الله عنه بأن تقتل المقاتلة وتحتاز الأموال وتسـبى الذراري والنساء، فأنفذ النبي هذا الحكم.

ووصف الله عز وجل في القرآن ما أصاب بني قريظة هؤلاء في سورة الأحزاب حيث يقول:

﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمۡ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ فَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ وَتَأۡسِرُونَ فَرِيقٗا ﴿٢٦﴾ وَأَوۡرَثَكُمۡ أَرۡضَهُمۡ وَدِيَٰرَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُمۡ وَأَرۡضٗا لَّمۡ تَطَـُٔوهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا ﴾

(الأحزاب: ٢٦، ٢٧)

وكانت لليهود بقية قوية غنية في (خيبر) وفي (وادي القرى) فسلط الله رسوله عليهم بعد يوم (الحديبية) وهو الفتح القريب الذي وعد به المؤمنين فغزاهم في أصحابه ولم ينصرف عنهم حتى فتح حصونهم وغنم أرضهم وأعملهم فيها على أن لهم نصف ما تخرج من الثمرات وللمسلمين نصفها.

وكذلك قضى على اليهود في الحجاز، خلت منهم المدينة وبقي منهم من بقي في خيبر ووادي القرى خاضعين للمسلمين يعملون في أرضهم ويعيشون من عملهم لا يملكون قوة ولا مكرًا ولا كيدًا.

وقد أمر الله نبيه ومن آمن معه ألا يجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن، وأن يقولوا لهم آمنَّا بالذي أنزل إلينا وما أنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون.

لم يستثن من هذا الأمر بالرفق والجدال الرقيق مع أهل الكتاب من اليهود والنصارى إلا الذين ظلموا وبينوا بظلمهم

أن الرفق والرقة لا يجديان معهم شيئًا وذلك في الآية الكريمة من سورة العنكبوت:

﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾

(العنكبوت: ٤٦)

فلما هاجر النبي إلى المدينة واستقر فيها مع أصحابه من المهاجرين والأنصار لم يعادِ اليهودَ ولم يبادهم بسوء وإنما رفق بهم كل الرفق وأراد أن تقوم الصلات بينه وبينهم على حسن الجوار وعلى التعاون والنصر عند البأس، وقبل اليهود منه ذلك ولكنهم لم يلبثوا أن أظهروا أنهم كانوا حقًا من الذين ظلموا واستثناهم الله في الآية الكريمة السابقة فاشتد الجدال بينهم وبين النبي في الدين أولًا وأنزل الله فيهم قرآنًا كثيرًا:

يقص عليهم أحيانًا سابقتهم في الكفر به والجحود له والتنكر لمن أرسل إليهم من الأنبياء ويقص عليهم كذلك عقاب الله لهم على هذا الكفر والجحود، وأحيانًا أخرى يرد عليهم ما كانوا يفترون من الكذب ويزعمون أنهم يقرءونه في التوراة ويصفهم بأنهم لا يقرءون الكتاب إلا أماني وإن هم إلا يظنون، ويصفهم مرة أخرى بأنهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه ويصفهم مرة ثالثة بالنفاق لأنهم يلقون الذين آمنوا فيقولون: إنا معكم فإذا خلا بعضهم إلى

بعض قالــوا : أتحدثونهم بمــا فتح الله عليكــم ليحاجوجم به عنــد ربكم ومــرة أخرى يوبخهــم لأنهم يأمرون النــاس بالبر وينسون أنفســهم وهم يتلون الكتاب ويذكرهم غير مرة بأنه نجاهم من آل فرعون يسومونهم سوء العذاب يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم وبأنه أغرق آل فرعون أمامهم وهم ينظرون ثم لــم يلبثوا أن جحــدوا هذه النعمــة وكفروا بالــذي أنعمها عليهم وعبدوا العجل من بعده ظالمين لأنفســهم، ويذكرهم غير مرة أيضًا بجبنهم وكراهيتهم أن يدخلوا الأرض المقدسة التي اختصهم الله بها وقالوا لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون.

ويحصــي عليهــم كثيــرًا من آثامهــم ومن تكذيبهم للرســل وقتلهــم للأنبيــاء ومــا أصابهــم في ســبيل هذا كله مــن المحن وألوان البلاء، وربما تحداهم حين كانوا يزعمون لأنفســهم من الخصائص ما ليس لهم فهم كانوا يزعمون أن النار لن تمســهم إلا أيامًا معدودات فيأمر الله نبيه أن يسألهم : هل اتخذوا عند الله عهدًا أم هل يقولون على الله ما لا يعلمون.

ويأمــر نبيه أن يقول لهم : إن كانت الدار الآخرة خالصة لكم مــن دون الناس فتمنــوا الموت إن كنتم صادقيــن، ثم يؤكد الله عــز وجل أنهم لن يتمنــوا الموت أبدًا لأنهــم يعلمون ما قدمت أيديهم من السيئات فهم يكذبون على الله حين يزعمون أن النار لن تمســهم إلا أيامًا معدودات أو أن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس.

ويؤكد الله لنبيه أنهم أحرص الناس على حياة وأن أحدهم يود لو يعمر ألف سنة ولو أتيح له ما يتمنى من طول العمر لما زحزحه ذلك عن العذاب.

وكذلك يمضي القرآن الكريم ناعيًا على اليهود تلك الخصال التي أشرنا إليها في أول هذا الفصل ولائمًا لهم على تاريخهم المليء بالجحود والغدر والكفر ورادًا عليهم ما كانوا يثيرون من المشكلات أو يلقون عليه من الأسئلة التي كانوا يرون أنها ستُحرجه وتقطع حجته فيفحمهم ويلزمهم الحجة.

ولذلك كله ظهر أول انحراف عن الرفق بهم حين حولت قبلة المسلمين في الصلاة عن بيت المقدس إلى المسجد الحرام وكان النبي يتمنى لو غيرت قبلته عن بيت المقدس انحرافًا عن اليهود أولئك الذين وصفهم الله بما وصفهم به في آيات كثيرة جدًا من القرآن والذين مضوا في العناد والجحود إلى غير غاية فأنزل الله هذه الآية من سورة البقرة:

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾

(البقرة: ١٤٤)

ثم سخر الله منهم في هذه الآية من السورة نفسها:

﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾

(البقرة: ١٤٥، ١٤٦)

ثـم بين بعد ذلك في نفس السـورة أن البـر ليس في أن يولي الإنسـان وجهه قبل المشرق والمغرب وإنما البر خصال أخرى فصلها الله في هذه الآية:

﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾

(البقرة: ١٧٧)

وبعـد خلـو (المدينة) من اليهـود وفتح (خيبـر) و(وادي القـرى) خف الجدال بيـن النبي وبين اليهـود وقل ذكرهم في القـرآن لانقطاع الحاجة إليه ولأن الله قد ذكرهم بما أخزاهم في الدنيا وبين أنه سيخزي الظالمين منهم في الآخرة.

(١٦)

ولم يكن أمر النصارى ظاهرًا في جزيرة العرب وإنما كانت لهم جماعة في نجران وكان منهم أفراد متفوقون هنا وهناك في الجزيرة فلم يكن الجدال بين النبي وبينهم متصلاً ولم يعنف إلا حين كان النصارى ينحرفون في مقالاتهم وما يظهرون من دينهم عن التوحيد الخالص الذي جاء به النبي ودعا إليه وأمر أن يقاتل الناس حتى يعلنوه فيقولوا: لا إله إلا الله فإن قالوها عصموا منه دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله كما جاء في الحديث الذي رواه الشيخان.

وقد أنزل الله من القرآن ما يصور النصارى أقرب الناس مودة إلى المؤمنين فقال في سورة المائدة:

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ
أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ
إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا
يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ
مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ
﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا
مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ

﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴾

(المائدة: ٨٢ - ٨٦)

وقد قرر القرآن الكريم أن المسيح عيسى بن مريم رجل لا كالرجال لم يلده أب، وإنما هو كلمة الله وروح منه ألقاها إلى مريم، ووصف الله تبشير الملائكة لمريم بالمسيح ومولده في سورة آل عمران وفي سورة مريم، واختصه الله بمعجزات لم يؤتها أحدًا من رسله: فاختصه بإحياء الموتى، واختصه بإبراء الأكمه والأبرص، واختصه بأن يجعل من الطين كهيئة الطير، ثم ينفخ فيها فيكون طيرًا، كل ذلك بإذن الله.

وأنزل عليه وعلى أصحابه مائدة من السماء كانت لهم عيدًا لأولهم ولآخرهم، واختصه قبل ذلك بتكليم الناس في المهد، وأرسله إلى بني إسرائيل يدعوهم إلى الإيمان بالله وأداء حقه والخروج مما ورطوا أنفسهم فيه من السيئات والآثام، ويخفف عنهم بعض ما امتحنوا به من الأعباء الثقال.

ولكن اليهود كذبوه وآذوه وهمُّوا بصلبه وقتله فلم يصلبوه ولم يقتلوه وإنما شُبِّه لهم ورفعه الله إليه، وطهَّره من الذين كفروا.

وكان مما غضب الله به على اليهود قذفُهم لمريم وقولهم عليها بهتانًا عظيمًا، وزعمهم أنهم قتلوا المسيح عيسى بن مريم رسول الله، وما كان لكلمة الله أن تُقتل، وما كان لروح من

الله أن يُصلب ، وقد ذكر الله ذلك في الآيات الكريمة من سورة النساء :

﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾

(النساء : ١٥٦ - ١٥٩)

وقد شدد الله النكير على النصارى في شيئين خطيرين أحدهما ، تأليههم للمسيح وعبادته وذلك في قوله من سورة المائدة :

﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

(المائدة : ١٧)

وقوله في السورة نفسها :

﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ

إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴾

(المائدة: ٧٢)

وهو في هذه الآية يبرئ المسيح من عبادة النصارى إياه، ويقرر أن المسيح لم يدعُ بني إسرائيل إلا إلى عبادة الله ربه وربهم، وأنه نهاهم عن الشرك.

وهو في آية أخرى من السورة نفسها يقرر هذا، ولكن في صراحة لا تدع إلى الشك سبيلاً، وذلك حيث يقول:

﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ١١٦ مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾

(المائدة: ١١٦، ١١٧).

الأمر الثاني الذي أنكره الله على النصارى أشد الإنكار قولهم: إن الله ثالث ثلاثة، وذلك في الآيات من سورة المائدة:

﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٧٣ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى

ٱللَّهِ وَيَسۡتَغۡفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴾

(المائدة: ٧٣- ٧٥)

ولم يكن بين النبي والنصارى جدال - فيما نعلم - إلا ما كان بينه وبين نصارى نجران حين وفد عليه بعضهم وعسى أن يكون الله -عز وجل- قد أشار إلى هذا الجدال في سورة آل عمران حين قرر أن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له: كن فيكون، يريد -عز وجل- وهو أعلم بما يريد أن ليس في مولد عيسى دون أن يكون له أب شيء من غرابة، فالله قد خلق آدم من تراب ثم قال له: كن فكان، لم يكن له أب ولم تكن له أم فمن خلق إنسانًا لغير أب وأم قادر على أن يخلق إنسانًا ليس له أب.

ثم قال -عز من قائل- يأمر نبيه بمباهلة الذين يجادلونه في ذلك ويصف طريق المباهلة:

﴿فَمَنۡ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمۡ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمۡ ثُمَّ نَبۡتَهِلۡ فَنَجۡعَل لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡقَصَصُ ٱلۡحَقُّۚ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾

(آل عمران: ٦١ - ٦٣)

ثم أمره أن يدعو أهل الكتاب من النصارى واليهود إلى كلمة سواء بين المسلمين وبينهم وهي ألا يعبدوا إلا الله ولا يشركوا به شيئًا، ولا يتخذ بعضهم بعضًا أربابًا من دون الله، وأمره إن أبوا أن يجيبوا إلى هذه الدعوة أن يشهدهم على أنه هو وأصحابه مسلمون قد أخلصوا دينهم لله وحده وذلك حيث يقول:

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾

(آل عمران: ٦٤)

وكأن النصارى حاجوا النبي في إبراهيم كما كان اليهود يحاجونه فيه فقال الله:

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

(آل عمران: ٦٥- ٦٨)

ويقول الرواة: إن النصارى من أهل نجران نكلوا عن المباهلة التي دعاهم إليها النبي عن أمر الله وعادوا إلى بلادهم كما أقبلوا منها دون أن يعطوه الرضا من أنفسهم، ولم تكن

بيـن النبـي وبين النصـارى في جزيـرة العرب حـرب ، وإنما تسـامع المسـلمون العرب ذات يـوم بأن نصـارى العرب في مشارف الشام يتهيئون لغزو المسلمين في المدينة ، يدل على ذلك ما تحدث به عمر - رحمه الله - حين اعتزل النبي نساءه - مـن أن صاحبًا له مـن الأنصار جاءه بليل فطرق عليه الباب ، فلما خرج إليه أنبأه الأنصاري بأن قد حدث شـيء عظيم ، قال عمر : أوجاء الغسـاني ؟ وكانوا قد تسـامعوا بأن غسـان تتهيأ لغزوهم ، قال الأنصاري : لا ، بل حدث أعظم من ذلك ثم مضى عمر في حديثه .

فهذا يدل على أن أهل الشـام من نصارى العرب قد أكبروا مـا بلغهم عن النبي وانتشـار أمره في الجزيرة بالسـلم حينًا وبالحرب حينًا آخر ، فهمُّوا بغزوه كراهية أن ينشأ في جزيرة العـرب مُلـك منظم يصبح خطـرًا على حـدود الإمبراطورية البيزنطيـة ، وهذا في أكبر الظن هو الذي حمل النبي على أن يرسل جيشًا إلى «مؤتة» على حدود الشام والجزيرة العربية ، وهـي الموقعة التي امتُحن فيها المسـلمون ، وقتل فيها ثلاثة من أصحاب اللواء .

وكادت الكارثـة أن تكون أخطر من ذلك لولا براعة خالد بن الوليـد -رحمه الله- حيـن أخذ اللواء وانحاز بالمسـلمين حتى أمنوا ، وعسـى أن يكون هذا أيضًا وما انتهت إليه موقعة «مؤتة» هـو الذي حمل النبي أن يغزو غزوة «تبـوك» التي فصَّل الله ذكر ظروفها في سورة التوبة كما سترى .

(١٧)

وكان أمر النبي مع المنافقين معقدًا أشد التعقيد لأنه اتصل منذ هاجر النبي إلى المدينة إلى أن آثره الله بجواره؛ ولأن النبي والمسلمين لقوا منه شرًّا أي شر وبلاء أي بلاء.

كان أمر المنافقين من جهة أيسر من أمر المشركين واليهود؛ فلم تكن بينهم وبين المسلمين حرب، ولم تسفك بينهم دماء، ولكنه كان من جهة أخرى أشد من أمر المسلمين مع المشركين واليهود عسرًا؛ ذلك لأن المنافقين لم يصنعوا صنيع أولئك ولا صنيع هؤلاء، لم يبادوا النبي وأصحابه بالكفر، وإنما أظهروا الإسلام وأضمروا الكفر، ولم يبادوا النبي وأصحابه بالعداوة الصريحة، وإنما أظهروا المودة وأضمروا البُغضة والعداء، ولم يخطئ الشاعر القديم حين قال:

فإما أن تكون أخي بحق
فأعرف منك غثي من ثميني
وإلا فاتركني واتخذني
عدوًّا أتقيك وتتقيني

ويوشك النفاق أن يكون أبعد من الكفر الصريح والعداء البيِّن أثرًا في إفساد حياة الناس.

وقد كان النبي والمسلمون يعرفون من كفر المشركين واليهود وعدائهم ومن كيدهم لهم ومكرهم بهم ما يضطرهم إلى أن يحتاطوا لدينهم ولأنفسهم من أولئك

وهؤلاء، وكانوا جديرين ألا يعرفوا من بغض المنافقين لهم شيئًا لولا أن خبر السماء كان يأتي النبي حين ينزل القرآن بما في قلوب المنافقين من حقد عليهم وبُغض لهم، وكان النبي مع ذلك قد أمر أن يقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا منه دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله كما روينا آنفًا، وكان المنافقون يقولون: لا إله إلا الله فيعصمون دماءهم وأموالهم من النبي والمسلمين ولا يجعلون لهم على أنفسهم سبيلًا ثم يستخفون بكفرهم وجحودهم.

ولو قد اكتفوا بإخفاء الكفر والجحود بعد أن أظهروا الإسلام ثم لم يزيدوا على ذلك لكان أمرهم هينًا يسيرًا، ولكنهم يضيفون إلى الكفر والجحود استهزاءهم بالنبي والمسلمين حين يخلو بعضهم إلى بعض، وإصرارهم على الكيد للنبي والمسلمين وتوليهم للمشركين واليهود دون النبي والذين اتبعوه وإطلاقهم كلمة السوء في النبي والذين آمنوا معه كلما أتيح لهم إطلاقها، وكان الحسد مصدر هذا كله فيما يظهر.

فلم تكن كلمة العرب في المدينة مؤتلفة قبل هجرة النبي، وإنما كانوا فئتين مختصمتين أشد الاختصام: كانوا قبيلتين عربيتين تنتسبان إلى أصل يمني قحطاني وتشتد المنافسة بينهما حتى تثير الخصومة دائمًا وتثير الحرب أحيانًا.

وقد احتربت القبيلتان - الأوس والخزرج - في آخر العصر الجاهلي حربًا متصلة مضنية، وكانتا جديرتين أن تستأنفا حربهما لولا أن هداهما الله إلى الإسلام بالنبي ﷺ فألغى ما كان بينهما من خصومة، وكف أيدي بعضهم عن بعض، وكان من إحدى القبيلتين - وهي الأوس - رجل قد عظم شأنه وارتفعت مكانته في قومه حتى كادوا يتوجونه ملكًا عليهم، فلما جاء الإسلام وهاجر النبي وأصحابه إلى يثرب سقط أمر هذا الرجل وأصبح كغيره من أهل المدينة رجلًا من الأوس وضاعت آماله وضاعت كذلك آمال أتباعه فيه.

فليس غريبًا أن يضيق هذا الرجل «عبد الله بن أبي بن سلول» والذين اتبعوه بمقدم النبي إلى المدينة وانتشار الإسلام فيها وانصراف المسلمين من الأوس والخزرج عن التفكير في الملك وفيمن يصير الملك إليه إلى التفكير في الإسلام والنبوة وإلى الاستجابة للنبي في كل ما يدعوهم إليه ويأمرهم به والانتهاء عما كان ينهاهم عنه ويخوفهم منه.

وليس غريبًا أن يمتلئ قلب هذا الرجل والذين لاذوا به حقدًا وحسدًا للنبي ومن جاء معه من المهاجرين ومن اتبعه من الأنصار من الأوس والخزرج جميعًا.

وليس غريبًا - حين ظهر الإسلام في المدينة وفشا في أهلها - أن يضطر هؤلاء الناس إلى أن يسلموا فيمن أسلم لم يكونوا يستطيعون مقاومة؛ لأن الإسلام كان قد دخل في كل دار من دور الأوس والخزرج، ولم يكونوا يستطيعون أن

يخرجوا من المدينة ويتركوها للدين الجديد ومن جاء به، تمنعهم من ذلك مصالحهم وأموالهم، وتمنعهم من ذلك كبرياؤهم أيضًا.

ولم يكونوا آخر الأمر يستطيعون أن يظلوا كفارًا وأن يجاهروا بذلك فيجعلوا للنبي وأصحابه سبيلًا على أنفسهم وأموالهم – لم يشرح الله صدورهم للإسلام ولم يجرءوا على أن يُظهروا الكفر فعاشوا مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء كما وصفهم الله في الآية الكريمة من سورة النساء.

شقوا بنفاقهم هذا وآذوا به المسلمين إيذاء متصلًا مختلفًا كانوا خطرًا في أيام السلم يعرف النبي والمسلمون إسلامهم بأطراف ألسنتهم، وكفرهم في أعماق قلوبهم، ثم يرون منهم ويسمعون ما يكرهون في أوقات كثيرة، ولا يستطيعون أن يعرضوا لهم بسوء لأن الله لم يسلطهم عليهم بل عصمهم منهم بكلمة التوحيد التي تنطلق بها ألسنتهم وتغلق من دونها قلوبهم، وكان أحدهم ربما غلب عليه كفره وبغضه فأظهر من القول والعمل ما كان جديرًا أن يحل دمه، ولكن النبي كان يسرع إلى العفو عن هذه الهفوات على خطورتها كالذي كان – حين أعلن عبد الله بن أبي بن سلول في غزوة بني المصطلق – من تلك الكلمة التي ذكرها الله في القرآن حين قال:

﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾

(المنافقون: ٨)

يريد مباداة المسلمين بالحرب إذا عادوا إلى المدينة وما يتبع ذلك من الاستعانة عليهم بأوليائه من الكفار.

وقد بلغت هذه الكلمة النبي ﷺ واستأذنه عمر في قتل هذا الرجل لأنه أحل دمه حين أعلن في صراحة عداوته للمسلمين وإزماعه على أن ينصب لهم الحرب إذا عادوا إلى المدينة، ولكن النبي أبى على «عمر» وكره أن يتحدث الناس بأن محمدًا يقتل أصحابه كما جاء في الحديث الذي رواه الشيخان.

وقد وصف الله المنافقين واشتد عليهم في غير سورة من القرآن فضح أمرهم كله وأظهر دخيلة نفوسهم في الآيات الكريمة من سورة البقرة وذلك حيث يقول:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴾

(البقرة: ٨- ١٠)

ثم يصف عنادهم وما ملأ قلوبهم من الكبرياء والغرور فيقول:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝١١ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ۝١٢ ﴾

(البقرة: ١١، ١٢)

ثم يصف ذلة نفوسهم واضطرارهم إلى المخادعة وإباءهم بأن يعترفوا بهذه المخادعة فيقول:

﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾

(البقرة: ١٤، ١٥)

ثم يشبههم بأصحاب التجارة الذين يبذلون أغلى الأثمان وأنفسها ليشتروا بها أخس المتاع وأشده عليهم وبالاً، ثم يعودون بعد ذلك بالخسران فيقول:

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴾

(البقرة: ١٦).

ثم يصورهم أروع تصوير وأبرعه حين يمثلهم مرة بالذي يبذل الجهد ويجد كل الجد ليستوقد النار فإذا اضطرمت وارتفع لهبها وأضاءت ما حوله وحول أصحابه ذهب الله بما أتيح لهم من نور وتركهم في ظلمات لا يبصرون فيقول:

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾

(البقرة: ١٧، ١٨).

ثم يصور حيرتهم واضطرابهم بين الخوف والأمن وبين اليأس والأمل فيضرب لهم مثلاً قومًا أدركهم صيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق فهم وجلون قد ملأ الخوف قلوبهم وخيل إليهم أنهم يرون الموت فهم يضعون أصابعهم في آذانهم إشفاقًا من الرعد والصواعق وحذرًا من الموت وهم يرون البرق

يضيء ما حولهم فيمشون في ضوئه، فإذا انقطع البرق وعادت الظلمة قاموا في أماكنهم لا يدرون أين يذهبون فيقول:

﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

(البقرة: ١٩، ٢٠)

وذكرهم الله في سورة النساء فصور ترددهم بين الإيمان والكفر فهم يؤمنون ثم يكفرون ثم يرجعون إلى الإيمان ثم يعودون إلى الكفر ثم يزدادون كفرًا، قد ملكت عليهم الحيرة أمرهم فهم لا يعرفون أي طريق يسلكون.

وذكر توليهم للكافرين من دون المؤمنين كيدًا لهؤلاء والتماسًا للعزة عند الكافرين.

وذكر أنهم إذا قاموا للصلاة قاموا كسالى لأن صلاتهم ليست صلاة صدق وإنما صلاة خداع ورياء فهم يراءون الناس ليكفوا أيدي المسلمين عنهم، وهم يخادعون الله والله خادعهم، وهم مذبذبون بين الإيمان والكفر ليسوا مع المؤمنين تأبى عليهم ذلك قلوبهم المدخولة، وليسوا مع الكافرين صراحة يخافون أن يجعلوا للمؤمنين عليهم سبيلا، وهم يحاولون أن ينتفعوا بذبذبتهم هذه، فإذا أتيح النصر للمؤمنين قالوا: ألم نكن معكم لينتفعوا بثمرة الفتح، وإن يكن شيء من النصر للكافرين قالوا: ألم نحطكم ونحمكم

مـن المؤمنين ؟ ! يريـدون أن ينتفعوا من انتصـار الكفار وهم يسـتهزئون بآيـات الله إذا خلـوا إلـى أنفسـهم ، والله يحـذر المؤمنيـن إن سـمعوا بعض هـذا الاسـتهزاء أن يقعدوا معهم حتـى يخوضوا في حديث غيره ؛ حتـى لا يكونوا مثلهم ، ولا يلقـوا مثل ما يلقـى المنافقون من العذاب ؛ لأن الله سـيجمع المنافقين والكافرين في جهنم جميعًا .

والله يأمر نبيه أن يبشر المنافقين بالعذاب الأليم ويعلن أنهم في الدرك الأسفل من النار ، وأنهم لم يجدوا من ينصرهم أو يرد عنهم هذا العذاب ، والله يقول في هذا كله :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّمۡ
يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ سَبِيلَۢا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمۡ عَذَابًا
أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَيَبۡتَغُونَ
عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا ﴿١٣٩﴾ وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أَنۡ إِذَا
سَمِعۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكۡفَرُ بِهَا وَيُسۡتَهۡزَأُ بِهَا فَلَا تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي
حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦٓۚ إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ
جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمۡ فَإِن كَانَ لَكُمۡ فَتۡحٞ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمۡ
نَكُن مَّعَكُمۡ وَإِن كَانَ لِلۡكَٰفِرِينَ نَصِيبٞ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ عَلَيۡكُمۡ وَنَمۡنَعۡكُم
مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ
عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا
قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا
﴿١٤٢﴾ مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن

تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن
دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ
ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا
ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ
مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا
يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا
عَلِيمًا ﴾

(النساء: ١٣٧ - ١٤٧)

فانظر كيف ذكر أمرهم على هذه الصورة من النكر والبشاعة ومن الكفر والغدر، وكيف أنذرهم هذا النذير الشديد بالعذاب الأليم، وبأنهم في الدرك الأسفل من النار لا يجدون لهم نصيرًا، ثم عاد بعد هذا الوصف القوي المؤيس ففتح باب الأمل أمامهم وأعلن أن مَن تاب منهم وأصلح واعتصم بالله وأخلص له دينه فهؤلاء مع المؤمنين، والله يعد المؤمنين أجرًا عظيمًا.

وكذلك القرآن يشدد النكير على المنافقين وعلى الذين يقترفون الآثام ويجترحون الكبائر حتى يشرف بهم على اليأس ثم يفتح لهم بعد ذلك أبواب الأمل واسعة، ويجعل التوبة الخالصة الصادقة النصوح سبيلهم إلى الأمل في النجاة، بل في أكثر من النجاة في الاستمتاع بما أعد الله للمؤمنين الصادقين الناصحين من النعيم.

كان المنافقون إذن خطرًا أيام السلم وكانوا أشد خطورة أيام

الحـــرب، فهم كانوا أضعف إيمانًا بالله والرســول والدين من أن يقاتلوا العدو على بصيرة إذا لقوه، وأن يثبتوا له إذا أغار عليهم فــي المدينة، وهــم كانوا يظهرون هــذا الضعــف ولا يخفونه، وكانوا حين يجد الجد لا يجدون حرجًا ولا حياء في أن يظهروا الجبن وما يستتبع الجبن من انخلاع القلوب واضطراب النفوس وضمور العزائم وفتور الهمم وانهيار الصبر على المقاومة.

وهم كانوا بذلك ينشرون الخوف ويشيعون الذعر بين ذوي قرباهم وجوارهم من المســلمين، وأي شــر فــي أوقات الحرب أعظم خطرًا من انقسام الجيش المحارب أمام العدو وفي أوقات الحصــار خاصة إلى فريقين، فريق يتســقبل العــدو في ثقة بالله وإيمــان بوعده وفريق آخر يظهر الجبــن ويحتال للفرار ما وجد إلى الفرار ســبيلا، ثم يشــكك في عواقب الحرب ويملأ قلوب المدنيين فرقًا وخوفًا.

وكذلــك صنــع المنافقون في غــزوة الأحــزاب؛ خرجوا مع النبــي وأصحابــه لمواجهة العدو، فلمــا رأوا كثرته وما ظهر من قوته وبأســه ورأوا أن المشــركين لا يأتون المدينة من قبل مكة فحسب وإنما يأتونها من مكة ومن نجد، يأتونها من فوقها ومن أســفل منها، انخلعت قلوبهــم وأخذ الرعب منهــم كل مأخذ، وملــك عليهــم الهلع أمرهــم كله حتى منعهم مــن الاحتياط في القول والعمل، فقال بعضهم - كما نقرأ في سورة الأحزاب:

﴿ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾

(الأحزاب: ١٢)

يذيعون الشك ويثبطون الهمم وقال بعضهم:

﴿يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْ﴾

(الأحزاب: ١٣)

يغرون المسلمين بالفرار وترك النبي وحده مع المهاجرين تجاه العدو، ثم لم يكتفوا بما قالوا وإنما أقبل بعضهم على النبي يستأذنونه في الرجوع ويعتلّون بأن بيوتهم عورة مكشوفة للعدو، ويُظهر الله جلية أمرهم فيرد عليهم معاذيرهم بقوله:

﴿وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارٗا﴾

(الأحزاب: ١٣)

ثم يفضح الله ما انطوت عليه قلوبهم من الكيد والغش والاستعداد لإجابة العدو ولما يريد فيقول:

﴿وَلَوۡ دُخِلَتۡ عَلَيۡهِم مِّنۡ أَقۡطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلۡفِتۡنَةَ لَأٓتَوۡهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرٗا﴾

(الأحزاب: ١٤)

وينبئهم الله بأنهم لم يريدوا أن يفروا وحدهم وإنما أغروا غيرهم بالفرار ولم ينتظروا مقدم العدو لإظهار الجبن والفرق والكيد معًا، وذلك حيث يقول من سورة الأحزاب أيضًا:

﴿قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلۡمُعَوِّقِينَ مِنكُمۡ وَٱلۡقَآئِلِينَ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ هَلُمَّ إِلَيۡنَاۖ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلۡبَأۡسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾

(الأحزاب: ١٨)

وما أعرف أن الجبن والمكر معًا وصفًا بمثل ما وصفهم الله في القرآن حيث يقول في المنافقين في سورة الأحزاب:

﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۚ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ ۚ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾

(الأحزاب: ١٩)

فانظر إليهم بُخلاء بالنصر والتأييد على المؤمنين، جبناء يُذهب الخوف إذا جاء نفوسهم وعقولهم وأفئدتهم، فهم ينظرون إلى النبي تدور أعينهم كالذي تأخذه غشية الموت قبل أن يأتيه الموت، ثم انظر إليهم ماكرين بالمؤمنين كائدين لهم، قد ملأت البغضاء قلوبهم فأطلقوا في المسلمين ألسنتهم حدادًا بمقالة السوء في النبي وفي المؤمنين، حين يذهب الخوف ويعود الأمن.

وصور الله في سورة الأحزاب أيضًا إفراط المنافقين في الجبن وإغراقهم في الفرق؛ فقد انصرف الأحزاب عن المدينة ولكن خوف المنافقين يخيل إليهم أنهم ما زالوا محاصرين للمدينة، وهم من أجل ذلك وجلون، ثم ينبئ الله نبيه والمؤمنين بأن الخوف قد ملأ قلوب هؤلاء المنافقين أن جعلهم يشفقون من الأحزاب حتى بعد انصرافهم، يخافون أن يعيدوا الكرة ولو قد فعلوا لود المنافقون لو أنهم تركوا المدينة وعاشوا مع الأعراب في باديتهم، لا يرون ما يكون بين المؤمنين وبين الأحزاب من حرب، ولا يرون عواقب هذه الحرب، وإنما يسألون عن أنباء المؤمنين وهم بعيدون

عنهم في باديتهم تلك، قد أمنوا أن يمسهم من شر الحرب كثير أو قليل.

وقد ظهرت نيات المنافقين كأبشع ما كانت حين هَمَّ النبي بغزوة تبوك، ووصف الله نياتهم هذه وقلوبهم وأعمالهم في روعة أي روعة، وتفصيل أي تفصيل، واشتد عليهم كل الشدة من أجل نياتهم وقلوبهم وأعمالهم في أكثر سورة التوبة.

وكانت غزوة تبوك مصدر محنة عامة للمنافقين جميعًا، ولفريق من المؤمنين أيضًا ذلك أن النبي أخذ يتجهز لها في وقت لم يكن أشد على الناس فيه من ترك المدينة والمضي إلى الحرب وإلى الحرب في مكان بعيد.

كان ذلك في أشد الصيف حين يشتد القيظ على المقيمين فكيف بالمسافرين، وحين تنضج الثمار ويود الناس لو فرغوا لاجتنائها، وكان ذلك في وقت عسرة قَلَّ فيه المال واشتدت فيه الحاجة إليه، فهذه الحرب البعيدة التي لا تعرف عواقبها، والتي لا تحمل إلى قبيلة من قبائل الأعراب قريبًا من المدينة، وإنما تحمل إلى عرب الشام في حدود الجزيرة العربية.

كل هذا كان يحتاج إلى النفقة الكثيرة وكان يكلف المسلمين أن يجاهدوا بأنفسهم وأموالهم وأن ينفقوا على هذه الحرب عن سعة ومن أجل هذا دُعي المسلمون إلى الإنفاق ودعوا إلى الجهاد بأنفسهم، فأما الذين صدقوا ما

عاهـدوا الله عليـه فأجابوا إلى ما دعوا إليـه وأبلى عثمان في الإنفاق على هذه الحرب أحسـن البـلاء، وتجهز المؤمنون الصادقـون للحـرب وأعانوا مـن احتاج منهم إلـى المعونة، وجـاءت جماعة مـن المؤمنين إلى النبـي متطوعين للجهاد ولكنهـم لا يجـدون النفقـة فأقبلـوا يسـألونه أن يحملهـم وأجابهـم النبي بأنه لا يجد ما يحملهم عليه فتولوا وأعينهم تفيـض من الدمع حزنًا ألا يجدوا ما ينفقون كما ذكر الله في سورة التوبة

ومن أجل هذا كله شدد الله على المؤمنين في أن ينفروا مع النبي، ولامهـم فيما أظهر بعضهم من الفتور والتثاقل فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ٱنفِرُواْ

خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

(التوبة: ٣٨- ٤١)

فإذا كان الجهاد قد ثقل على المؤمنين الصادقين الذين أخلصوا دينهم لله، وآثروا رسول الله على أنفسهم فهو على المنافقين أشد ثقلا، والمنافقون لا يجاهدون ابتغاء مرضاة الله؛ لأن قلوبهم لم تؤمن به؛ ولا يجاهدون إيثارًا للنبي على أنفسهم؛ لأنهم لم يحبوا النبي ولم يخلصوا له؛ وإنما يجاهدون -إن جاهدوا- ابتغاء للغنيمة واتقاء لعاقبة القعود؛ ولذلك قال الله فيهم:

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾

(التوبة: ٤٢)

فهم إذن كارهون للخروج يؤثرون الراحة والأمن وإحراز أموالهم وهم يحلفون للنبي والمؤمنين لو استطاعوا لخرجوا معهم، ولكن الله ينبئ نبيه بأنه يعلم أنهم كاذبون وأنهم لو صح إيمانهم لم يستأذنوا، وقد أذن النبي لهم في القعود فعفا الله عنه وسأله في شيء من العتاب:

﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾

(التوبة: ٤٣)

ثــم بيَّن له أن المؤمنين لا يســتأذنون، وإنما ينفرون للجهاد إذا دعــوا إليــه وأن الذين لــم يصح إيمانهم هــم الذين يتكلفون الإذن يتخذونه تعلة لقعودهم عن الجهاد.

ويبيــن الله كذب المنافقين حين زعموا أنهم كانوا يودون لو يخرجون مع النبي وأصحابه ولكنهم لا يستطيعون الخروج فهم لــم يتهيئوا للخــروج ولم يحاولوا أن يعدوا لــه عدة وإنما كانوا مزمعين على القعود حين دعوا، ولم يكن استئذانهم واعتذارهم إلا تكلفًا، ومــع ذلــك فقــد كان الله كارهًا لخروجهــم فثبطهم وحبــب إليهم التخلف؛ لأنــه كان يعلم من أمرهم ما يخفى على المؤمنيــن؛ كان يعلــم أنهم لــو خرجوا مع المؤمنين لأفســدوا عليهــم أمرهم بالغش والكيد والخيانة، ولسـعوا بينهم بالفتنة يحرجــون صــدور بعضهم علــى بعض، ومــن المؤمنين من كان يسمع لهم لمكانهم من قومهم.

وقد عرف الله وعرف النبي والمؤمنون ما كان من أمرهم قبل هذه الغزوة، وكيف كانوا يكيدون للنبي وأصحابه وكيف كانوا يقلبون الأمور ابتغاء للإساءة إليهم والإيقاع بهم حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون.

وفي ذلك يقول الله عز وجل:

﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَـٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ

مِن قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴾

(التوبة : ٤٦ – ٤٨)

ويمضي القرآن في تعديد سيئاتهم وآثامهم حتى ينبئ النبي بأن منهم من يلمزه في الصدقات إذا لم ينله حظ منها ؛ فيقول :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾

(التوبة : ٥٨ ، ٥٩)

ويبين الله بعد ذلك أن ما يجتمع للنبي من الزكاة لا ينبغي أن يُعطى للأغنياء الذين لا يحتاجون إليه ، وإنما يوضع في المواضع التي بُيِّنت في القرآن ، فينفق منه على الفقراء والمساكين والذين يعملون على جمعها وإحصائها ، والذين يريد النبي أن يتألف قلوبهم ، وعلى تحرير الرقيق الذين يسلمون ولا يجدون ما يشترون به حريتهم من سادتهم ، وعلى الذين تقع عليهم المغارم فلا يستطيعون النهوض بها ، وتنفق على الجهاد في سبيل الله ، وعلى الذين تتقطع بهم الطريق من أبناء السبيل ، فأما القارون في المدينة العاملون في أموالهم والمنتفعون بثمراتها فليس لهم من الصدقات حظ .

وقد كان النبي يضع الصدقات في المواضع التي بيَّنها الله ولا

يعطي منها الأغنياء والقادرين على أن يكسبوا ما يغنيهم عن المسألة، فأما المؤمنون الصادقون فيرضون عن ذلك ويرون أنه الحق، ويستعفون عما يعلمون أن غيرهم أشد حاجة إليه، وأما المنافقون الذين في قلوبهم مرض فكانوا يرون أن ما يجتمع للنبي من الصدقات مال وأن لهم فيه نصيبًا، وكانوا من أجل ذلك يلمزون النبي في هذه الصدقات، وكانوا كذلك يلمزون المتطوعين فيها من الأغنياء، يقولون: إن صدقتهم رياء، ومن الفقراء، يقولون إن الله غني عما تصدقوا به.

وفضح الله في القرآن هذا كله من أمرهم، وفضح من أمرهم شيئًا آخر وهو أن منهم من كانوا يؤذون النبي ويقولون هو أذن أي يسمع لما ينقل إليه، ورد الله عليهم ذلك بأن النبي أُذُن خير لهم، ثم أنذرهم بأن الذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم.

فقال:

﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

(التوبة: ٦١)

وبعد أن أحصى الله من سوء أعمالهم وفضح من ذات نفوسهم ما تستطيع أن تقرأه فيما بعد هذه الآية من سورة التوبة أظهر من غضبه عليهم شيئًا عظيمًا فقال:

﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن

﴿ يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾

(التوبة : ٨٠)

ويقول المحدثون – وفيهم الشيخان – إن عبد الله بن أبي بن سلول لما مات جاء ابنه إلى النبي ﷺ فأنبأه بموته وسأله الصلاة عليه. فأجابه النبي إلى ما سأل. وكان عمر حاضرًا فراجع النبي في ذلك وذكر هذه الآية، فقال النبي: إن ربي خيَّرني واختار الصلاة عليه، فأنزل الله بعد ذلك نهيه عن الصلاة على المنافقين والقيام على قبورهم فقال:

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾

(التوبة : ٨٤)

ثم نهى الله نبيه عن أن يقبل منهم عذرًا بعد عودته إلى المدينة، وبعد أن بيَّن الله له من أمرهم ما بيَّن:

﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

(التوبة : ٩٤)

ونهى الله نبيه كذلك عن إخراجهم معه وإشراكهم في قتال العدو؛ فقال:

﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن

تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّاۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴾

(التوبة: ٨٣)

وعلى ما في سورة البقرة والنساء والتوبة من وصف المنافقين وتشديد النكير عليهم والوعيد بالتغليظ عليهم في العذاب، وصفهم الله في سورة أخرى سميت باسمهم فعرَّفهم أصدق تعريف.

وصف هيئتهم حين يسكتون وحين يتكلمون، وذكر من أقوالهم وأعمالهم ما يبين في وضوح أنهم عادوا إلى جاهليتهم الأولى، ولم ينتفعوا بالإسلام الذي قبلوه ثم كفروا به؛ فقال:

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾

(المنافقون: ١)

يريد -عز وجل- أنهم كذبوا على النبي فيما زعموا له من إيمانهم برسالته لأنهم لا يؤمنون بها فيما بينهم وبين أنفسهم، وإنما يضمرون الكفر ويستخفون به، ويتخذون أيمانهم دريئة يتقون بها غضب النبي والمؤمنين عليهم وبطشهم بهم، ويسترون بها كيدهم للمسلمين وصدهم عن سبيل الله كما يقول الله عز وجل:

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾

(المنافقون: ٢، ٣)

ثــم وصــف هيئتهم حين يُــرَون لأول وهلة وحيــن يتكلمون بعــد ذلك أبــرع وصف، فمنظرهــم معجــب ومخبرهم مكذب لمنظرهم؛ ومن أجل ذلك قال الله:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ﴾

(المنافقون: ٤)

أي لأنهم حين يتكلمون لا يصدر كلامهم عن قلوبهم، وإنما هو شــيء تنطق به ألســنتهم نطقًا آليًا لا يصور ذات نفوســهم، وهم إلــى ذلك جبناء يرهبون كل شــيء ويحســبون كل صيحة عليهــم، وهم إلى هذا كله خطرون بما يكيدون ويمكرون حين يخلون إلى أنفســهم وإلى شــياطينهم، ومن أجــل ذلك يأمر الله نبيه أن يحذرهم.

ثم هم بعد ذلك مستكبرون؛ إذا دعوا إلى التوبة وإلى رسول الله ليستغفر لهم لوَّوا رءوسهم واستجابوا لكبرياء نفوسهم كما يقول الله:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾

(المنافقون: ٥)

وهم ينهون من يســمع لهم عن أن يعينوا النبي على نفقة مَن يحتاج إلى النفقة من أصحابه، لعلهم يستيئســون منه فينفضوا عنــه، ويأمر الله نبيه أن يقول: إن لله خزائن الســماوات والأرض وهــو جديــر أن يغني نبيه وأصحابه عــن معونتهم: وذلك حيث

يقول الله:

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ﴾

(المنافقون: ٧)

وكذلك كانت حياة النبي ﷺ في المدينة جهادًا كلها، فهو يجاهد المشركين من قريش والمشركين من العرب، ويجاهد اليهود في المدينة وخارج المدينة، ثم يجاهد المنافقين الذين يظهرون أنهم له أولياء وليسوا من ولايته في شيء، وإنما هم أولياء أعدائه من المشركين واليهود، وهو يجاهد المنافقين بالصبر على ما يقترفون في ذاته وفي ذات المؤمنين وفي ذات الله -عز وجل- من السيئات والآثام، وبالاحتياط لكيدهم ومكرهم وإغرائهم به وتأليبهم عليه.

وهذا الجهاد المتصل المختلف كان جديرًا أن يستغرق حياة النبي كلها، وأن يشغله عن كل شيء غيره. ولكنك سترى مما يأتي في هذا الحديث أنه لم يستغرق من حياة النبي إلا بعضها بل أقلها، وأنه أنفق سائرها ناشرًا للدين معلمًا للمؤمنين والمسلمين مبينًا لهم حقائق دينهم ومرشدًا لهم إلى ما يجب عليهم وما لا ينبغي لهم في سيرتهم من خطير الأمر ويسيره.

ولا بد بعد هذا الحديث الطويل -الموجز على ذلك- عن المنافقين؛ من أن نعود مرة أخرى إلى جهاد النبي للمشركين.

(١٨)

ذلـك أن الهدنــة التــي عُقــدت بيــن النبي وقريــش يوم الحديبيــة لم تُرحِ النبــي والمؤمنين من الجهــاد، ولم تتح لهم ســلمًا كاملةً، قد كف الله أيــدي قريش عن المؤمنين، وكف أيــدي المؤمنين عــن قريش بهذه الهدنــة إلى حين، ولكــن مكر قريش مــا زال كما هو ينبث فــي قبائل العرب مغريًــا ومحرضًا. ونحن لــم نذكر لك من الجهاد بين النبي وبيــن مشــركي العرب من غير قريش شــيئًا، وإنما أشــرنا إليه إشــارة لا تصوره ولا تحققه؛ لأننا لا نكتب الســيرة في هــذا الحديث، وإنما نصور في إيجاز شــديد ما ليس بد من تصويــره لنعرض عليك مرآة صادقة للعصــر والبيئة اللَّذَيْن عاش فيهما النبي وأصحابه، ولنشأة الإِسلام وانتشاره قليلا قليلا حتى شــمل جزيرة العرب كلها قبل أن يختار الله نبيه الكريم لجواره.

والواقــع أن الجهــاد بين النبــي وبين المشــركين من العرب كان متصلا وكان شــاقًّا؛ كان النبي يريد أن ينشــر الإِســلام من جهة، وكان أعداؤه المشــركون يحاولون أن يمنعوه من ذلك ما استطاعوا إلى منعه سبيلا، يغيرون على المدينة حينًا ويتهيئون للإِغارة عليها حينًا آخر.

ولــم يكن بد للنبي وأصحابه مــن أن يردوهم إن أغاروا، ومن أن يســبقوهم ليكفوهــم إن همُّوا بالإِغــارة، وكان في أهل البادية من العــرب مكرٌ وكان فيهم غدرٌ أيضًا، وكانوا

يؤثـرون المال على كل شـيء، وكان كيد قريش وإغراؤها يصبـان عليهم في كل وقت يغرونهـم بالمال أحيانًا وبغير المـال أحيانًا أخـرى؛ فكان منهم من يأتـي النبي يزعم أنه قـد أسـلم وأن قومه من ورائه قد أسـلموا وأنهـم في حاجة إلـى مَـن يقرئهم القـرآن ويفقههم في الدين، فـكان النبي يرسـل إليهـم النفر مـن أصحابه فلا يـكادون يبعدون بهم عـن المدينة حتـى يُظهروا مـا أضمروا من الغـدر ويوقعوا بمن أرسـل النبي معهـم من المسـلمين؛ فيقتلون بعضَهم ويأسـرون بعضهم؛ يتقربون بأسـره إلى قريـش ويقدمونه إليهـا ويأخذون جائزتهـم على هذا الغدر كالـذي كان من «لحيـان» يـوم «الرجيع» حين أرسـل النبي معهـم مفقهين لهم في الديـن، فلما بعدوا بهم عن المدينة أظهروا الغدر، فقاتلهم المسلمون حتى قُتل منهم مَن قُتل، وأُسر منهم من حملوه إلى قريش فقتلته.

ولـم يحدث هذا مرة واحدة، وإنما حدث غير مرة، ذلك إلـى ما كان يحـدث من تجمـع وتهيؤ لغزو النبـي، فيعلم النبي عَمَلَهم ويضطر إلى أن يسـبقهم إلى الغزو ليوقع بهم مـرة وليشـعرهم بقوته وتأهبه ويقذف فـي قلوبهم الرعب مرة أخرى.

فكانت حياة النبي والمسـلمين جهـادًا كلها، واضطر النبي أحيانًا إلى أن يرسـل السرايا وأحيانًا أخرى إلى أن يخرج بنفسه لهـذه الأغـراض التي بيَّنّاهـا، أضف إلى ذلك أن قريشًـا لم تقم

على هدنتها تلك إلا قليلا، ثم نكثت عهدها وأغارت على بعض حلفـاء النبي من خزاعة، فلـم يكن بد من أن تعود الحرب بينها وبين النبي والمؤمنين جذعة.

وأحسـت قريـش أن النبي قـد غضب لحلفائـه واعتبر الهدنـة بينـه وبينهـا منقوضـة، فأرسـلت أبا سـفيان إلى المدينـة ليعلم علـم النبي وأصحابه من جهة، وليشـد أمر الهدنـة ويقويه من جهة أخرى. ولكن أبا سـفيان جاء إلى المدينة وعاد إلى مكة فارغ اليدين لم يبلغ مما أراد شـيئًا، وجعـل النبـي يتهيأ لعقاب قريـش حتى كان العـام الثامن للهجرة، فخرج النبي إلى مكة في جيش لم يجتمع له مثله من قبـل قوةً وكثرة عدد، حتـى إذا كان غير بعيد من مكة خرج أبو سفيان في نفر من قريش يتحسسون الأخبار، فلما رأوا نيـران الجيش راعهم مـا رأوا، وعرفوا أن قد حاق بهم مكرهم السـيئ، وأُخِذ أبو سفيان إلى النبي، أخذه العباس بـن عبد المطلـب الذي جعل ينصح له فـي الطريق ويحثه على الإسـلام حتى أدخله على النبي ﷺ فشهد بين يديه: لا إله إلا الله، وأظهر التردد في الشـهادة بأن محمدًا رسول الله، ولكنـه اضطر آخر الأمر إلى أن يعلن الشـهادة، فأمنه النبي على نفسه وعلى كل مَن دخل داره من قريش، وعلى كل من دخل المسـجد الحرام منها، وعلى كل من لزم داره وأغلق بابه منها أيضًا.

وعـاد أبو سـفيان إلـى قريش بهـذا الأمان، فلم يسـعها إلا

الإذعــان فقــوم دخلــوا دار أبي ســفيان وقوم دخلوا المســجد الحرام، وآخرون لزموا دورهــم وغلقوا أبوابهم. وأصبح النبي فدخــل مكة بعد أن أمر قواده ألا يقاتلوا أحدًا إلا مَن عرض لهم بســوء، ولم يخالف عن هذا الأمر من القواد إلا خالد بن الوليد - رحمه الله - كان فيه شــيء من عنف، فأعمل الســيف فيمن لقيــه ورفع ذلــك إلى النبي فتبــرأ مما صنع خالد، وأرســل من أصحابه مَن كفَّه عن القتل والقتال، ودخل النبي والمســلمون مكــة، فأقبل النبي على المســجد الحرام فحطَّــم ما كان حول الكعبــة من الأوثــان وهو يقول: «جــاء الحق وزهــق الباطل إن الباطل كان زهوقًا».

ثم أمر «بلال» فأذن فوق ظهر الكعبة إعلانًا للإســلام وإعلاء لكلمــة الله، واجتمعــت قريــش - فيمــا يقــول الــرواة - للنبي ﷺ، فقال لهم فيما قال: «يا معشــر قريش ما تظنون أني فاعل بكــم؟».. قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم، قال النبي ﷺ: «فإني أقول لكم ما قال يوسف لإخوته:

﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾

(يوسف: ٩٢)

اذهبوا فأنتم الطلقاء».

وكذلك استقر الإســلام في مكة بعد أن خــرج منها، هاجر به النبي والمســلمون اتقاء للفتنة وابتغاء للأمن والعافية ونشــر الدين لا خائفين ولا وجلين.

عاد الإسلام إلى مكة واستقر فيها ظافرًا منصورًا موفورًا، ودخلت قريش فيه طوعًا أو كرهًا، وصدق وعد الله في قوله الكريم:

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾

(التوبة: ٣٣)

ولكن النبي ومَن هاجر معه من أصحابه لم يقيموا بمكة، ولم يستقروا فيها، وإنما آثروا مهاجرهم في المدينة، وكرهوا أشد الكره أن يستبدلوا به مكانًا غيره مهما يكن، وأن يخرجوا من المدينة إلا وفي نيتهم أن يعودوا إليها إن أذن الله لهم بالعودة إليها.

ويقول الرواة: إن سعد بن أبي وقاص - رحمه الله - مرض بمكة وثقل المرض عليه حتى همَّ بالوصية واستشار النبي في ذلك فدعا له النبي وكان يشفق من أن يدركه الموت بعيدًا عن الأرض التي هاجر إليها، وصارت هذه سنة بين المهاجرين من أصحاب النبي حتى كانوا يكرهون إن ألموا بمكة أن يصنعوا فيها صنيع المقيمين، كانوا يرون أنفسهم على سفر - وإن نزلوا بين عشائرهم من أهل مكة - فيقصرون الصلاة، ومن أجل ذلك راجعوا عثمان -رحمه الله- حين أتم الصلاة بمنى؛ لأنهم كانوا يرونه مسافرًا يجب عليه قصر الصلاة وإن كان أهله بمكة؛ لأن دار إقامته في المدينة لا في غيرها.

ولـم يعد النبي بعد الفتح إلى المدينة وإنما بلغه أن «هوازن» تجمـع له جموعهـا، فخرج للقائهم في الجيـش الذي أقبل معه إلـى مكـة وفيمن انضم إليه مـن طلقاء قريش أو مسـلمة الفتح كمـا كان يُقـال إذ ذاك، والتقى الجمعان يـوم «حنين» فامتحن المسـلمون امتحانًا شـديدًا، وجالوا جولة حتى قام النبي وحده فـي الموقعة علـى ظهر بغلتـه، والعباس آخذ بزمامهـا، والنبي يدعو أصحاب سـورة البقرة ويقول: «أنـا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب».

ثم ثاب إليه الأنصار وثاب إليه بعدهم سـائر المسلمين، وأنزل الله نصره على نبيه وعلى المؤمنين فانهزم المشركون هزيمة منكرة قتل منهم من قتل وأسر منهم من أسر وسبيت النسـاء والذراري، وعـاد النبي وأصحابـه موفورين، ولكن «هـوازن» عـادوا إليه بعـد هزيمتهم يسـألونه أن يمن على سبيهم، ويذكرونه بأنهم أخواله؛ لأنه أرضع فيهم إذ كانت حليمة منهم.

وقد أطلق النبي من السبي مَن كان في أيدي رهطه الأدنين من بني عبد المطلب، ووعدهم إذا صلى بالناس من غد أن يسـألوه في ذلك ويذكروا خئولتهم له، فلما فعلوا شـفع النبي لهم عند المسلمين، فلم يبق أحد منهم إلا أطلق مَن كان عنده من السبي ورده على قومه.

وكان آخر حرب للنبي مع المشركين حين حاصر الطائف بجيشـه ذاك، وقد أطال الحصار، ولكن الله لم يسلطه على

هــذه المدينة، فرفع الحصار وعاد بجيشــه إلى دار هجرته، ثم لم تلبث ثقيف أن أرســلوا إليــه وفدهم يطلبون الصلح، فقبلــه منهم على أن يدخلوا في الإِســلام ويرفضوا الشــرك ويمحقوا آثاره.

ومنــذ ذلك الوقت جعل العرب يتســامعون في قلب الجزيرة وأطرافها بالإِسلام، وما أتيح للنبي وأصحابه من نصر، فجعلت وفودهــم تفد عليه يعرضون إســلامهم وإســلام قومهــم، فيقبل النبي منهم ويعلمهم دينهم، وربما أرسل معهم مَن يُعلِّم قومهم شرائع الإِسلام.

وكذلك عظم أمر الإِســلام وانتشــر فــي الجزيرة العربية كلهــا، ونظرة ســريعة إلى ما بدأ الإِســلام عليه في مكة وما انتهى إليه في المدينة في هذا الوقت القصير تبين فيٍ جلاء أن قــوة عليــا أرادت لهذا الدين أن يقوى وينتشــر أولا، وأن يجمع كلمة العرب ويوحــد أهواءهم، ويجعلهم أمة واحدة مؤتلفــة تتعاون علــى البر والتقــوى ولا تتعــاون على الإِثم والعــدوان بعــد الذي كان بينهــم من اختــلاف أي اختلاف واختصام أي اختصام، ومن حرب بالألسنة دائمًا وبالسيف والسنان في أكثر الأحيان.

وأرادت كذلــك أن تغيــر مــن أخلاقهــم وعاداتهم وســننهم الموروثة فتحل الوفاء في نفوســهم محل الغــدر، والأمانة محل الخيانــة، والبر مــكان الجحود، والرقة والرحمــة مكان الغلظة والقسوة.

وأرادت أن تبين لهم الخير فيسلكوا إليه سبلهم وتدلهم على الشر فيتنكبوا طرقه، وأن تبين كبائر الآثام فيجتنبوها ومحاسن الأعمال فيجدُّوا فيها.

كل ذلك وأكثر جدًا من كل ذلك أتيح للإسلام في أقل من ربع قرن، في ثلاثة وعشرين عامًا، أنفق النبي منها ثلاثة عشر عامًا بمكة لا يكاد ينشر الإسلام إلا قليلًا، وعشرة أعوام في المدينة أتم الله فيها على يده جل هذه المعجزة الكبرى، فخلق العرب خلقًا جديدًا، وجعل منها أمة بأدق معاني هذه الكلمة وأوسعها، أنشأها إنشاء جديدًا، وهيأها للنهوض بالمهمة الكبرى التي تتجاوز حدود جزيرتها، وتحول وجهة التاريخ وتغير وجه الأرض في أقل من نصف قرن.

وكان النبي على هذا كله لا يدعي لنفسه معجزة إلا القرآن، وقد صدق النبي وبر في ذلك فقد كان القرآن معجزة أي معجزة، كان معجزًا بألفاظه ومعانيه ونَظمه، لم يستطع أحد من العرب أن يحاكيه أيسر المحاكاة، وكان معجزًا بآثاره التي ظهرت في حياة النبي والتي أشرنا إليها آنفًا، وبآثاره التي ظهرت بعد وفاة النبي، والتي لا يزال كثير منها باقيًا إلى الآن وإلى آخر الدهر، وصدق الله حين قال في سورة النور:

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى

ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾

(النور: ٥٥)

وصدق الله كذلك حين قال في سورة الحشر:

﴿ لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

(الحشر: ٢١)

فقد خشعت قلوب العرب للقرآن آخر الأمر، نفذ إلى قلوبهم واستأثر بضمائرهم وفتح لهم آفاقًا كانت مغلقة أمامهم قبل أن يُتلى عليهم وحررهم بعد الرق، رق النفوس للشهوات، وطهَّرهم بعد الرجس، رجس الخطايا والآثام، ووحَّدهم بعد الفرقة، وأعزهم بعد الذلة، وملأ قلوبهم نورًا فانبثوا في الأرض ينشرون نور الله ما وجدوا إلى نشره سبيلًا.

وزاد إقبال العرب على الإسلام وإذعانهم له بعد الحجة التي حجها أبو بكر - رحمه الله - بالناس عن أمر النبي سنة تسع، ففي هذه الحجة أرسل النبي عليًا ليلحق بأبي بكر ويتلو على الناس قرآنًا أُنزل فكان فصلًا بين عهدين: عهد كان الإسلام يقوى فيه شيئًا فشيئًا، وكان للشرك مع ذلك بقاء في بعض قبائل العرب، وعهد آخر خلصت فيه الجزيرة كلها للإسلام.

وهذا القرآن الذي فرق الله به بين هذين العهدين هو الآيات

الكريمة الأولى من سورة التوبة، فأعلن فيها براءة الله ورسوله من المشركين، وحرَّم فيها أن يقرب المشركون البيت أو يلموا به أو يطوف به عريان.

وأمر فيها نبيه والمؤمنين معه أن يلغوا ما كان بينهم وبين المشركين من العرب من عهود الهدنة، وألا يتموا من هذه العهود إلا ما كان بينهم وبين قوم لم يظهر منهم غدر ولا نقض للعهد، فهؤلاء أَمَر الله أن يتم المؤمنون لهم عهدهم إلى مدته ثم لا يجددوا لهم عهدًا آخر، وأجل الناس أربعة أشهر يأمنون أثناءها، فإذا انقضت فعلى المسلمين أن يقتلوهم حيثما وجدوهم، وأن يقعدوا لهم كل مرصد؛ لأنهم أهل غدر لا يؤمن لهم...

ومعنى ذلك أن الله حرم الشرك في جزيرة العرب وأمر النبي أن يقاتل المشركين من أهل الجزيرة حتى يثوبوا إلى الحق ويدخلوا فيما دخل فيه الناس، لم يأمر الله بذلك إلا لأنه علم أن هؤلاء المشركين إن أتيح لهم أن يظهروا على المسلمين بما في قلوبهم من الغدر والكيد وما يسلط عليهم من الإغراء لم يرعوا فيهم إلًا ولا ذمةً ولم يحفظوا عهدًا ولا وفاءً.

وهذه الآيات الكريمة هي قول الله عز وجل في أول سورة التوبة:

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى

ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢ وَأَذَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ
ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥۚ فَإِن تُبۡتُمۡ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ
فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٣
إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ
عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ٤
فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ
وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ
وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥ وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ
ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ ذَٰلِكَ
بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ ٦ كَيۡفَ يَكُونُ لِلۡمُشۡرِكِينَ عَهۡدٌ عِندَ
ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ فَمَا
ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ٧ كَيۡفَ
وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ
وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ وَأَكۡثَرُهُمۡ فَٰسِقُونَ ٨ ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا
قَلِيلٗا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩ لَا يَرۡقُبُونَ
فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ ١٠ فَإِن تَابُواْ
وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ وَنُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ
لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ١١ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي
دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ ۙ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ
١٢ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ

ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخْشَوْنَهُمْۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن
تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ
وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾
وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ
﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ
يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةًۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ
بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ
شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِي ٱلنَّارِ
هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ
ٱلْأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ
أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾

(التوبة: ١ - ١٨)

ثم يشـدد الله عز وجل في رد المشركين عن المسجد الحرام بعد ذلك العام الذي حج فيه أبو بكر بالناس فيقول في هذه الآية الكريمة من السورة نفسها:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَاۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.

(التوبة: ٢٨)

وكذلـك حج النبـي ﷺ حجة الـوداع فلم يلق في الموسـم مشركًا، ولم ير عند البيت عريانًا، وألقى في هذه الحجة خطبته

المشـــهورة التي توشـــك أن تكون وصيته إلى المسلمين، والتي حـــرص فيها بعـــد كل أمر أو نهي على أن يـــردد جملته الخالدة: «ألا هل بلغت؟، قالوا نعم، قال: اللهم فاشهد».

وقد أتم النبي رســـالته كأكمل ما تتم الرسالات، وأدى أمانته كأحسن ما تؤدى الأمانات.

وصـــدق الله حيـــن أنزل على نبيه في الآية الكريمة من ســـورة المائدة أثناء حجة الوداع:

﴿ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ (المائدة: ٣).

وصدق الله كذلك حين أنزل عليه بمنى في حجة الوداع هذه الســـورة الكريمة يشـــعره فيها بأن رســـالته قد تمت وأن مهمته فـــي الدنيا قد بلغت غايتها، ويهيئه لمـــا أعد له عنده من النعيم المقيم في أرفع الدرجات:

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾

(النصر: ١- ٣).

وقـــد تحدث النبي ذات يوم على المنبر إلى أصحابه، فقال - فيما روى الشـــيخان - : «إن عبدًا قد خيـــره الله بين زهرة الدنيا ومـــا عنده، فاختار ما عنـــد الله» فلم يفهم عنه من أصحابه إلا أبو بكر، فقـــال: بل نفديك بآبائنا وأمهاتنـــا، فعجب الناس لمقالة

أبـي بكر ولـم يحققـوا مغزاها إلا حين اختار الله رسـوله للرفيق الأعلى.

ولـم يلبث النبي بعـد حديثه ذاك أن أحـس الوجع، فكان يُمـرض في بيت عائشـة -رحمهـا الله- وكان يخرج للصلاة كلمـا وجد خفة فلما ثقل عليه المرض أمر أبا بكر أن يصلي بالناس.

وتوفـي ﷺ فـي نفس الشـهر الذي وصـل فيه إلـى المدينة مهاجرًا في ربيع الأول لعشر سنين مضين منذ هجرته.

وقد ارتاب المسلمون حين نبئوا بوفاة النبي لم يصدقوا ذلك، بل شـكوا فيـه وماج بعضهم في بعـض، وكان عمر أشـدهم شـكًّا حتى أُنـذِر - فيما يقول الـرواة - مَن قال إن النبي قد مات، ولكـن أبا بكر تلا عليهم الآية الكريمة من سورة آل عمران:

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ (آل عمران: ١٤٤)

هنالك ثاب إلى المسلمين صوابهم فرجعوا إلى الحق وآمنوا لما لم يكن بد من أن يؤمنوا له، وذكروا قول الله لنبيه:

﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ (الزمر: ٣٠).

(١٩)

ولــم يكد النبــي ﷺ يفــارق أصحابه حتى ظهــر بينهم خلاف أوشــك أن يكون عظيم الخطر على وحدتهم، ذلك أنهــم أحســوا الحاجة إلى مــن يخلف النبي في سياســتهم وتدبير أمورهم.

فأمــا الأنصار فظنــوا أن الأمــر ينبغي أن يكــون فيهم وأن شــئون الحكم يجب أن تصيــر إليهم لأنهم أصحاب المدينــة وليس المهاجــرون إلا ضيفًا عليهم طرءوا على المدينة منذ عشــر ســنين، وهم قــد آووا النبــي والذين هاجــروا معه من قريش والذين هاجروا إليه بعد ذلك من قريش ومن سائر العرب. وهم قد خاضوا في سبيل النبي وفي ســبيل الدين مــا خاضوا من الحــروب واحتملوا ما احتملوا من مشــقة الجهاد؛ فهم أولــى الناس بأن يكون منهــم خليفة النبــي، وقد اجتمعــوا بالفعــل وأزمعوا أن يبايعوا بالخلافة رجلا ورشــحوا «ســعد بن عبادة» زعيم الخزرج لهذا المنصب.

ولكــن الأمر انتهــى إلى زعماء المهاجرين، فأســرع أبو بكر وعمــر وأبــو عبيدة بــن الجــراح إلى الأنصــار ليعلمــوا علمهم وليصرفوهم عمــا أزمعوا. فكانت محاورة وشــيء من جدال ثم عرضــوا أن يكون منهم أمير ومن المهاجرين أمير فأبى ذلك أبو

بكر وقال لهم: نحن الأمراء وأنتم الوزراء، واحتج عليهم بأن النبي من قريش فيجب أن يلي أمره بعده أولو قرابته، وروى لهم عن النبي أنه قال: «الأئمة من قريش». فثاب الأنصار إلى سماحة نفوسهم، وكرهوا أن يأخذوا الخلافة أجرًا على ما أبلوا في ذات الله ورسوله من البلاء.

وأذعنوا آخر الأمر لما حدثهم به أبو بكر عن النبي من أن الأئمة من قريش، ثم اقترح عليهم عمر أن يبايعوا أبا بكر وأسرع هو إلى بيعته، فتبعه الأنصار ...

وبايع سائر المسلمين في المدينة أبا بكر واستقام له الأمر...

ويُقال إن بني هاشم كانوا يرون لأنفسهم الحق في خلافة النبي ﷺ فهم رهطه الأدنون وهم أقرب إليه من تيم قوم أبي بكر ومن عدي قوم عمر ومن أمية قوم عثمان. ولكنهم رأوا إجماع الناس على أبي بكر كما رأوا إجماع الناس على عمر من بعده وعلى عثمان من بعد عمر فكرهوا أن يثيروا الفتنة أو أن يحدثوا في الإسلام حدثًا وأذعنوا لإجماع المسلمين.

ويُقال كذلك إن النبي قال لبعض أصحابه في مرضه الذي توفي فيه: «ائتوني بصحيفة أكتب لكم ما لا تضلون بعده أبدًا».. فاختلفوا وتنازعوا. يقول بعضهم: إن النبي قد اشتد عليه الوجع وعندنا كتاب الله. ويقول بعضهم الآخر: بل دعوا رسول الله يكتب. فلما أكثروا قال لهم النبي ﷺ: قوموا عني.

قالـوا : فكان ابن عباس يـرى أن الرزية كل الرزية أنهم لم يخلوا بين رسول الله وبين ما أراد.

وأكاد أقطـع بـأن هـذا الحديـث - مهما يكن سـنده - غير صحيح. فما كان للمسلمين أن يخالفوا عن أمر رسول الله. وما كان لرسـول الله نفسـه أن يخلي بينهم وبيـن هذا الخلاف وهو الذي لبث فيهم ثلاثة وعشرين عامًا يتلو عليهم القرآن ويعلمهم شـرائع الدين ويأمرهم وينهاهم وينبئهم بخبر السـماء. وأكبر الظـن أن هذا الحديث وضع بأَخَرَة (١٧) حين تفرق المسـلمون شيعًا وأحزابًا.

(١٧) الأَخَرَة والأُخَرَة: الأخير، يقال نِلتُه بأَخَرَة وأُخَرَة، أي أخيرًا «المجلة».

(٢٠)

ومهما يكن من شـيء فقد تمت بيعة أبي بكر وصحت حتى كان عمـر رضي الله عنه يقـول : إن بيعـة أبـي بكـر كانت فلتـة وقى الله المسلمين شرها .

ولكن أبا بكر واجه خلافًا كاد شره أن يستطير ويصبح خطرًا على الإسلام نفسـه لولا أن الله -عـز وجل- تأذن أنه هـو الذي نزل الذكـر وأنه حافظ له . فقال في سـورة الحجر :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾

(الحجر : ٩)

ولولا أن أبا بكر قد ثبت لهذا الخلاف أروع الثبات وصمم على حسمه تصميمًا أذعن له المهاجرون والأنصار ومسلمة الفتـح من قريش . . فقد انتقض العرب على أبي بكر انتقاضًا مختلفًا . . قال كثير منهم : نقيم الصلاة ولا نؤتي الزكاة ، رأوا أن الـزكاة نوع من الإتاوة ولم يتعودوه ، بل كانوا يأنفون منه أشـد الأنفة ، ويرون أنه ضرب من الذلة والخضوع . ولم يقبل منهـم أبـو بكر ذلـك بل صمم علـى أن يؤدي النـاس إليه ما كانـوا يؤدونه لرسـول الله ﷺ وقال : إن هـؤلاء يفرقون بين الصلاة والزكاة مع أن الله لم يفرق بينهما بل ذكرهما معًا في القـرآن مرات كثيـرة ، فهم يؤمنون ببعـض القرآن ويكفرون ببعضه . . . .

كأن أبا بكر أراد أن قول لا إله إلا الله بطرف اللسان ليس إيمانًا ولا إسلامًا، وإنما يجب أن تقال باللسان ترجمة عما في القلب من الإيمان بالله والتصديق للنبي والائتمار بما أمر الله ورسوله به، والانتهاء عما نهى الله ورسوله عنه، وقد أمر الله ورسوله بإيتاء الزكاة؛ فالنكول عن أدائها كفر والالتواء بها جحود.. وليس للكفار الجاحدين إلا القتال.

وقوم آخرون من العرب ظهر فيهم كذابون زعموا لأنفسهم النبوة، وتلوا على قومهم كلامًا زعموا أنه وحي من الله.

ظهر الأسود العنسي في اليمن، وظهر مسيلمة في بني حنيفة باليمامة، وظهر طلحة في بني أسد، وظهرت سجاح في أحياء من بني تميم، وتبعهم خلق كثير من العرب الذين لم يدخل الإيمان قلوبهم، وصدق الله حين قال في الآية الكريمة من سورة الحجرات:

﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

(الحجرات: ١٤)

ولم يشك أحد من المهاجرين والأنصار والذين استقاموا على الإسلام في أن قتال هؤلاء واجب لا منصرف عنه، والمهم

أن أبـا بكر نظر فإذا جزيرة العرب قـد انتقضت عليه إلا أقلها ، فلـم ير بدًا من أن يجاهـد المرتدين كمـا كان النبي ﷺ يقاتل المشركين من قبل .

وقد جد أبو بكر في الحرب واستجاب له المسلمون استجابة صادقـة فقاتلوا المرتدين عن إيمانهـم وعلى بصائرهم صادقين مستبسلين لا يبخلون بأموالهم ولا بأنفسهم حتى قتل كثير من خيارهم ولا سـيما في حرب مسـيلمة ، وأنـزل الله نصره عليهم وعادت الجزيرة خالصة للإسـلام واستطاع أبو بكر أن يجند من أصحابه ومن الذين عادوا إلى الإسـلام بعـد الردة تلك الجيوش التي رمى ببعضها العراق ورمى ببعضها الشام .

الكتاب الثاني

(١)

يقول الله -عز وجل- في أول سورة الكهف :

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ﴾

(الكهف : ١)

ويقول في سورة المدثر :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ
فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴾ **(المدثر : ١-٧)**

ثم يقول في سورة الأحزاب :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَـذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى
ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا
﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ
بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ **(الأحزاب : ٤٥- ٤٨)**

ويقول في سورة الجمعة :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ
وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ
مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ
وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ **(الجمعة : ٢-٤)**

فمن هذه الآيات وآيات أخرى كثيرة في القرآن الكريم نفهم أن الله أرسل رسوله لينذر الذين لا يؤمنون به بما أعد لهم من بأس شديد عنده، ويبشر الذين يؤمنون به بما لهم عنده من أجر كريم خالدين فيه أبدًا.

والله يفصل هذا البأس الشديد في القرآن حين يصف البعث وما يكون بعده من حساب عسير للكافرين به، وما يكون بعد هذا الحساب العسير من عذاب شديد متصل لا انقطاع له.

والله يفصل كذلك في القرآن هذا الأجر الكريم الذي أعده للمؤمنين به حين يصف الجنة ونعيمها وخلود المؤمنين في هذا النعيم المقيم.

والنبي حين ينذر ويبشر يعلم أوسع العلم وأعمقه وأدقه ما ينذر به وما يبشر، يعلمه من ربه من طريق الوحي حين ينزل عليه القرآن ليتلوه على الناس، وحين يلهمه من العلم والحكمة ما يتحدث به إلى الناس حديث الواعظ المخوف، وحديث المؤدب المعلم، فهو بشير ونذير ومعلم أيضًا.

وتعليمه نوعان: أحدهما: كلام أوحاه الله إليه وأمره أن يبلغ نصه للناس وأن يتلوه عليهم ليسمعوه أولا ويفقهوه بعد ذلك، وعليه أن يفسر لهم بالقول أو بالعمل، أو بهما جميعًا، ما قد يقصرون عن فهمه من هذا النص.

والثاني: علم ألهمه الله إياه ألقاه في قلبه لينتفع به هو أولًا، وليعلم الناس منه ما ينفعهم في أمور دينهم ودنياهم جميعًا.

وقد أنفق النبي ثلاثة وعشرين عامًا منذ بعثه الله إلى أن اختاره لجواره أنفق هاته السنين مبشرًا ومنذرًا ومعلمًا لم يُقصِّر في ذلك ولم يكفَّ عنه يومًا فكان معلمًا لا كالمعلمين، كان تعليمه متصلا نهاره كله وجزءًا غير قليل من ليله، كان

يعلم الناس حين يلقاهم، ويعلمهم بالأمر والنهي والتبشير والإنذار، وبكل ما كان يقوله لهم، وكان يعلمهم بسيرته فيهم وسيرته في غيرهم، وبكل ما يأتي من الأمر أو يدع فهو لهم قدوة وهو لهم أسوة، وعليهم أن ينظروا إليه، وأن يعملوا مثل ما يعمل، ويجتنبوا مثل ما يجتنب، وأن يسمعوا منه ويطيعوا، وقد أمرهم الله في سورة الحشر أن يأخذوا كل ما يؤتيهم، وأن يدعوا كل ما ينهاهم عنه:

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾

(الحشر: ٧)

كذلك هو حين يبرز للناس وهو حين يروح إلى أهله معلم أيضًا؛ يقول فيحفظ عنه أزواجه، ويعمل فيحفظن عنه أيضًا، ويصنعن من صنيعه كل ما ينبغي لهن.

ولأمر ما أخذ المسلمون كثيرًا من العلم عن أزواجه بعد وفاته ولا سيما عائشة وحفصة وأم سلمة، ثم هو معلم في السفر والحضر جميعًا، لا يأتي شيئًا إلا وفي نفسه أن الناس سيصنعون صنيعه ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا.

ومن أجل ذلك كان يرعى فيهم الرفق بهم والنصح لهم، كان يطيق من العبادة في الصلاة والصوم أكثر مما يطيقون، فكان يستخفي ببعض عبادته حتى لا يراها الناس فيكلفوا أنفسهم فوق ما يطيقون.

ولم يكن له من حياة المعلم هذه بد؛ فالله يقول له:

﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ ﴾ (الحجر : ٩٤)

فلا يسعه إلا أن يذعن لأمر الله، والله ينزل عليه من القرآن ما هو مجمل، ويترك له تفصيله بما يلهمه من العلم فهو يأمر بالصلاة والزكاة مثلا، ولكنه لا يبين كيف تكون الصلاة ولا كيف تكون الزكاة، لا يفعل ذلك في القرآن، وإنما يلهم نبيه من العلم ما يبين به للناس كيف يصلون وكيف يؤدون الزكاة في أموالهم.

والقرآن يذكر الركوع والسجود ولكنه لا يحدد الركوع والسجود في القرآن تحديدًا دقيقًا ؛ فليس بد للنبي من بيان ذلك كله بالعمل والقول جميعًا فهو يقيم الصلاة للمسلمين، ويأمرهم أن يصنعوا صنيعه، وأن يقوموا حين يقوم، ويركعوا ويسجدوا ويجلسوا حين يركع ويسجد ويجلس.

وهو علَّمهم ما يقرءون في صلاتهم وما يقولون في السجود والركوع والجلوس، وقُل مثل ذلك في مجملات القرآن كلها، وهي كثيرة ؛ فكان النبي إذن مفسرًا للقرآن بقوله وعمله، وكان منبئًا للناس بما يلقي الله في قلبه من العلم بما ينبغي لهم، وما يجب عليهم، وما يجب أن ينتهوا عنه.

ومن هنا نتبين أن السنة التي تثبت عن النبي ثبوتًا قاطعًا أو راجحًا هي الأصل الثاني من أصول الدين بعد القرآن الكريم.

فليس بد إذن من أن نقف وقفة عند كل واحد من هذين الأصلين.

(٢)

أما القرآن الكريم فهو المعجزة الكبرى التي آتاها الله رسوله الكريم، آية على صدقه فيما يبلغ عن ربه.

والقول في إعجاز القرآن يكثُر ويطول وتختلف وجوهه وتختلف فنونه أيضًا؛ فالقرآن كلام لم تسمع العرب مثله قبل أن يتلوه النبي؛ فهو في صورته الظاهرة ليس شعرًا لأنه لم يجر في الأوزان والقوافي والخيال على ما جرى عليه الشعر، ثم هو لم يشارك الشعر الذي ألفه العرب في قليل أو كثير من موضوعاته ومعانيه؛ فهو لا يصف الأطلال والربوع، ولا يصف الحنين إلى الأحبة، ولا يصف الإبل في أسفارها الطوال والقصار، ولا يغرق فيما كان الشعراء يغرقون فيه من تشبيهات للإبل والصحراء والرياض والأشجار والحيوان والصيد وأدواته، لا يعرض لشيء من هذا كله، وليس فيه غزل ولا فخر ولا مدح ولا هجاء ولا رثاء، وهو لا يصف الحرب وما يكون فيها من الكر والفر، وهو لا يبالغ ولا يغلو ولا يعدو الحق، لا يعرض من هذا كله لشيء، وإنما يتحدث إلى الناس عن أشياء لم يتحدث إليهم بها أحد من قبله؛ يتحدث عن التوحيد فيحمده، ويدعو إليه، ويتحدث عن الشرك فيذمه وينهى عنه، ويتحدث عن الله فيعظمه ويصف قدرته التي لا حد لها وعلمه الذي لا غاية له وإرادته التي لا ترد وخلقه للسماوات والأرض وما فيهن من يسير الأشياء وخطيرها ومن صغير الأشياء وكبيرها، ويدعو الناس إلى عبادة الله والائتمار بما يأمر به، والانتهاء عما ينهى عنه، والتنزه عما

لا يليــق بكــرام الناس، ثم يصــف ما أعد الله مــن النعيم المقيم للذيــن يؤمنون به وحده، ويخلصون له دينهم، ويصف ما ادخر من العذاب الأليم الخالد للذين يشركون معه إلهًا آخر ويجعلون له أندادًا، ويكفرون بآياته ويجحدون نعمه عليهم، وهو يبشــر المؤمنيــن بما أعد لهم من نعيم، وينــذر الكافرين ما ادخر لهم من جحيم، وهو يصف قيام الساعة وما يكون فيه من هول يذهل المرضعة عما ترضع، ويضطر ذات الحمل إلى أن تضع حملها، ويجعل الناس كأنهم سكارى وما هم بسكارى، وهو يعظ الناس ليطهر أنفسهم ويزكيها، ويتلو عليهم من أنباء الغيب ما يثبت به قلوب المؤمنين ويخلع به قلوب الكافرين.

فيقــص عليهــم أنباء الرســل الذين أُرســلوا قبــل محمد ﷺ وجــاءوا قومهم بالآيــات البينات، فأعرض عنهــم أكثر قومهم، ولم يؤمن له منهــم إلا قليل، فعذب الذين أعرضوا وأخزاهم في الدنيا والآخرة، ونجى الذيــن آمنوا وأرضاهم في الدنيا والآخرة أيضًا.

كل هذا وأكثر من هذا يتحدث به القرآن إلى الناس على لسان رجــل من قريــش لم يتعلم قط كتابــة ولا قراءة ولا حســابًا، ولم يجلــس قط إلــى أحبار اليهــود ولا رهبان النصــارى ولا أصحاب الفلســفة، وإنمــا هو رجل عربــي أمي كأكثر العــرب لا يعلم من أمــر الدنيا إلا مثل ما كان أوســاط العرب يعلمون، وهو مع ذلك يجــادل اليهود في التوراة ويجادل النصارى في الإنجيل... كل ذلــك وهو لا يقــرأ التوراة ولا الإنجيل، وإنمــا ينبئه الله نبأ الحق

بما في كليهما، وهو لم يأت لنسخ التوراة، ولا لنسخ الإنجيل، وإنما جاء مصدقًا لما بين يديه منهما ومضيفًا إليهما ما أمره الله أن يضيف من العلم والدين، وهو يحاج المشركين في آلهتهم تلك التي كانوا يعبدونها ويجعلونها لله أندادًا ويتخذونها عنده شفعاء، والتي لا تجيبهم إن دعوها، ولا تسمع لهم إن تحدثوا إليها، ولا تنفعهم ولا تضرهم ولا تغني عنهم من الله شيئًا إن أراد بهم سوءًا ولا تمسك عنهم رحمة الله إن أراد بهم رحمة، وإنما هي أشياء صنعوها بأيديهم أو صُنعت لهم من قبل بأيدي الرجال، ثم خلعوا عليها ما ليس لها من القوة والبأس والسلطان.

القرآن شرع:

ثم هو يشرع لهم من الدين والشرائع ما ينفعهم في الدنيا ويعصمهم من عذاب الآخرة إن استمسكوا به وأنفذوه على وجهه، فيشرع لهم في أمر الزواج والطلاق والميراث والوصية والبيع والشراء وغير ذلك مما تقوم عليه حياتهم الاجتماعية وحياتهم الفردية أيضًا، ثم هو يفرض عليهم من أنواع العبادة ما يطهر نفوسهم ويزكي قلوبهم ويحضر في ضمائرهم حب الله والإخلاص له وخوف الله والإشفاق منه، ويبين لهم ألا سبيل إلى أن يستخفوا من الله بكبيرة أو صغيرة؛ فهو يسمع كل شيء ويرى كل شيء ويعلم كل شيء، وهو معهم حين يجتمعون وحين يخلو كل واحد منهم إلى نفسه، وهو يعلم ما يثور في قلب الإنسان من عاطفة، وما يضطرب فيه من هوى وما يخطر في ضميره من خير أو شر، بل هو يعلم أكثر من ذلك، يعلم كل

ما كان، وكل ما هو كائن، وكل ما سيكون، وهو يحصي عليهم أعمالهــم وكل ما تحدثهم به أنفســهم من الخير والشــر، ومن الفجــور والبر ومن الطاعة والمعصية، وهو يســجل كل هذا في كتاب مدخر عنده فيعرض على كل إنســان كتابه يوم الحساب، ويجزيه عما ســجل في هذا الكتاب من أعماله الظاهرة والباطنة إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر.

ثــم ينبئ النــاس في الدنيــا بما تقــول ألســنتهم، وما تعمل جوارحهم، وما تضمر نفوســهم؛ نجد هذا كله في القرآن الذي يتلــوه هذا الرجل الأمي، والذي أخذ فــي تلاوته فجاءة ذات يوم بعد أن بلغ الأربعين، وأنفق ثلثي عمره في الدنيا يحيا كما يحيا غيره من قريش، فلا غرابة في أن يبهر قريشًا وسائر العرب هذا العلــم الذي جاءه فجأة، ولا غرابة في أن يعجزهم فهم هذا كله، فهُم في حيرة من أمر هذا الرجل وما يتلو عليهم من الآيات.

يقولون: إنه شــاعر ثم يســتبين لهم أنه لا ينشــدهم شــعرًا، ويقولــون: إنــه كاهــن ثم يتبيــن لهم أنه لا يســجع لهم ســجع الكهــان، ويقولــون: إنــه ســاحر ثم يســتبين لهم أنــه ليس من الســحر في شــيء، وإنما هو رجل مثلهم لا يملك لنفســه نفعًا ولا ضرًا، يســعى في الأرض كما يســعون، ويكســب قوته كما يكســبون أقواتهم، ويصارحهم بأنه لا يعلم من أمر الغيب إلا ما يعلمه الله حين يوحي إليه القرآن، فيريحون أنفســهم كما يريح الباحــث المُجد نفســه بعد الكــد والعناء اللذيــن لا يغنيان عنه شــيئا، فيقولون: إنه مجنــون ولكن هذا لا يريحهم فهم يقولون

له ويسمعون منه ويرقبونه مصبحين وممسين، فلا ينكرون منه شيئًا إلا هذا الكلام الذي يتلوه عليهم، فتخشع له قلوب فريق منهم، ويعرض عنه أكثرهم فلا يجدون لهم مخرجًا إلا أن يجاهروه بالعداء، وينصبوا له حربًا منكرة، ولكن القرآن ينزل عليه وهو مضطر إلى أن يتلوه عليهم.

قد أعياهم أمره كل الإعياء، أرادوا أن يأخذوه باللين فلم يفلحوا، وأرادوا أن يأخذوه بالشدة فلم يفلحوا، وأكثر من هذا أنه يتلو عليهم من القرآن ما يتحداهم ويسألهم أن يأتوا بمثله وهم يحاولون فلا يستطيعون، ولكنهم يصرون على العناء ويطالبونه بالآيات العظام يسألونه أن يغني نفسه من فقر فينشئ لنفسه جنة من نخيل وعنب ويفجر فيها الأنهار والينابيع، ويسألونه أن يأتيهم بالله والملائكة، ويسألونه أن يُسقط السماء عليهم كسفًا، ويسألونه أن يرقى في السماء ويأتيهم منها بكتاب يقرءونه، ويسألونه أن يبتكر لنفسه بيتًا من زخرف أو أن ينزل عليهم من السماء كنزًا، فلا يسمعون منه إلا ردًّا واحدًا وهو أنه لا يملك أن يأتيهم من هذه الآيات بشيء لأنه بشر مثلهم لا يمتاز منهم إلا بأن الله اختصه برسالته، وأرسله إلى الناس بشيرًا ونذيرًا.

فهذا وجه من وجوه إعجاز القرآن لا سبيل إلى الجدال فيه؛ فقد جادل فيه العرب من قبلُ فلم يفلحوا ولم يبلغوا شيئًا، وإذا عجز العرب الذين عاصروه عن أن يأتوا بقليل مثل ما جاء به فالذين جاءوا بعدهم أعجز، وغيرهم من الأمم أشد عجزًا.

ولكن للقرآن وجهًا آخر من وجوه الإعجاز لم يستطع العرب أن يحاكوه أيام النبي ولا بعده، ذلك هو نظم القرآن أي أسلوبه في أداء المعاني التي أراد الله أن تؤدى إلى الناس، لم يؤدِّ إليهم هذه المعاني شعرًا كما قدَّمنا، ولم يؤدها إليهم نثرًا أيضًا، وإنما أداها على مذهب مقصور عليه وفي أسلوب خاص به، لم يُسبق إليه ولم يلحق فيه، ليس شعرًا لأنه لا يتقيد بأوزان الشعر وقوافيه. وليس نثرًا لأنه لا يطلق إطلاق النثر، ولا يقيد بهذه القيود التي عرفها الكتاب في الإسلام، وإنما هو آيات مفصلة لها مزاجها الخاص في الاتصال والانفصال وفي الطول والقصر، وفيما يظهر من الائتلاف والاختلاف، تتلو بعض سورة فإذا أنت مضطر في تلاوتها إلى الأناة والتمهل؛ لأنها فصلت في ريث ومهل لأداء معاني تحتاج إلى البسط والريث، كالتشريع مثلا ووصف ما كان يُثار بين المسلمين والمشركين من الحروب والمواقع، وتتلو بعض سوره الأخرى فإذا أنت مضطر إلى شيء من السرع لأنها تؤدي معاني يحتاج أداؤها إلى القوة والعنف، قد فصلت آياتها قصارًا ملتئمة الفواصل تقرؤها فكأنك تنحدر من عل، وذلك حين يخوف الله عباده ويشتد في تخويفهم فيأخذهم من جميع أقطارهم، ويقطع عليهم طريق الجدال والحجاج.

وربما يقص من أنباء الرسل فيمضي القصص في هدوء ومهل؛ لأنه يتجه إلى إثارة التفكير والاعتبار والتروية فيما جرى على الأمم من قبل، والحذر من أن يجري عليهم مثله.

ثم يقص في سورة أخرى نفس الأنباء فتقصر الآيات وتسرع، وتتسق الفواصل وتنسجم وتتكرر عبارات بعينها في آخر كل قصة؛ لأنه يتجه إلى الإثارة والإحاطة بالسامعين والقارئين وإعجالهم عن التفكر والتدبر كأنما أخذَتْهم من كل مكان ريحٌ عاصفة لا يجدون منها مهربًا، ولا يرون لأنفسهم عنها منصرفًا؛ فهي تصب عليهم العبر والعظات والمَثُلات صبًّا، أو كأنهم يمطرون من السماء صخورًا متتابعة، فهم لا يملكون إلا أن يذعنوا لما يُصب عليهم لا يجدون من الوقت ولا من القوة ما يتيح لهم رجع الجواب أو الجدال في بعض ما يُصب عليهم، وإنما هي الآيات تتابع قصارًا أشد القصر، متسقة أروع الاتساق، والعبر القاصمة تستنبط منها في سرع سريع أيضًا. وهم لا يكادون يفرغون من قصة حتى تتبعها قصة أخرى، تأتي في إثرها في سرعة خاطفة وقوة مذهلة.

واقرأ إن شئت سورتين كسورة الشعراء وسورة القصص فستجد السرعة كل السرعة والقوة كل القوة في السورة الأولى، وستجد الأناة والمهل في السورة الثانية، ولكنك ستجد الروعة في السورتين جميعًا؛ تروع أولاهما بما اختصت به من هذه السرعة، وتروع الأخرى بما امتازت به من الأناة، وذلك في القرآن كثير.

وسواء قرأت السور السريعة أو السور المستأنية فسترى من جمال اللفظ وروعة الأسلوب واتساق النظام ما يسحرك ويبهرك ويملك عليك أمرك كله، فإذا أنت خاشع لما تسمع

أو تقـرأ معجب به مسـتزيد منه حتى حين يسـتأثر بك العناد ، وتتكلف ما تتكلـف من إظهار الإصرار والاسـتكبار والإعراض والإباء .

وأخـص مزايا القرآن أن الذين يقرءونه أو يسـمعونه دون أن يؤمنوا بـه يكذبون على أنفسـهم ، فقلوبهم خاشـعة وأذواقهم راضيـة وعقولهـم هي المعارضـة المكذبة ؛ فهم حيـن يقرءونه أو يسـمعونه يناقضـون أنفسـهم ، يظهـرون الإبـاء ويضمرون الاستجابة ، قد اختلفت قلوبهم وألسنتهم ووجوههم ؛ فقلوبهم تذعن وألسـنتهم تُنكر ، ووجوههم تعـرض إلا أن يطبع الله على قلوبهم ويطمس على عقولهم ويجعل في آذانهم وقرًا .

ووجه آخر من وجوه إعجاز القرآن وهو هذا الأثر الباقي الذي يتركـه في قلـوب الناس وعقولهم وأذواقهم علـى تتابع القرون واختلاف الأجيال .

فالعربـي القديـم مـن أهـل الفصاحـة واللسـن والبراعة في تصريـف القول قد سـمع القـرآن فراعه منه ما راعه واسـتجاب لـه هذه الاسـتجابة التـي يعرفهـا التاريخ ، ولكـن أجيالا أخرى لا تحكـم ولا تصـرف القول ولا تـذوق روعة البيـان قد جاءت بعد أولئك القدماء من العرب فسـمعت القرآن وقرأته ، فإذا هو يستأثر بعقولها وقلوبها ، وإذا هي لا تقرؤه أو تسمعه إلا خشعت له واسـتيقنت أنه كلام لا كالكلام بل له شـأن آخر يختلف أشد الاختلاف عما يكتبه الناثرون وينظمه الشعراء ويقوله الخطباء .

وأغرب من ذلك أن أممًا أخرى ليس بينها وبين العرب سبب قد

قرأت القرآن وسمعته في القرون المتطاولة والأجيال المتعاقبة فدانت له وآمنت به واستحبت قراءته والاستماع له على كل شيء غيره يقرأ ويسمع أو يمتع الأسماع والقلوب والعقول معًا.

ونحن نعلم أن أروع البيان وأبرعه وأعلاه درجة في الحسن إنما يروع من يقرؤه أو يسمعه من أصحاب اللغة التي أنشئ فيها. فإذا تجاوزهم إلى غيرهم من الأمم فقد كثيرًا من روعته، ولا كذلك القرآن حين يقرؤه أو يسمعه مَن لم ينشأ تنشيئًا عربيًّا، بل هو يحتفظ بروعته على اختلاف الأزمنة والأمكنة وأجيال الناس.

ولست أذكر هنا تأثير القرآن في تغيير التاريخ وتحويله أمة جاهلة غافلة أمية شديدة التنافر والتدابر يضرب بعضها رقاب بعض، وينهب بعضها أموال بعض، فإذا هي تصبح أمة قد خُلِقت خلقًا جديدًا، فألفت النظام والأمن والعدل، وطمحت إلى الرقي وظفرت منه بحظ موفور، ونشرت هذه الخصال كلها في أمم كثيرة في الأرض، ثم مزجتها وجعلت منها أمة واحدة تتعاون على الخير والبر وترقية الحضارة، لا أذكر هذا كله ولا أطيل فيه لأنه أظهر من أن يحتاج إلى ذلك. والقرآن وحده مصدر هذا كله؛ فلولاه لظلت الأمة العربية على جهلها وغلظتها وانقسامها، ولطمع فيها غيرها من الأمم المتحضرة فاستذلها واستغلها وبسط عليها سلطانه.

وقد ألفت كتب قديمة وحديثة في إعجاز القرآن ولكنها على

كثرتها لم تقل في إعجازه كل ما يمكن أن يُقال ؛ لأنه أروع روعة وأبهر جمالا من أن يستنفد فيه القول.

وقد نزل القرآن منجمًا ولم يوح إلى النبي جملة، وإنما كان ينزل بين وقت ووقت يتتابع أحيانًا ويبطئ أحيانًا أخرى، وقد تساءل المشركون من قريش لماذا لم ينزل القرآن جملة؟ ولو أنزل عليه مرة واحدة لما أطاقوه، وإنما أراد الله أن ينزله منجمًا ليتابع به حياة النبي والعرب وما اختلف عليهم من الأطوار في هذا الأمد الذي قضاه النبي بينهم مبشرًا ومنذرًا.

وكان ما ينزل منه يُكتب في إثر تنزيله، ثم جمع القرآن أيام أبي بكر، ثم نسخ في المصاحف وأُرسل إلى الأمصار أيام عثمان، وجعل المسلمون يروونه سماعًا ويقرءونه في المصاحف حتى وصل إلينا كاملا كما هو الآن؛ فهو متواتر لا يجد الشك إلى شيء منه سبيلا، لم يختلف فيه المسلمون، وإنما تناقلوه مجمعين عليه، وتناقلوه مسموعًا ومكتوبًا، فجملته وتفصيله فوق الشك وفوق الجدال.

وقد تختلف قراءة المسلمين لبعض ألفاظه مدًّا وقصرًا وإمالة وإطلاقًا، ولكن سبعًا من هذه القراءات وصلت إلينا متواترة، وأجمعت عليها الأمة، ولا بأس منها على النص لا في لفظه ولا في معناه.

وقد رتب القرآن - كما هو بين أيدينا- سورًا منذ أيام النبي، وقُدِّمت في المصحف طوال السور على أوساطها، وأوساطها على قصارها.

ولـم يـراع في هذا الترتيب نزول السـور والآيات في مكة أو في المدينة، ولا تاريخ نزول الآيات، وإنما وضعت الآيات حيث كان النبي يأمر أن توضع من السور.

ونحـن نجـد البقـرة وآل عمران والنسـاء والمائـدة في أول المصحـف بعد الفاتحة مع أنهـا مدنية. ونجد الأنفال والتوبة– وهما مدنيتان– بين سور مكية، وربما وجدنا في السورة المدنية آيـات أنزلت بمكة، وفي السـور المكية آيات أنزلت بالمدينة؛ ذلك أن هذا الترتيب حسب مكان النزول وزمانه لم يراع، وإنما القـرآن واحد جاء كله من عند الله، وتلاه النبي على المسـلمين كله كما أنزل.

وقد بين الرواة الأولون والعلماء من بعدهم أماكن نزول الآيات والسـور وتاريخها، وحاول بعض المستشرقين أن يرتب القرآن حسب تاريخ نزول السور، فلم يصنعوا شيئًا. وترجم القرآن إلى بعض اللغات الأجنبية أحيانًا على هذا الترتيب التاريخي، فكان هذا النحو من الترجمة والترتيب عبثًا لا يدل على شـيء، وإنما ينأى عما ألف المسلمون من الترتيب المعروف في المصحف.

وما أكثر العلم الذي استنبطه المسـلمون مـن القرآن؛ فهم استنبطوا منه شرائع الدين وجزءًا غير قليل من تاريخ المسلمين بمكة والمدينة، وهم جعلوا من تفسـير ألفاظه وتوضيح معانيه علمًا مسـتقلا هو علم التفسير، وهم درسوا لهجات القُرَّاء كما تظهر في القراءات المختلفـة، وجدوا في توجيه هذه القراءات توجيهًـا نحويا، وهم اسـتخرجوا علم تلاوة القرآن كما سُـمِع

من القــراء الأولين، ونظموا قواعد المد والقصر والغُنَّة وإخراج الحروف حسب القراءات المختلفة، وهم اعتمدوا عليه اعتمادًا شــديدًا في تسجيل اللغة العربية في المعجمات ووضع الأصول التي يقوم عليها النحو والصرف، وهم اعتبروه مثلا أعلى لروعة البيان، وعســى أن يكونوا قد اعتمدوا عليه أشــد الاعتماد فيما وضعــوا من علوم البلاغة، ولا ســيما البيــان والمعاني، إلى آخر العلوم الكثيرة التي استنبطت منه- وألفت فيها وما زالت تؤلف فيها كتب لا تُحصى.

ومــع أن علم الــكلام قــد اعتمد على الفلســفة، والفلســفة اليونانيــة خاصة، فإنــه يعتمد اعتمادًا شــديدًا علــى القرآن في قسم الســمعيات من أقســامه وفي أبوابه النظرية، والمتجنبون مــن المتكلميــن للتأويل والإغراق فيه قد اعتمــدوا على القرآن والســنة وحدهمــا فــي تفصيــل العقائــد الإســلامية، واتخذوا الفلســفة خادمًا لــه يدافعون بها عن نصوصــه، ويخاصمون بها المئوليــن والمتكلفين ويردون بها علــى الذين قصروا جهدهم علــى الفلســفة الخالصة ولم يعرضوا لنصــوص، وإنما اعتمدوا في إثبات الله ووجوده على النظر وحده يذهبون في ذلك مذهب القدماء من فلاسفة اليونان.

وربما أثارت العناية بالقرآن بعض الخصومات بين المسلمين، كالذي كان حين ذهب المعتزلة إلى أن القرآن مخلوق، وتابعهم على ذلك بعض الخلفاء من بني العباس، فأثاروا بين الناس شــرًّا عظيمًا وامتحنوا خيار العلماء بألوان من البلاء شداد.

علــى أن هذه الخصومــات الخطيرة لم تلبــث أن صارت إلى مــا ينبغــي أن تصيــر إليه الخصومــات من الجــدل الخالص بين العلمــاء، وذلك حيــن انصرفت السياســة لما يُسِّــرت له، ولم تدخل في شئون ما يكون بين العلماء من اتفاق واختلاف.

وما أكثر ما توارثت الإنســانية من آيات الأدب وروائع البيان في اللغات المختلفة منذ العصور القديمة، لكنا لا نعرف شــيئًا مــن هذا التراث عني به النــاس على نحو ما عني الناس بالقرآن؛ فهــم يقرءون روائع البيــان هذه ويشــرحونها ويكثرون البحث والدوران حولها، ولكن هذا كله لا يتجاوز الخاصة الذين يقفون أنفسهم على هذا النحو من الدرس.

فأما القرآن فالعناية به لا تشبهها عناية، فليس من المسلمين على كثرتهم واختلاف أجناســهم وتعاقب أجيالهم مَن لا يحفظ من القرآن قليلا أو كثيرًا؛ لأن أداء الصلاة لا يتم ولا يستقيم إلا بقراءة شيء من القرآن فيها.

فليس بد للمســلم من أن يحفظ منه ما يؤدي به صلاته، وما نعــرف أحدًا يحفــظ أثرًا من الآثــار البيانية عن ظهــر قلب كما يحفــظ كثير من المســلمين القــرآن يحفظه كثيــر منهم حفظًا يصاحبه فهم النصوص، ويحفظه أكثرهم حفظًا دون أن يفهموه فهمًــا واضحًا، أولئك وهؤلاء يرون حفظه تعبدًا وقربى إلى الله.

وما أكثر المسلمين الذين يحفظون القرآن ليتخذوا تلاوته مِهنة يكســبون بها قوتهــم، ولولا أن المســلمين جميعًــا يحرصون على أن يســمعوا القرآن تُتلى عليهم آياته في كل يوم وفي بعض

الظروف الخاصة لما وجدت هذه الصناعة، ولما نفقت سوقها، ولما كثر أولئك الذين يدخلون بالقرآن كثيرًا من البيوت يصبحون الناس بآيات منه ويمسونهم، ولما كثر المصوتون به أولئك الذين يجتمع لهم الناس ليسمعوهم ويعجبوا بأصواتهم وتلاواتهم في ظروف الحزن والفرح.

وجاء اختراع الإذاعة فكثرت إذاعة القرآن يصوت به أصحاب الأصوات الحسان في البلاد الإسلامية وفي البلاد الأجنبية التي توجه الإذاعة إلى المسلمين لأسباب سياسية وغير سياسية.

فالقرآن يُتلى في الإذاعات الأوروبية والأمريكية، وهو يتلى على أنه إمتاع للمستمعين بحسن الأصوات، ولكن كثيرًا من المستمعين يسمعونه لنفسه أولًا وللأصوات التي تتلوه ثانيًا، وما يكون فيها من التطريب، وقد تُذاع بعض روائع البيان في اللغات الحية، ولكنها لا تذاع في نظام واضطراد كما يُذاع القرآن.

وجملة القول إن القرآن قوام لحياة المسلمين؛ يرضون به ربهم حين يأتون ما أمر به ويجتنبون ما نهى عنه، وحين يقيمون صلاتهم مجتمعين أو متفرقين يقرءونه أو يسمعونه متعبدين بقراءته أو سماعه، وحين يستنبطون منه العلم، ويتلمسون فيه الروعة والجمال، ويستمتعون بقراءته أو سماعه بالأصوات العذاب.

وليس في التراث الإنساني كله شيء يشبه القرآن في تقويم الألسنة العربية حين تلتوي باللهجات العامية المختلفة

والأجنبيــة حيت تلتــوي بلغاتهــا المتباينة، فاللذيــن يحفظون القــرآن في الصبا ويكثرون قراءته ويجودونها أصح الناس نطقًا بالعربيــة وأقلهــم تخليطًا فيها؛ ومن أجل ذلــك كانت الأجيال الســابقة إلى عهــد قريب تأخــذ الصبية حين يتعلمــون الكتابة والقــراءة بحفظ القرآن كلــه أو بعضه وتجويد قراءته، يرون في ذلك محافظة على الدين وتقويمًا لألسنة الصبية والشباب.

وكان الذين يحفظون القرآن أو شيئًا منه أجود نطقًا بالعربية حيــن يتكلمون، وأجدر أن يفقهوا دقائق اللغة حين يتعلمونها، وقد أُهمل حفظ القرآن وتمرين الصبية على قراءته وتجويده في المدارس الحديثة حينًا، فالتوت ألســنة الشــباب وفسد نطقهم وضاقــوا بــدروس اللغــة في مدارســهم، ثــم أعرضــوا عنها بعد الخــروج من المــدارس، ثم مال كثير منهم إلــى العامية فآثروها علــى الفصحــى، وحاولــوا أن يجعلوها لغة الكتابة فلم تســتقم لهم، ولأمر ما عاد القائمون على شــئون التعليم فراجعوا مناهج المــدارس وبرامجهــا وجعلوا لقراءة القــرآن وحفظه فيها مكانًا مرموقًا.

والقــرآن بعد هذا كله هو الــذي حفظ اللغة العربية أن تذوب فــي اللغات الأجنبية التي تغلبــت على اللغة العربية ... وخضع العرب لاستعمار الأعاجم، حكمهم الفرس في دار الخلافة نفسها أولًا، وحكمهــم التــرك بعد ذلــك قرونًا متصلة، وجــاء العصر الحديــث فخضــع العرب لســلطان الأجنبي الأوروبــي يقهرهم مــرة بالاســتعمار والحكم المباشــر لهم، ويقهرهــم مرة أخرى

بالتفوق في الحضارة المادية والمعنوية جميعًا، ويضطرهم إلى أن يتعلموا اللغات الأوروبية إرضاء لحُكَّامهم من الأوروبيين والتماسًا لما في هذه اللغات من علم وأدب وفلسفة وفن، وكان هذا كله جديرًا أن يمحق اللغة العربية محقًا، ويذهب شخصية الشعوب العربية، ولكن القرآن عصم هذه اللغة من الضياع، وحال بين الخطوب الجسام وبين التأثير فيها، حرص العرب على القرآن لأنه يحفظ عليهم دينهم، ولأنه قوام حياتهم، فقرأه عامتهم وخاصتهم، وحفظوا منه القليل والكثير، ودرسه علماؤهم في المساجد والمدارس، واختلف إليهم ألوف كثيرة من الطلاب على تباعد الأمكنة والأزمنة، واضطروا من أجل فهم القرآن ودرسه في تعمق أن يدرسوا اللغة التي أُنزل بها.

وأكثر من ذلك أن بعض الأمم الإسلامية التي خضعت لسلطان العرب في وقت مضى طوت قلوبها على بُغض العرب والعروبة، وآذتهم حين استطاعت إيذاءً شديدًا، ولكنها على رغمها احتفظت بالقرآن لمكان الإسلام منها أو لمكانها من الإسلام، فدرست القرآن ودرست لغته العربية.

القرآن وحدة الأمة:

وإذا كانت هناك الآن وحدة إسلامية عامة أو شيء يشبه هذه الوحدة فبفضل القرآن وجدت، وبفضل القرآن ستبقى مهما تختلف الظروف وتَدْلَهِمّ الخطوب، وإذا كانت هناك وحدة يحاول العرب أن يعودوا إليها ويقيموا عليها أمرهم في الحياة

الحديثة كما قامت عليها حياتهم القديمة، فالقرآن هو أساس هذه الوحدة الجديدة كما كان أساسًا للوحدة القديمة.

وليقرأ العرب إن شاءوا قول الله عز وجل في الآية الكريمة من سورة آل عمران:

﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

(آل عمران: ١٠٣)

فهذه الآية الكريمة التي أنزلت وتلاها النبي ﷺ على قوم من العرب كانوا يخرجون من جاهليتهم ويدخلون في الإسلام، فهم حديثو عهد بالكفر، وحديثو عهد بالعصبية القديمة، وحديثو عهد بتفرق القبائل واختصامها واحترابها لأيسر الأمور وأهونها شأنًا، هذه الآية الكريمة ما زالت قائمة بعد قريب من أربعة عشر قرنًا وستظل قائمة، وهذا الأمر للمسلمين بأن يعتصموا بحبل الله جميعًا ولا يتفرقوا لم ينقض بانقضاء عهد الخروج من الجاهلية والدخول في الإسلام، وإنما هو قائم دائمًا ما دام في الأرض مسلمون، فمثل هذا الأمر في القرآن لا يخص قومًا بأعينهم ولا عهدًا بعينه ولا مكانًا بعينه، وإنما هو أمر شامل عام واجب الاحترام في كل زمان وفي كل مكان، والعرب أجدر الناس أن يفهموه وينفذوه؛ فهو أنزل فيهم وأُنزل في لغتهم واتجه إليهم أول ما أنزل.

ولو مضينا نعدد آثار القرآن الباقية في المسلمين عامة وفي العرب خاصة لما قضينا الحديث ولا فرغنا، فحسبنا ما أشرنا إليه منها على قلته.

ولنعد إلى نص القرآن فنقف عند بعض سوره ونحاول - إن أتيحت لنا المحاولة - أن نبين بعض المظاهر المختلفة لما امتاز به القرآن من روعة البيان وما اختص به من هذه الملاءمة بين المعاني والألفاظ والأساليب.

وقد أشرنا في هذا الفصل إلى ما يكون من اختلاف بين بعض السور في أداء المعاني الواحدة أو المتقاربة أشد التقارب بالآيات الطوال المبسوطة حينًا، وبالآيات القصار الخاطفة حينًا آخر.

فلنقرأ معًا قصة نوح وقومه، وما جرى عليهم في الآيات الكريمة من سورة هود فسنرى هذه القصة قد فُصِّلت تفصيلاً كاملاً في غير تزيد ولا إسراف، وأُدِّيت معانيها في آيات ليست بالطوال ولا بالقصار، ولكنها تؤدي المعاني في دعة وهدوء، يكون فيها الإطناب حين يحتاج المقام إلى الإطناب، ويكون فيها الإيجاز حين يكون الإيجاز آخذ للقلب وأدل على ما أريدت الدلالة عليه من الهول الذي يصوره الإيجاز أكثر مما يصوره الإطناب، ومن الأمر الذي يصدر فينفذ إثر صدوره في غير تردد أو إبطاء، وانظروا إلى أول القصة كيف أدى فيه الحوار أداء يسيرًا يصور ما يكون بين رجل ينذر قومه، وقومه ينكرون عليه ويجادلونه، ثم يشتدون في الإنكار، وينتهون إلى إنذاره كما كان ينذرهم واقرأ هذه الآيات في أول القصة:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾

(هود: ٢٥ ، ٢٦)

فانظر إلى نوح كيف أدى رسالته في إيجاز، فأنبأ قومه بأنه نذير لهم في الآية الأولى وأظهر الرفق بهم والإشفاق عليهم فدعاهم إلى أن يعبدوا الله لأنه يخاف عليهم عذاب يوم أليم في الآية الثانية:

﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾

(هود: ٢٧)

ورد عليه الملأ من قومه فأنكروا دعوته لهم وأنبئوه بأنهم لا يرونه إلا بشرًا مثلهم، لا يمتاز منهم بشيء، فكثير عليه أن يزعم لنفسه التحدث عن الله والدعوة إليه والإنذار لهم باسمه، ثم أضافوا إلى ذلك أنهم لا يستطيعون أن يتبعوه لأن الذين اتبعوه هم أراذلهم وأهونهم شأنًا وهم أكبر في أنفسهم من أن يؤمنوا بما آمن به الأرذلون، أعلنوا إليه أنهم يكذبونه ويكذبون مَن اتبعه.

وانظر كيف رد عليهم نوح في الآيات الثلاث التالية فسألهم في الأولى: ماذا يصنع إذا كان الله قد أتاه بينةً من عنده وأتاه رحمة منه فلم يعقلوها، وبيَّن لهم أنه لا يستطيع أن يلزمهم رحمة الله وهم كارهون لها، فالإيمان لا يكون بالإكراه، وإنما

يكون باستجابة القلب ورضا الضمير، وأنبأهم في الآية التي تليها بأنه لا يسألهم مالا جزاءً على دعوته لهم إلى الحق، وإنما أجره على الله فليس لهم أن يعتلوا عليه ولا أن يشفقوا من دعوته على أموالهم.

وجادلهم في الذين اتبعوه فقال: إنه لا يستطيع أن يطردهم لأن ذلك ليس إليه وإنما هو إلى الله الذي يعلم دخائل نفوسهم وسرائر ضمائرهم، وأفهمهم بأنهم إنما يستجيبون لحميتهم وكبريائهم حين يعتلون عليه بازدراء الذين آمنوا معه، ثم أنبأهم في الآية التالية بأنهم لا يستطيعون نصره ولا يستطيع غيرهم نصره من الله إن طرد الذين آمنوا لأنهم ليسوا من الطبقة الممتازة.

ثم تبرأ من كل الغرور فأنبأهم بأنه لا يزعم لنفسه السيطرة على خزائن الله، ولا علم الغيب ولا أنه ملك، وإنما هو رجل مثلهم، ولا يستطيع أن يزعم أن الذين اتبعوه لن يؤتيهم الله خيرًا؛ لأن الممتازين من قومه يزدرونهم:

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ
فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ (٢٨) وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ
عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ
رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ (٢٩) وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ
إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣٠) وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ
ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ

خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾

(هود: ٢٨-٣١)

وقد ضاق به قومه بعد هذا الحوار فأنبئوه بأنه قد جادلهم فأكثر وأطال، وسألوه إن كان صادقًا أن يأتيهم بما خوَّفهم منه، فرد عليهم بأن الله وحده قادر على أن يأتيهم به إن شاء، وأنهم أهون من أن يكونوا معجزين لله، واستيأس منهم أو كاد فقال لهم: إن نصحه لن ينفعهم إن كان الله قد كتب عليهم الغواية، وهو ربهم وهم صائرون إليه آخر الأمر:

﴿ قَالُوا۟ يَـٰنُوحُ قَدْ جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

(هود: ٣٢-٣٤).

وهنا تعترض آية ليست من القصة ولكنها تمت إليها بسبب كأن المشركين من قريش قد ارتابوا حين تُليت عليهم هذه الآيات في صدق النبي وفي أن ما يتلوه عليهم قد أتاه من عند الله، فأمره الله أن يقول لهم: لا عليكم إن كنت مفتريًا فعليَّ وحدي تبعة ما أفتري، وأنا على كل حال بريء من جرائمكم:

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴾

(هود: ٣٥)

وينبئ الله نوحًا بما يشعره في وضوح بأنه لم يعجل حين

استيأس من قومه، فهم لن يثوبوا إليه، ولن يقبلوا منه دعوته، ويعزيه الله عن هذا الإعراض فيقول:

﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾

(هود: ٣٦)

ثم يأمره الله أن يتهيأ لما كتب له من النجاة هو وأهله والذين آمنوا معه، فيأمره أن يصنع الفلك برعايته وعن أمره، وينهاه أن يتوسل إليه في الذين ظلموا أنفسهم من قومه وأعرضوا عن دعوته فيقول:

﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾

(هود: ٣٧)

ثم ينبئ الله نبيه بما كان بين قوم نوح وبينه أثناء صنعه للفلك، فهم كلما مروا به سخروا منه، قد أوغلوا في الشك، بل وثقوا بأنهم آمنون من عذاب الله وبطشه، وبأن نوحًا يصنع فلكه عبثًا أو إمعانًا في تخويفهم من هولٍ موهوم، ويرد نوح عليهم ساخرًا أيضًا متوعدًا لأنه واثق بما أنبأه به ربه:

﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾

(هود: ٣٩)

ثــم أتى أمر الله وآن للظالمين مــن قوم نوح أن يعلموا حين لا ينفعهم العلم بأن نوحًا لم يكذب عليهم ولم ينذرهم عبثًا، فقد فار التنــور وأخذ الماء يغمر الأرض، وأمر الله نوحًا أن يحمل في سفينته من كل زوجين اثنين، وأن يحمل أهله إلا من كُتبت عليه الشقوة منهم، وأن يحمل تلك العصبة القليلة التي آمنت معه:

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ﴾

(هود: ٤٠)

وهــذا نــوح يأمــر الناجين من أهلــه وأصحابــه أن يركبوا في السفينة وهو يسمي الله على مجرى السفينة ومرساها:

﴿ وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾

(هود: ٤١)

وهنــا ينبغي أن نقف عند هذا الإيجــاز الرائع المألوف كثيرًا فــي القرآن والــذي يقتضي أن يحذف من القصة كل ما يمكن أن يســتحضره الســامع والقارئ من أحداثها؛ لأنه طبيعي لازم لما تُلي من القصــة، فهذا الماء قد غمر الأرض، ولقي الظالمون من قوم نوح ما لقوا من الجهد، وحاولوا كل محاولة ممكنة لينقذوا أنفســهم من الغرق فلم ينفع جهدهم ولم تغن عنهم محاولاتهم مــن الله شــيئًا، ذلــك لأن الله إذا أراد بقوم ســوءًا فــلا مرد له ولا ســبيل إلى اتقائه، ولكن القرآن هنــا يهمل هذا كله فلا يتحدث عــن المغرقين ولا عن جهودهم ومحاولاتهــم، ولا عما لقوا من

الألم في أنفسهم، ولا عما أحسوا من الندم لإعراضهم عن نوح ودعوته، لا يتحدث الله عن هذا، وإنما يستأنف الحديث عن السفينة، فإذا هي تجري بأصحابها في موج كالجبال، وإذا نوح يفتقد ابنه فيراه مع الكافرين، وإذا ابنه قد حق عليه العذاب فهو لا يستجيب لأبيه، وإنما يزعم أنه سيأوي إلى جبل يعتصم به من الماء.. ونوح يحاول أن يقنعه بألا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم، ولكن الموج يحول بين الابن وأبيه فيصير ابنه إلى الغرب مع المغرقين:

﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾

(هود: ٤٢، ٤٣)

كم من يوم ظل الماء غامرًا للأرض، وكم من يوم جرت السفينة في هذه الأمواج المتلاطمة قبل أن تستقر على الجودي، هذه أشياء لا يتحدث الله بها في هذا الموضع من القصة، وإنما يتركها لفهم السامع والقارئ وتقديرهما، وفي هذا الإيجاز المعجز ما يصور هول القصة، وربما صور الهول بالإعراض عن وصفه تصويرًا أروع وأشد من وصفه.

وانظر إلى فعلي الأمر هذين اللذين يوجه أحدهما إلى الأرض بأن تبتلع ماءها ووجه ثانيهما إلى السماء بأن تكف عن صب الماء، وإذا الماء يغيض، وإذا الأمر كله قد قضي، وإذا السفينة

قد استقرت على الجودي، وإذا نداء ببُعد القوم الظالمين، فِعْلا أمر في أول الآية: ثم أنباء قصار أشد القصر موجزة أروع الإيجاز، قاطعة لا معقب لها، تلقى في أفعال بني أكثرها لما لم يسم فاعله.

وتنتهي بهذه الأنباء قصة ما أصاب قوم نوح من العذاب:

﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

(هود: ٤٤)

على أن قصة نوح نفسه لم تنته بعد؛ فهو محزون على ابنه الذي أغرق، وكأنه يعاتب ربه فيه، ولكن في إيمان به وإذعان لحُكمه فيقول:

﴿إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي﴾

(هود: ٤٥)

كأنه يذكر أن الله قد أمره أن يحمل أهله في السفينة، ولكن ربه يرد عليه ردًّا فيه الشدة والرفق جميعًا، فينبئه بأن ابنه ليس من أهله؛ لأنه عمل غير صالح، ويعظه ناهيًا له عن أن يسأله ما ليس له به علم، وإذا نوح يثوب إلى نفسه، ويتوب إلى ربه، ويعوذ به من أن يسأله ما ليس له به علم، ويلتمس منه الرحمة والمغفرة.

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٤٥ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ

صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ
٤٦ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي
وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾

(هود: ٤٥-٤٧)

ثـم يؤمر نوح أن يهبط إلى الأرض بسـلام من الله عليه وعلى فريـق ممن معه، ويُنبأ بـأن فريقًا آخر ممن معه يسـتمتعون في الحياة الدنيـا، ثم يضطرون إلى عذاب أليـم. آمنوا بدعوة نوح فنجوا من الغرق، ولكنهم محتاجون إلى أن يمتحنوا في الدنيا، فإن أحسنوا نجوا، وإن أساءوا فعذاب الله مُدَّخر للذين يخالفون عن أمره ويظلمون أنفسهم:

﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ
وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾

(هود: ٤٨)

وهنـا تنتهي قصة نـوح في هذه السـورة الكريمة، وينبئ الله نبيـه بأن أحداث هذه القصة إنما هي بالقياس إليه وإلى قومه من الغيـب لم يعلمها النبـي ولم تعلمها قريـش إلا بعد أن أوحيت إليـه في هذه الآيـات، ثم يأمر الله نبيه أن يصبر على ما يلقى من إعـراض قومه عنـه، وإيذائهم له كما صبر نـوح على ما لقي من قومه، فكانت له العاقبة؛ لأن العاقبة دائمًا للمتقين:

﴿ تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن
قَبۡلِ هَٰذَاۖ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾

(هود: ٤٩)

ومـا أشــك في أنــك حين قــرأت هــذه الآيات لــم تعجل في قراءتها ؛ لأنها مبســوطة قد اطمأنت وتتابعت في رِفق وفي مَهَلٍ أيضًــا فأنت تقرؤهــا مفكرًا فيها معتبرًا فــي أحداثها لا يعجلكَ عن ذلك شــيء ، وأنت معجب بانبساط الحديث ومضي القصة فــي أنــاة تؤدي المعاني مســتوية ، ويأتي الإيجــاز حين يجب أن يأتي ، فلا يضيع عليك شيئًا من تمهلك ، ولا يعجلك عن التأمل والتدبر .

ولكن لنقرأ معًا هذه القصة نفسها في سورة أخرى هي سورة الشــعراء ولنوازن بين الأناة هنا والســرع هناك ، وســنرى أن من العســير أن نقف عند كل آية من آيات القصة في ســورة الشعراء كما وقفنا بإزاء الآية والآيات في القصة نفســها من ســورة هود ، وسترى سبب ما يكون بين القصتين من فرق في السورتين .

وســورة الشــعراء كلها تروع وتبهر بقصر آياتها وانسجامها في هذا القصر وفي اتساق الفواصل في الآيات كلها حتى الآيات الأخيــرة التــي يقال : إنهــا أنزلت فــي المدينــة وإن كانت الآية الأخيرة من الســورة أطول شيئًا من سائر الآيات ، وهي منسجمة كذلــك بآيتين تأتيان بنصهما في آخر كل قصة ، بل في آخر كل حديث ما عدا آخر السورة وهما قول الله عز وجل :

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾

(الشعراء : ٨ ، ٩)

فهما تأتيان ختامًــا لكل حديث وتوطئة للانتقال إلى حديث

آخــر أو قصة أخرى، وقــد فصلت آيات الســورة على قدر واحد حتى كأن إحداها لا تزيد على الأخرى أو تنقص عنها.

وهذا الأســلوب مألوف في القرآن؛ تراه في ســورة الصافات مثلا، وترى شــيئًا منه في قصار الســور التي أنزلت بمكة والتي تقرؤها في آخر المصحف.

وفي ســورة الشعراء هذه يتجه الحديث أولا إلى المشركين مــن العرب وإلــى قريش منهم خاصــة، فيُذكَّــرون بآيات الله، ويُعاب جحودهم وإصرارهــم على العناد والكفر، ويختم هذا القســم مــن الحديث بالآيتيــن اللتين تلوناهما آنفًــا، ثم تأتي قصة موســى وإرســاله إلى فرعون، وما كان من حديث موسى مــع الســحرة، ومــا كان من إخراج موســى لبني إســرائيل من مصر عن أمر الله واتباع فرعون لهم وإنجاء الله لموســى وقومه وإغراقه فرعون ومَن معه، وتختم القصة بالآيتين نفسهما، ثم تأتي قصة إبراهيم، ومِن بعدها قصة نوح، ثم قصة ثمود فقصة قــوم لوط فقصة شــعيب وقومه، ثم يعــود الحديث فيتجه إلى قريش، حتى توشــك السورة أن تنتهي فتختم بالآيات المدنية التي يذكر فيها الشعراء.

وقصــة نوح هنا موجزة أشــد الإيجاز لا يذكر فيها تفصيل العذاب الذي أخذ الله به الظالمين من قوم نوح، وإنما يكتفى بذكر إغراق الله لهــم، ولا يذكر فيها صنع الفلك وحمل من حمــل نوح فيه، ولا وصف الموج الذي جرت فيه الســفينة، ولا قصــة مــا أصاب ابن نــوح من العــذاب، ولا الحديث بين

نوح وبين ربه، لا يذكر من هذا كله شيء، وإنما يقص الحوار بين نوح وقومه وإعراض قومه عن دعوته، وإنذارهم نوحًا بالرجم إن لم ينته عن دعوته، ودعاء الله نوحًا أن ينجيه، وما كان من نجاته في الفلك المشحون، ونجاة من آمن معه، وإغراق الظالمين؛ فقد اختصرت القصة هنا لأن ما قصد إليه من القصص كلها في هذه السورة إنما أريد به إلى تذكير المشركين بآيات الله فيمن سبقهم من الأمم، وتخويفهم أن يصيبهم مثل ما أصاب تلك الأمم، وإظهارهم على بطش الله بالظالمين وعلى الآيات الكبرى التي آتاها الأنبياء قبل محمد ﷺ.

ومن أجل هذا اكتفى بما يؤدي هذه الأغراض في قوة وعنف يملكان على السامعين والقارئين أمرهم كله، ومن أجل هذا أيضًا أديت هذه الأغراض في هذه الآيات القصار المتتابعة في نسق واحد كأنها السيل المندفع الذي يغمر كل ما يلقاه أو كأنها الريح العاصفة التي لا تدع شيئا تأتي عليه إلا دمرته تدميرًا.

واقرأ إن شئت هذه الآيات التي صورت فيها قصة نوح وقومه، وقِسها إلى الآيات التي أثبتناها من سورة هود، فسترى أنك حين تأخذ في قراءة الآيات هنا ستجد نفسك منساقًا بل مدفوعًا إلى المضي في القراءة حتى تبلغ آخر القصة، لا تقف بين آية وأخرى، وإنما تقف حين تبلغ ختام القصة لتتدبر وتتفكر، وأكاد أقطع بأنك إذا بدأت السورة من أولها فستمضي فيها إلى آخرها، ثم تراجع نفسك بعد ذلك في جملتها وتفصيلها وفي

روعتها وإعجازها :

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾
إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ
إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوٓا۟
أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾
إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا
نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ
قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾
فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى
ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

(الشعراء : ١٠٥-١٢٢)

وهذا الأسلوب الرائع مألوف في القرآن كما قدمنا يلتزم فيه تكرار آية بعينها أو غير آية للانتقال من حديث إلى حديث ، كما في سورة الصافات وسورة القمر ، وأحيانا لا يلتزم هذا التكرار ، وإنما يرسل نظام الآيات إرسالاً مع اتحاد الفواصل ، كما في سور كثيرة من المفصل .

وفي القرآن أسلوب آخر من التكرار للتخويف حينًا وللتعجيز حينًا آخر كما ترى في سورة المرسلات من ختام الآيات دائمًا بقول الله عز وجل :

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾

(المرسلات : ١٥)

والسورة كلها تخويف، وكما في سورة الرحمن حيث تنتهي الآيات كلها بهذا الاستفهام الرائع

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾

(الرحمن: ١٣)

والسورة كلها تصف قدرة الله وتُعدِّد آلاءه على الناس.

وأسلوب آخر في القرآن تتسق فيه فواصل الآيات، ويلتزم فيها أو في أكثرها نسق بعينه كالذي تراه في سورة مريم من ختام الآيات أو أكثرها بكلمات تنتهي بالياء المشددة المفتوحة

﴿ كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾

(مريم: ١-٦)

وعلى هذا النسق تمضي آيات السورة حتى تذكر قصة يحيى ومريم والمسيح وطائفة أخرى من الأنبياء لا تخالف عنه إلا في آيات قليلة.

والتزمت في قصة يحيى والمسيح آية بعينها مع شيء من الخلاف بين آخر القصتين كان الحديث عن يحيى حديثًا عن الغائب، فقيل في آخر قصته:

﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾

(مريم: ١٥)

وكان المسيح يكلم في المهد بني إسرائيل فقيل في آخر كلامه:

﴿ والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا ﴾

(مريم: ٣٣)

وأسلوب آخر من الفواصل لا يلتزم فيه حرف بعينه كما التزمت الياء في مريم، أو حرفان كما التزمت الياء والنون في الشعراء مثلا، وإنما تلتزم حركة بعينها هي الفتحة، وإن اختلفت الحروف في أواخر الكلمات، كالذي ترى في سورة الكهف من التزام الكلمات المنصوبة أو المفتوحة الآخر.

﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا (١)
قيما لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون
الصالحات أن لهم أجرا حسنا (٢) ماكثين فيه أبدا (٣) وينذر
الذين قالوا اتخذ الله ولدا (٤) ما لهم به من علم ولا لآبائهم
كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا (٥) فلعلك
باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا (٦) إنا
جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا (٧) وإنا
لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا (٨) أم حسبت أن أصحاب الكهف
والرقيم كانوا من آياتنا عجبا (٩) إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا
ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا (١٠) فضربنا على
آذانهم في الكهف سنين عددا (١١) ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين
أحصى لما لبثوا أمدا (١٢) نحن نقص عليك نبأهم بالحق إنهم فتية
آمنوا بربهم وزدناهم هدى ﴾ **(الكهف: ١-١٣)**

وتمضى السورة على هذا النحو إلى آخرها.

وكذلك التزمت الفتحة في سورة الإسراء، وكادت الراء أن تلتزم معها في أكثر فواصل السورة.

والتزمت الفواصل المقصورة في أكثر سورة طه والنجم والأعلى والضحى، وحديث الفواصل في القرآن أطول وأكثر تنوعًا من أن نحصيه في هذا الفصل، وربما كان من الممكن أن يخص لها كتاب كامل، وما نجده فيها من التنوع إن دل على شيء فإنما يدل على أن القرآن قد أنزل ليتلى، ويُتلى في صوت يسمع، ذلك يظهر تنوع الآيات في خواتيمها وفواصلها، ويظهر ألوانًا مختلفة تروع باختلافها من الموسيقى، فإذا أضيف ذلك إلى عذوبة الألفاظ واتساق النظم واختلاف الأسلوب باختلاف المقامات شدة ولينًا وترغيبًا وترهيبًا وتبشيرًا وإنذارًا، لم يشك سامع أو قارئ في أن فنون الإعجاز في القرآن أكثر وأروع من أن تُحصى أو يُحاط بها.

وأكبر الظن أن التزام هذه الفواصل المتسقة إنما يكون حين يتحد موضوع السورة أو يأتلف ائتلافًا شديدًا؛ فسورة الشعراء مثلا قد اختلفت فيها قصص الأمم التي كذبت رسلها، ولكن موضوعها واحد هو التخويف وإنذار قريش وغيرها من مشركي العرب بأن ما أصاب تلك الأمم التي أصرت على تكذيب الرسل قد يصيبهم إن أصروا على تكذيب النبي ﷺ.

وسورة طه توشك قصة موسى أن تستغرقها، وفي سورة مريم تمجيد للأنبياء وتخويف للجاحدين.

وأكبر الظن أيضًا أن الفواصل حين تلتزم على هذا النحو يدل التزامها على أن السورة أنزلت مرة واحدة، ولم تنجم آياتها كما تكون الحال في سور أخرى لم تلتزم فيها الفواصل على هذا النحو، ولم يتحد موضوعها أو يشتد الائتلاف بين موضوعاتها إن تعددت، واتحاد الموضوع نفسه وشدة ائتلاف الموضوعات حين تتعد قد يشعر بأن السورة أنزلت جملة واحدة، وإن لم يلتزم في فواصلها ما نراه قد التزم في السور التي أشرنا إليها.

فسورة يوسف مثلا قد اتحد موضوعها اتحادًا لا شك فيه، قد قصرت على قصة يوسف وما أرى إلا أنها أنزلت جملة.

وقُل مثل ذلك في سورة هود. أو فيما اشتمل عليه أكثرها من قصص الأمم التي كذبت رسلها؛ فبعد أن بُدئت بآيات فيها الإنذار والتخويف وضرب الأمثال للموعظة قصت فيها قصة نوح في الآيات التي أثبتناها منذ حين، وعند الفراغ من قصة نوح عطفت عليها قصة عاد، وبُدئت هذه القصة بالآية الكريمة:

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾

(هود: ٥٠)

ثم عطفت عليها قصة ثمود بنفس الأسلوب:

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾

(هود: ٦١)

ثـم عُرض طرفٌ من حديـث إبراهيم وقصة لـوط وقومه، ثم قصة شعيب وقومه أهل مدين في قوله عز وجل:

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾

(هود: ٨٤)

ويلاحظ أن قصة قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم شعيب خُتِمت كلها بخواتم متشابهة؛ فنرى في آخر قصة المغرقين من قوم نوح:

﴿ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾

(هود: ٤٤)

وفي آخر قصة عاد وقوم هود نقرأ:

﴿ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾

(هود: ٦٠)

وفي آخر قصة ثمود قوم صالح نقرأ:

﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾

(هود: ٦٨)

ونقرأ في آخر قصة أهل مدين:

﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾

(هود: ٩٥)

وبعد هـذا القصص، الـذي يحدث أخبار الأمـم التي كذبت نوحًـا وهـودًا وصالحًا ولوطًا وشـعيبًا وموسـى، تختم السـورة بالتذكير بآيـات الله وإثبات أن النبي صادق فيما يحدث به لأنه يتلو أنباء لم يكن يعلمها ولم يكن قومه يعلمونها

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾

(هود: ١٠٠)

وتنتهـي السـورة بتثبيـت النبـي ﷺ بكل ما قـص عليه في السـورة وتخويف الذين لا يصدقونه من المشركين، وإعلان أن الله مستأثر بغيب السماوات والأرض، وأن مصير كل شيء وكل إنسان إليه

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

(هود: ١٢٠-١٢٣)

وسـور أخـرى فـي القرآن تشـبه سـورة هود فـي خصائصها هذه، وفي أنها أنزلت جملة واحدة كسـورة الأنفال التي أنزلت فـي غـزوة بدر ولم تتجاوزهـا إلا إلى ما يتصـل بقريش وكفرها ومكرها بالنبي بما كانت وقعة بدر نتيجة له.

وكذلك سـور أخرى في القـرآن تكثـر موضوعاتها وتتباعد

الصلـة بين هـذه الموضوعـات ، ولا يلتزم فـي فواصلها ولا في أسـلوبها نسـق بعينه منذ تبدأ إلى أن تنتهي ؛ فسورة البقرة مثلا كثـرت فيها الموضوعـات وتباينت ، فدل هذا على أن السـورة لـم تنزل مـرة واحدة ، وإنما نُجِّمـت تنجيمًا ؛ فهـي تبدأ بذكر المؤمنيـن الذين يتقـون الله ويؤمنون بالغيـب ويقيمون الصلاة وينفقـون مما رزقهم الله ويؤمنـون بما أنزل على النبي وما أنزل علـى الأنبيـاء مـن قبله ويوقنـون بالآخـرة وما يكـون فيها من الحساب والثواب والعقاب

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝﴾

(البقرة : ٥)

ثـم تتحدث عن الذيـن كفروا ، والذين لا يجـدي إنذارهم أو إهمالهم ، والذين لا يؤمنون على كل حال ، وقد ختم على قلوبهم وعلى سـمعهم وغشـيت أبصارهم وكتب عليهم عذاب عظيم . ثم تتحدث عن المنافقين الذين يقولون آمنا وليسـوا بمؤمنين ، والذيـن يريدون أن يخادعـوا الله والذين آمنوا فـلا يخدعون إلا أنفسـهم ، والذين في قلوبهم مرض فيزيدهـم الله مرضًا ويدخر لهم عذابًا أليمًا عقابًا على كذبهم بإظهارهم الإيمان وإضمارهم الكفـر . ثم تصف بدء الخلق وخلق آدم وتذكر قصة إبليس حين أبـى أن يسـجد مع الملائكة إعظامًا لخلـق آدم وطرده من الجنة وإغـواءه آدم وزوجـه حتى أكلا من الشـجرة التي نهاهما الله عن أن يقرباها ، وإخراجهما من الجنة وتوبة الله على آدم آخر الأمر .

ثـم تذكـر اليهـود فتطيل فـي ذكرهـم وتفصل مـن أنبائهم

وسيرتهم مع المسلمين ومحاجتهم للنبي شيئًا كثيرًا.

ثم تذكر طرفًا من قصة إبراهيم حين أنزل من ذريته بواد غير ذي زرع وحين بنى البيت بمكة، وتذكر طرفًا من حديث الأنبياء، ثم تذكر تحويل القبلة عن بيت المقدس إلى المسجد الحرام، ثم تذكر الصفا والمروة وأنهما من شعائر الله، وتذكر طرفًا من حساب الكافرين يوم القيامة، ثم تذكر البر وتبين حقائقه، ثم يشرع فيها القصاص وبعض أحكام الوصية، ويشرع الصيام وصيام رمضان خاصة، ثم يجاب فيها عن الذين يسألون عن الأهلة، ويُذكر فيها شيء من أمر القتال ومن أمر الحج ومن أمر المعاندين من مشركة قريش. ثم يذكر فيها إثم الخمر والميسر ويبين فيها للناس ما ينبغي لهم أن ينفقوا في صدقاتهم. ثم تشرع فيها طائفة من أحكام الزواج والطلاق والعلاقة بين الأزواج وعدة المرأة إذا طُلقت وإرضاع الوالدات أولادهن، وما لهن على أزواجهن من حق في ذلك، واسترضاع الأولاد عند غير أمهاتهن، وحق المرضعات على آباء من يرضعن من الطفل.

ثم يرجع الحديث إلى اليهود ويقص ما كان بين طالوت وجالوت من القتال وقتل داود لجالوت وإيتائه الملك والحكم والنبوة، ثم تعظ المؤمنين وتذم الكافرين، وتعلن ألا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي، وتذكر طرفًا من حديث إبراهيم حين حاج الملك الذي كفر فحجه، وحين سأل الله أن يريه كيف يحيي الموتى، فأراه الله من ذلك ما أراد. ثم تأمر المؤمنين

بالصدقة ملحـة عليهم فيها مبينة لهم أحكامها، ومرشـدة لهم إلى خيرها وأكملها ومواضعها.

ثـم تحرم الربا وتشـدد في تحريمـه، ثم تأمـر المؤمنين إذا تداينـوا وتبايعـوا أن يكتبوا ما تداينوا عليه أو مـا تبايعوه، وأن يستشهدوا على ذلك رجلين أو رجلا وامرأتين ممن يرضون من الشهداء، وتحظر كتمان الشهادة، وتبين أن من يكتمها فإنه آثم قلبه، ثم تختم السـورة بإعلان ما اجتمع عليه النبي والمؤمنون من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسـله، غير مفرقين بين أحد من رسله، ومن إذعانهم لربهم وإنابتهم إليه وسمعهم وطاعتهم لأمـره حين يأمرهم ونهيه حين ينهاهـم، وتضرعهم إليه في ألا يؤاخذهـم إن نسـوا أو أخطئـوا، وألا يحمل عليهـم إصرًا كما حملـه على الذين مـن قبلهم، وألا يُحمِّلهم مـا لا طاقة لهم به، وأن يعفو عنهم ويغفر لهم ويرحمهم وينصرهم على الكافرين.

وواضـح أن كل هـذه الموضوعات إنما فصلـت آياتها لناس فـي إبانهـا وحين اقتضـت حياتهـم وظروفهم أن تتلـى عليهم وتبصرهم بما يحتاجون إلـى أن يبصروا به حين تنوب النوائب وتعرض الأحداث.

ومثـل هـذا يُقال فـي سـورة آل عمران التـي لم تكثـر فيها الموضوعـات كمـا كثرت في سـورة البقرة، ولكنهـا اختلفت وتباعدت.

فالسـورة تبدأ بإثبات التوحيد وأن الله الذي لا إله إلا هو نزل علـى رسـوله الكتاب بالحـق وجعله في آيـات محكمات وأخر

متشـــابهات، فالذين زاغت قلوبهم يتَّبعون ما تشـــابه منه ابتغاء الفتنـــة وابتغـــاء تأويله، مع أن الله وحده هـــو العالم بتأويله، وأما الراسخون في العلم من المؤمنين فيؤمنون بالكتاب كله محكمه ومتشـــابهه، وبأنه جاء من عند الله، يفهمون منه ما يستطيعون، ويكلون ما تشابه منه إلى الله.

ثم أخذت السورة في ذم الكافرين وتخويفهم وبيَّنت ما يفتن الناس فـــي الحياة الدنيا ويوبق بعضهم فـــي الكفر وبعضهم في المعصية.

وذكـــرت اليهود وذمت بعـــض أعمالهم، ونهت المؤمنين أن يتولوا الكافرين، ورغَّبتهم في اتباع النبي؛ لأنه دليل على حبهم لله، وحذَّرهم الله نفسه فيها، وعلَّم نبيه والمؤمنين ما يدعون الله به من أنه مالك الملك يؤتي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء، ويعز من يشـــاء ويذل من يشـــاء، ومن أنه بيـــده الخير، ومن أنه على كل شيء قدير، ومن أنه يولج الليل في النهار ويولج النهار فـــي الليل ويخرج الحي مـــن الميت ويخرج الميـــت من الحي، ويرزق من يشاء بغير حساب.

ثـــم قص الله فيها ما كان من اســـتجابته لزكريـــا حين وهب له يحيى، وما جعل له من آية على ذلك، ثم قص أنباء مريم والمسيح في شيء من التفصيل واسع، ثم جادل أهل الكتاب من النصارى، وأمـــر النبي أن يباهلهم إن حاجوه فيما جـــاءه من عند الله في أمر المسيح، وأن يدعو أهل الكتاب إلى كلمة سواء ألا يعبدوا إلا الله وألا يشركوا به شيئًا وألا يتخذ بعضهم بعضًا أربابًا من دون الله،

وأن يشهدهم إن أبوا أنه وأصحابه مسلمون لله.

ثم مضى في حديث أهل الكتاب من النصارى واليهود، فذكر شيئًا من أخلاقهم وسيرتهم، وفرّق بين الأمناء منهم والخائنين، ثم ذكر إسرائيل وأنه أحل له الطعام كله إلا ما حرم هو على نفسه من قبل أن تنزل التوراة، ثم فرض الحج على المسلمين من استطاع إليه سبيلا، وذكر أن فيه آيات بينات مقام إبراهيم وأن مَن دخله كان آمنًا، وأنه أول بيت وضع للناس.

ثم أمر المؤمنين أن يعتصموا بحبل الله جميعًا ولا يتفرقوا، وأن يذكروا ما كانوا عليه من القلة والضعف قبل أن يكثرهم ويؤمنهم، وكلفهم أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر، وذكر المؤمنين والكافرين بيوم القيامة، وما يكون فيه من نجح للمؤمنين وخزي للكافرين.

كل هذا يأتي أثناء محاجة اليهود، ثم يفرق بين أهل الكتاب؛ فمنهم المؤمنون الصالحون الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات، ومنهم الكافرون الذين يجحدون الحق وينسون نعمة الله عليهم ويشاقون الله ورسوله، ثم يحذر المؤمنين أن يتخذوا بطانة من المنافقين الذين يبغضونهم، ويعضون عليهم الأنامل من الغيظ، ولا يألونهم خبالا، يفرحون إن أصابت المؤمنين سيئة، ويستاءون إن أصابتهم حسنة، ويودون لو استطاعوا أن يردوا المؤمنين بعد إيمانهم كفارًا، وهم مع ذلك يعلنون الإيمان ويجهرون به، ثم ينهى الله المؤمنين أن يأكلوا الربا أضعافًا مضاعفة، ويحذرهم

النار ويأمرهم بطاعة الله ورسوله والمسارعة إلى مغفرة من ربهم، وإلى جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين. ثم يذكر وقعة أحد ويلوم المنهزمين فيها من المسلمين، ويعفو عنهم، ويمضي في أنباء هذه الوقعة وما كان بعدها، وتثبيت قلوب المؤمنين وتهيئتهم لما سيبلون به في أنفسهم وأموالهم، ولما سيسمعون من أذى المشركين واليهود، ويبشرهم بما أعد للشهداء عنده من حياة راضية.

ويذكرهم بآياته ثم يرغبهم في الصبر ويأمرهم أن يصبروا ويصابروا ويرابطوا ويتقوا الله لعلهم يفلحون.

فهذه السورة اشتملت فيما عدا الوعظ والتخويف على ما قص الله من أمر المسيح وأمه، وعلى محاجة النصارى واليهود وعلى قصة أحد، فمن البيِّن أن هذه الموضوعات لم تنزل آياتها جملة، وإنما نزلت منجمة حسب الظروف والأحداث.

وقل مثل هذا في سائر سور القرآن الكريم.

فكل سورة يتحد موضوعها أو تتداعى موضوعاتها تداعيًا شديدًا ويلتزم فيها نسق بعينه فيرجح أنها نزلت جملة.

وكل سورة تختلف موضوعاتها وتتباعد ولا تتداعى ولا يُلتزم في آياتها نسق بعينه فيرجح أنها نزلت منجمة.

والقرآن الكريم من عند الله، وهو وحدة في روحه وفي إعجازه مهما يختلف تنزيل سوره، ومهما تختلف موضوعات السور ومذاهب القول فيها.

واختلاف مذاهب القول في القرآن دليل قوي من دلائل

الإعجـاز. فللقـرآن وحدته من حيث إنه يدعـو دائمًا إلى أصول معينـة: إلـى توحيـد الله، ونبـذ الشـرك على اختـلاف صوره، والإيمـان بمحمد ﷺ وما جاء به من القرآن، والإيمان بالرسـل الذيـن جاءوا قبل محمد، وما أنزل عليهم من الكتب، والإيمان بالبعـث وبالحياة الآخـرة بعد هـذه الحياة الأولـى، وما يكون فيهـا من ثواب ونعيم لمن أجابـوا دعوة الله ومن عذاب وجحيم لمـن أعرضـوا عن هـذه الدعوة ونفـروا منها واسـتكبروا على الله ورسـوله، ثـم هو يأمر النـاس بأن يقيمـوا حياتهم على هذه الأسـس، حياتهـم فيمـا بينهم وبين نفوسـهم بحيـث يبرءون مـن الرذائـل كلها كبارهـا وصغارها فلا يضمرون في أنفسـهم منها شـيئًا، وحياتهـم الظاهرة فيما يكـون بينهم وبين غيرهم مـن الناس فلا يظلمون ولا يسـتعلون ولا يؤثرون الشـر، وإنما ينبذونـه ما اسـتطاعوا إلى نبذه سـبيلا، ويؤثـرون عليه الخير وحده فيحسـنون إلـى الوالدين ويتجنبون الإسـاءة إليهما حتى ولو كانا مشـركين، ففي هـذه الحال يخالفونهمـا إلى الإيمان ويعاشرونهما في الدنيا معروفًا، ويبرون أولي القربى ويرحمون اليتامـى والمسـاكين ويعطفون علـى الفقراء وأولـي الحاجة، ويعدلـون فيما بينهم وبيـن نظرائهم من صلـة، والناس جميعًا نظراؤهم مهما تكن منزلتهم الاجتماعية؛ فالفقير نظير الغني، والضعيف نظير القوي، والرقيق نظير الحر، لكل حقوق يجب أن تـؤدى إليه، وعلى كل واجبـات يجب أن يؤديها. والمهم أن يلائـم الإنسـان بين إيمانه بالله الواحد القوي العالم بكل شـيء

القادر على كل شيء وما أعد من خير للمحسنين وما أعد من شر للمسيئين أن يلائم بين إيمانه الصادق بهذا كله وبين ما يخفي وما يظهر من ذات نفسه وما يأتي من الأعمال وما يدع منها. ومن أجل هذا يشرع الله للناس في القرآن من الأحكام والأصول ما يبين لهم السبيل إلى هذه الملاءمة، ويمهد لهم الطريق إلى أن يقيموا حياتهم على السلم الكامل بينهم وبين الله ما عاشوا في هذه الدنيا.

والنفس المطمئنة التي ذكرها الله في سورة الفجر ودعاها إلى أن ترجع إلى ربها راضية مرضية وإلى أن تدخل في عباده وتدخل جنته إنما هي هذه النفس التي صدقت في إيمانها بالله ورسله وكتبه وثوابه وعقابه، وأخلصت هذا الإيمان واطمأنت إليه فعاشت في سلم مع الله لا تحاربه بالمعصية حربًا ظاهرة أو باطنة.

وأما النفوس الأخرى التي لم تطمئن إلى إيمان ولم تستقم على ما أمرت به وإنما جارت عن القصد، والتوت بها السبل فهي تظهر السلم وتضمر الحرب فتعلن الإسلام وتضمر الكفر أو تضمر الإيمان ولكنها لا تثبت له ولا تقوى عليه، وإنما تقترف الآثام وتجترح السيئات، وتستجيب لشهواتها فتجور وقد أمرت بالعدل، وتفجُر وقد أُمرت بالبر، وتعصي وقد أمرت بالطاعة.

كل هذه النفوس محاربة لله حربًا خفية أو ظاهرة بالقياس إلى الناس، ولكنها جلية بينة بالقياس إلى الله الذي يعلم خائنة

الأعين وما تخفى الصدور. وفي بيان ذلك يقول النبي ﷺ فيما روى الشيخان: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن».. يريد أن ارتكاب الكبائر لا يكون من الإنسان وهو مستحضر إيمانه بالله ورسوله وما أعد من ثواب وعقاب.. فلو استحضر الإنسان هذا الإيمان لصده عن الفواحش، ولكن غرائزه تطغى على نفسه كلها فتجور بها عن الطريق، ثم يثوب الإنسان إلى نفسه أحيانًا فيندم ويأسى ويتوب إلى الله ويسأله العفو والمغفرة.

إلى هذا كله وإلى أكثر من هذا كله، دعا الله في القرآن في تفصيل أي تفصيل، وفي ترغيب للراغبين وترهيب للراهبين، وتخويف للذين تغرهم أنفسهم وتزدان في أعينهم زهرة الحياة الدنيا فيفتنون بها، فلا غرابة في أن تختلف مذاهب القوم في القرآن باختلاف الموضوعات وباختلاف المقامات أيضًا، وإنما الغرابة في التزام مذهب واحد من مذاهب القول في التشريع والقصص والتبشير والإنذار والموعظة اللينة واللوم العنيف، وهذا التنوع في مذاهب القول بتنوع الموضوعات والمقامات هو الذي يسميه أصحاب البيان في اللغة العربية وفي غيرها أيضًا مطابقة الكلام لمقتضى الحال؛ فالإنذار بقيام الساعة وما يكون فيه من الهول، وبيوم الحساب وما يكون فيه من الشدة يقتضي أن يكون القول من القوة والأيد بحيث يملأ القلوب رعبًا ولا سيما حين يكون النذير متجهًا إلى الملحين في الإنكار

والعنـاد والمكابرة، وأنت تقرأ من هذا الإنذار الشـديد المروع في القرآن شـيئًا كثيرًا.. واقرأ إن شئت طائفة من السور القصار في آخـر المصحف فسـترى تصوير الهول قد بلغ مـن القوة ما يملأ النفوس رهبًا ورعبًا.

واقرأ إن شئت ما جاء في سورة التكوير والانفطار والانشقاق، وانظر إلى ما فيها من هذه الآيات القصار المتلاحقة التي تنصب على السـامعين كأنها الصواعـق المتتابعة، واقرأ إن شـئت في السور الطوال والقصار جميعًا بعض الآيات التي يستحضر فيها يوم الحسـاب وما يكون فيه مـن الهول المروع للمجرمين ومن الأمن الآمن للمؤمنين فسترى الشدة كل الشدة واللين كل اللين، وستراهما متجاورين وسـتحس كأنك تشهد ما أعد للمجرمين مـن هول، وما أعـد للمؤمنين من أمن فتضطرب نفسـك أشـد الاضطـراب بين الرهب والرغب وبيـن الخوف والأمن.. وقلما يفترق الترهيب والترغيب في القرآن، وإنما يوشكان أن يجتمعا دائمًـا، ولأمر ما كان هذا الاجتماع، فالله لا يوئس الكافرين من رحمته حتى يفتح لهم باب الأمل فيها، ويمد لهم أسبابه إليها، فليـس بين الكافر الجاحد المعاند الذي يرى عذابه كأنه حاضر بين يديه وبين الجنة ونعيمها إلا أن يؤمن.

فالكافر بين شـيئين يكاد يراهمـا رأي العين حين يتلى عليه القـرآن عن يمينه جنة فيها الأمن والرضا والنعيم، وعن شـماله النـار فيها الهول والروع والعـذاب وما عليه إلا أن يختار.. والله لا يوئـس المؤمن العاصـي وإنما يجعل بين يديـه خطيئته التي

تكبه على وجهه في النار وتوبته التي تسعى به إلى الجنة، والله يبين للكافرين وللعصاة من المؤمنين أنه غفور رحيم وأن رحمته وسعت كل شيء وأن السبيل إلى رحمته هو أن يؤمن الكافر وأن يتوب المؤمن ويصلح.. وكلاهما مختار بين ما يدخله الجنة وما يوقعه في النار.

وقف إن شئت عند كل موضوع عرض له القرآن فسترى من ملاءمة القول للموضوع وللمقام مثل ما بينت لك آنفًا.

ولو ذهبت أصف فنون الإعجاز في القرآن وملاءمة كل مذهب من مذاهب القول فيه لما فرغت من هذا الحديث.. والقرآن بعد ذلك بين يدي كل ذي بصيرة يستطيع أن يقرأه وأن يقف عند سوره وآياته متدبرًا متأملا مستبصرًا فسيرى من غير شك أني لم أبلغ من وصف القرآن وإعجازه بعض ما أريد، وإعجاز القرآن شيء يشعر به القلب وتمتلئ به النفس ويذعن له الضمير ويعجز عن وصفه القلم واللسان.

وواضح أني لم أرد في هذا الحديث إلا أن أصور تصويرًا مقاربًا موقع القرآن من قلوب الذين سمعوه حين كان النبي يتلوه على الذين استجابوا له والذين امتنعوا عليه، ولم يكن امتناعهم عليه إلا إمعانًا في العناد ولجاجًا في المراء.

ولننتقل الآن إلى الأصل الثاني من أصول الإسلام وهي السنة.

(٣)

أشــرت في أول الكتاب الثاني أن النبي ﷺ قد أرســل بشيرًا ونذيرًا وشــاهدًا علــى أمته وداعيًا إلى الله بإذنه وســراجًا منيرًا، كما نص الله -عز وجل- على ذلك في سورة الأحزاب.

وأريــد أن أبيــن في هذا الفصل أن ما ثبت من ســنة النبي قولا وعملا إنما هو خلاصة تبشيره وإنذاره وشهادته ودعوته إلى الله، وأن أبيــن أيضًا أن النبي كان كما أشــرت إلــى ذلك في أول هذا الكتــاب معلمًــا حياته كلها منذ بُعِث إلــى أن آثره الله بجواره.. كان يتلو القرآن على المســلمين ويفســر لهم منه ما يحتاج إلى تفســير ويفصل لهم منه مــا كان مجملا يحتــاج إلى التفصيل، وكان يعلــم أحيانًــا عن أمر الله له في القــرآن نصًّا. فالله يأمره أن ينبئ عباده بأنه هو الغفور الرحيم وبأن عذابه هو العذاب الأليم، وذلك في قوله من سورة الحجر:

﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ (الحجر: ٤٩، ٥٠)

ويأمــره أن يقــول لعباده إن ســألوه عن الله أنــه قريب يجيب دعوة الداعي إذا دعاه ويأمرهم أن يستجيبوا له ويؤمنوا به لعلهم أن يرشدوا، وذلك في قوله من سورة البقرة:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِي وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾

(البقرة: ١٨٦)

ويأمره أن يقول لعباده الذين يسـرفون على أنفسهم باقتراف الذنـوب: لا تقنطـوا من رحمـة الله لأنه يغفر الذنـوب جميعًا، ولأنه هو الغفور الرحيم، وذلك في قوله من سورة الزمر:

﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾

(الزمر: ٥٣)

وفـي غير آية من القـرآن الكريم يأمر الله النبي أن يعلم عباده أشـياء كثيرة مما يريد أن يعلموها، سـواء في ذلك ما كان أمرًا لهم بالخير، أو نهيًا لهم عن الشر، أو تثبيتًا لقلوبهم، أو عصمة لهم من اليأس والقنوط.

وأحيانًا يأمره أن يقول لهم أشياء ليس فيها أمر ولا نهي ولا تثبيت للقلوب، وإنما فيها مجرد العلم، مثل قوله في سورة الكهف:

﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾

(الكهف: ١٠٩)

فهو في هذه الآية لا يأمرهم ولا ينهاهم، ولا يثبت قلوبهم ولا يـذود عنهم اليأس، وإنما يعلمهم أن كلامه أزلي خالد لا سـبيل إلـى إحصائه ولا إلـى انقضائه، حتـى ولو حاول النـاس كتابته بمداد يشـبه في كثرته ما في البحـر من الماء، حتى ولو مد هذا البحر ببحر آخر مثله.

وفي موضع آخر من القرآن يذكر الله هذا المعنى في تفصيل أكثر وأشمل، ويتحدث هو إلى الناس في الآية الكريمة من سورة لقمان:

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

(لقمان : ٢٧)

وأحيانًا أخرى يوجه الله عز وجل الحديث إلى الناس ولا ينص أمره بتكليف النبي أن يعلمهم كذا أو كذا، ولكنه على ذلك قد اختاره لرسالته وأمره أن يبلغ ما أنزل إليه من ربه، وأن يبلغه كاملا كما أنزل إليه لا يزيد فيه ولا ينقص منه.

وهذا الأمر نفسه يقتضي أن يبلغ النبي نص ما أُنزل إليه كما أُلقي في قلبه، وأن يبينه للناس حين يحتاجون إلى بيانه، وهو بيَّنه للناس بما يلقي الله في قلبه من العلم.

فالله يأمر المؤمنين أن يقيموا الصلاة، ويأمرهم أن يؤتوا الزكاة، ولكنه لا يبين لهم في القرآن كيف تؤدى الصلاة، ولا يبين لهم مواقيتها في تفصيل، ولا يبين لهم عدد الركعات في كل صلاة، وإنما يعلم نبيه هذا كله بما يلقي في قلبه من المعرفة، وعلى النبي أن يعلم الناس مما علمه الله، ولا يخفي عليهم منه شيئًا يمكن أن ينفعهم في الدنيا والآخرة إن فعلوه، أو يمكن أن يضرهم في الدنيا أو الآخرة إن اقترفوه؛ فالنبي حين يصلي الصبح ركعتين بعد طلوع الفجر وقبل طلوع الشمس إنما يفعل ذلك عن أمر ربه، ويفعله لأداء واجب عليه، ثم ليعلم الناس كيف يؤدون ما يجب عليهم من الصلاة لله تعالى.

وقل مثل ذلك في سائر الصلوات المكتوبة، وهو حين يصلي بعض النوافل قبل أداء المكتوبة أو بعدها إنما يفعل ذلك عن

تعليـــم الله له، وليعلمه للناس علــى أنه ليس حتمًا عليهم بل هو مســتحب منهم، وهو حين يبين النصاب الذي تجب فيه الزكاة مــن المال، ومقــدار ما يطلب في هــذه الزكاة، إنمــا يبين ذلك للناس عن أمر ربه أيضًا.

وقــل مثل ذلك في كل ما أجمله القرآن وفصَّله النبي بتعليمه للنــاس بالقــول أحيانًــا وبالعمل أحيانًــا، وبهما جميعًــا أحيانًا أخرى.

وقــد بين الله للنــاس كيف يؤدون إليه حقــه عليهم من صيام رمضــان، فأمرهم أن يحيوا حياتهم المألوفــة ليلا حتى إذا تبين لهــم الخيط الأبيــض من الخيط الأســود من الفجــر صاموا عن الطعام وعن أشياء أخرى مما ألفوا إلى الليل.

ولكــن هذا الصيام الذي بينه الله وبيَّن ما رخص فيه لمن كان مريضًا أو على ســفر لم يفصل في القرآن كل التفصيل؛ فالناس يألفون أشــياء كثيرة في حياتهم كلها مبــاح لهم ولم يحظر الله علــى الناس مــن هذه الأشــياء في القــرآن إلا الطعام والشــراب والرفث، وفصَّل النبي للمؤمنين سائر ما يجب عليهم أو يحسن بهــم أن يجتنبــوه ومــا لا حرج فــي أن يأتوه، وقل مثــل ذلك في الحج، وفي كل ما أمر الله به أو نهى عنه إجمالا أو تفصيلا.

فقد كان النبي ﷺ إذن أول مفســر للقرآن، وهو فسر القرآن بالقــول وبالعمل، ولأمــر ما جعلت كتب الحديــث بين أبوابها بابًــا نقلــت فيه ما روي عن النبي ﷺ من قول أو عمل بمناســبة ســورة أو آية مــن القرآن، والله قد طلب إلى النــاس في القرآن أن

يؤمنوا به وبرسوله محمد ﷺ وبالأنبياء والرسل الذين جاءوا قبل محمد وبما أُنزل من كتب قبل القرآن، وأن يؤمنوا باليوم الآخر وما يكون فيه من الحساب والثواب والعقاب، وأن يؤمنوا بالملائكة؛ فقال في الآية الكريمة من سورة البقرة:

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾

(البقرة: ٢٨٥)

وقال في أول السورة نفسها في بيان المتقين:

﴿ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾

(البقرة: ٣-٥)

والله ذكر الإسلام فقال في سورة آل عمران:

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ ﴾

(آل عمران: ١٩)

وقال في سورة الأنعام

﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾

(الأنعام: ١٢٥)

وذكر الله في غير موضع من القرآن أن إبراهيم قد أسلم وجهه لله، وأنه لم يكن يهوديا ولا نصرانيا وإنما كان حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين. وقال في سورة آل عمران:

﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

(آل عمران: ٦٧، ٦٨)

وقال في سورة البقرة على لسان إبراهيم:

﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟

ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾

(البقرة: ١٢٨-١٣٧)

فـالله يثبت في هـذه الآيات دعـاء إبراهيم وإسـماعيل أثناء رفعهمـا القواعـد من البيـت أن يجعلهما الله مسـلمين له، وأن يجعل من ذريتهما أمة مسلمة له، وأن يبعث في هذه الأمة رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة، وينبئنا بعد ذلك بأن أبناءه وأحفاده ظلوا مسـلمين من بعده وأن يعقوب قد وصى بنيه بالإسلام وامتحنهم فيه حين حضره الموت.

ثم ينبئنا بأن أهل الكتاب يزعمون أن من أراد الهدى فعليه أن يكون يهوديا أو نصرانيا. ثم يأمر الله نبيه أن يرد عليهم بقوله:

﴿بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾

(البقرة: ١٣٥)

ويأمـر المؤمنين بـأن يعلنـوا إيمانهم بالرسـل والنبيين من قبلهم، وبما آتاهم ربهم من كتاب وعلم ودين وأنهم مسـلمون لله.

ويقول الله في سورة الحج:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ

حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ مِّلَّةَ
أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ
شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ
وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾

(الحج : ٧٧ ، ٧٨)

فإبراهيم إذن هو الذي سمى المؤمنين مسلمين، وهو أبوهم، وقد كان مسلمًا وقد قرأت آنفًا ما قص الله من دعائه في سورة البقرة، ودعاء إسماعيل معه، حين سألا ربهما أن يجعلهما مسلمين له ويجعل من ذريتهما أمة مسلمة له.

فالله إذن قد ذكر الإيمان والإسلام في هذه الآيات التي تلوناها ولم يفرق بينهما. كلاهما فيه إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والجهاد في سبيل الله وفعل الخير، وأداء كل ما يأمر الله به، واجتناب كل ما نهي الله عنه والله قد ذكر الإيمان والإسلام في آيات أخرى كثيرة من القرآن ولم يفرق بينهما فقال في سورة (المؤمنون) يصف الذين آمنوا حق الإيمان وهو بذلك يعرّف الإيمان تعريفًا عمليا بأنه أداء ما أمر الله به واجتناب ما نهى الله عنه:

﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ
هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ
هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ
فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ
﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ

يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ
فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

(المؤمنون: ١ - ١١)

ويقول الله في سورة الأحزاب:

﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾

(الأحزاب: ٣٥)

فهو في هذه الآية يعطف المؤمنين على المسلمين وفي هذا العطف إشارة إلى أن بين الإسلام والإيمان شيئًا من الاختلاف، وليس من الضروري أن يكون هذا الاختلاف تناقضًا أو تغايرًا بين اللفظين، وإنما يمكن أن يأتي الاختلاف من أن بين معنى هاتين الكلمتين شيئًا من الافتراق في الزيادة والنقص. فمعنى إحدى الكلمتين أكمل من معنى الكلمة الأخرى. ثم يعدد الله في هذه الآية الكريمة صفات كلها يدخل في معنى الإيمان وفي معنى الإسلام، فهي تدل على أوامر من الله يجب أن تؤدى، ونواهي من الله يجب أن يجتنب ما تنهى عنه.

على أن الله يوضح الفرق بين الإسلام والإيمان توضيحًا لا يحتمل نزاعًا في قوله من سورة الحجرات:

﴿ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾

(الحجرات: ١٤)

فأولئك الأعراب الذين أعلنوا أنهم آمنوا، يأمر الله نبيه أن يرد عليهم بأنهم لم يؤمنوا، ويأذن لهم في أن يقولوا أسلمنا، وإن كان الإيمان لم يدخل في قلوبهم بعد، ثم يعلن إليهم أنهم إن يطيعوا الله ورسوله لا ينقصهم الله من أعمالهم شيئًا وإنما يوفيهم أجر ما عملوا كاملا يوم القيامة ذلك أن الله غفور رحيم.

وإذن فقد كان في عهد النبي ﷺ مؤمنون ومسلمون فما عسى أن يكون الفرق بين الإيمان والإسلام؟ فأما الإيمان فالظاهر من هذه الآية الكريمة نفسها، أنه شيء في القلوب قوامه إخلاص الدين لله من دخيلة النفس، واستقرار التصديق بوجوده وبإرساله النبي وبكل ما أوحى إليه في أعماق الضمير. ونتيجة هذا الإيمان الاستجابة لله ولرسوله في كل ما يدعوان إليه، من غير جمجمة ولا لجلجة ولا تردد مهما تكن الظروف والخطوب والكوارث والأحداث على نحو ما ذكر الله من أمر المؤمنين الذين استجابوا لله والرسول من بعدما أصابهم القرح يوم أحد، فخرجوا مع النبي في أعقاب المشركين من قريش، على ما أصابهم من حزن، وما بذلوا في الموقعة من جهد وما كانوا عليه من قلة وضعف، والذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم هذا القول إيمانًا، وصمموا على اتباع النبي وقالوا حسبنا الله ونعم

الوكيل. وذلك في قول الله -عز وجل- في سورة آل عمران، بعد أن ذكر حياة الشهداء عنده:

﴿ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾

(آل عمران: ١٧٠ - ١٧٤)

ولازمة أخرى من لوازم هذا الإيمان ذكرها الله في سورة الأنفال، هي الخوف العميق من الله إذا ذكر اسمه، والثقة العميقة بالله إذا جد الجد، وازدياد التصديق إذا تليت آيات الله. وذلك في قوله:

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾

(الأنفال: ٢)

فهذا هو الإيمان صورناه تصويرًا مقاربًا، فأما الإسلام فهو الطاعة الظاهرة لما أمر الله ورسوله به وما ينهيان عنه، بأداء الواجبات واجتناب المحظورات، وإن لم يبلغ الإيمان الصادق من القلب المبلغ الذي وصفه الله في الآيات الكريمة التي أثبتناها

آنفًا فمن الناس من يسلمون خوفًا من البأس، كما أسلم الطلقاء من قريش يوم فتح مكة، ومنهم من يسلم خوفًا وطمعًا كالأعراب الذين ذكرهم الله في سورة الحجرات، وجائز أن يصير هذا الإسلام إلى الإيمان على مر الزمن ومن أجل ذلك اصطنع الله لفظ (لما) في قوله في الآية التي أثبتناها آنفًا بشأن هؤلاء الأعراب:

﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ (الحجرات: ١٤)

فكل مؤمن مسلم، لأنه يصدق تصديقًا عميقًا ويطيع الطاعة الظاهرة والباطنة وليس كل مسلم مؤمنا والإسلام كما شرحناه آنفًا هو الذي يعصم نفوس أصحابه وأموالهم من النبي ومن أولي الأمر بعده إلا بحقها وحسابهم على الله.

ذلك أن النبي كان كثيرًا ما يُستأذن في قتل المنافقين أو من يظهر منهم الشك فيأبى ويقول إني لم أومر بالتنقيب عما في قلوب الناس.

والإيمان يزيد وينقص ولا داعي لتكلف الدليل على ذلك فقد نص الله ذلك في القرآن في الآية التي أثبتناها آنفًا من سورة الأنفال حيث يقول:

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾

(الأنفال: ٢)

وفي الآية التي أثبتناها أيضًا من سورة آل عمران حيث يقول الله:

﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ (آل عمران: ١٧٣)

وما تجوز عليه الزيادة يجوز عليه النقص ومن أجل هذا يذكر في حديث الشفاعة أن الله يقول لنبيه حين يشفع عنده في أمته : اذهب فأخرج من النار من كان في قلبه مقدار حبة من إيمان ، ثم يقول له آخر الأمر : اذهب فأخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان .

والإسلام كذلك يضيق ويتسع فإسلام إبراهيم -عليه السلام- لم يكن طاعة ظاهرة تؤديها الجوارح وإنما كان طاعة واسعة عميقة تملأ القلب وتمتزج بالنفس وتسخر لها الجوارح ويقدم لها على مالا يقدم الناس عليه إلا بالجهد كل الجهد واستكراه النفس عليه أشد الاستكراه ، ومن أجل ذلك قدم إبراهيم ابنه ضحية ، وكاد يبلغ من ذلك غايته لولا أن كفه الله عن ذلك فناداه : أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا ثم فداه بذبح عظيم .

وكان النبي ﷺ مسلما وكان سائر الأنبياء مسلمين كما رأيت منذ حين ، فلم يكن إسلام الأنبياء جميعا طاعة ظاهرة وإنما كان إسلامهم أوسع وأعمق وأصدق ما يمكن أن يكون الإسلام ، وإسلام الصالحين من أصحاب النبي كذلك لم يكن كإسلام الأعراب ضيقا يقف عند الطاعة الظاهرة وإنما كان أوسع وأعمق من هذا .

ومن أجل ذلك تحدث الله عنهم في القرآن حين قال في سورة الفتح :

﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾
(الفتح : ١٨)

فهم قد كانوا بايعوا رسول الله على الموت طابت أنفسهم عن ذلك ؛ استجابة لله ورسوله وتحدث الله عنهم أيضا بأنه رضي عنهم ورضوا عنه.

وللإسلام بعد ذلك معنى آخر أخص جدا من هذا، فهو علم على الدين الذي يرضاه الله لعباده.

وقد نص الله على ذلك في قوله من سورة المائدة:

﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ﴾ (المائدة: ٣)

وفي قوله من سورة آل عمران:

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾

(آل عمران: ١٩)

وقد ذكر الله شيئا ثالثا في القرآن وهو الإحسان وذلك في قوله من سورة النحل:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾

(النحل: ٩٠)

وفي الآية التي أثبتناها من سورة آل عمران حيث يقول:

﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (آل عمران: ١٧٢)

وفي كل آية ذكر الله فيها:

﴿لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (التوبة: ١٢٠)

أو أنه (يجزى المحسنين)

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾

(آل عمران: ١٣٤)

كل هذا يدل على الإحسان لأن لفظه مشتق منه ولأن معناه يلائم ما أمر الله به.

والإحسان هو أن يبلغ الإنسان في الطاعة حتى يصل منها إلى أقصى ما يطيق لا يفتر ولا يكسل ولا يقصر بل يجتهد بقلبه ونفسه وجوارحه ما وجد إلى الاجتهاد سبيلا.

فهذه كلمات ثلاث في القرآن، الإيمان والإسلام والإحسان، يكثر استعمالها وتتقارب معانيها وقد عرفها النبي ﷺ فلم يجعل في واحدة منها شكا وذلك في الحديث الذى رواه الشيخان عن طلحة بن عبيد الله قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ من أهل نجد ثائر الرأس يُسمع دوي صوته ولا يفقه ما يقول، حتى دنا فإذا هو يسأل عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «خمس صلوات في اليوم والليلة فقال: هل عليّ غيرها؟ قال: لا، إلا أن تتطوع، قال رسول الله ﷺ: وصيام رمضان قال: هل عليّ غيره؟ قال: لا، إلا أن تتطوع قال: وذكر له رسول الله ﷺ الزكاة، قال: هل عليّ غيرها؟ قال: لا، إلا أن تتطوع قال: فأدبر الرجل وهو يقول: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص قال رسول الله ﷺ: أفلح إن صدق».

فهذا الحديث يفسر الإسلام الذي كان عليه الأعراب، وهو هذه الطاعة الظاهرة في أداء الفرائض واجتناب المحظورات.

ولكن لأبـي هريرة حديثا أجمع من حديـث طلحة، وقد رواه الشـيخان أيضا قال أبو هريرة، كان النبـي ﷺ بارزا يوما للناس فأتاه رجل فقال: ما الإيمان؟ «قال: الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وبلقائه وبرسله وتؤمن بالبعث، قال: وما الإسلام؟ قال: الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به وتقيم الصلاة وتؤدي الزكاة المفروضة وتصوم رمضان قال: ما الإحسـان؟ قـال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، قال: متى الساعة؟ قال: ما المسئول عنهـا بأعلم من السـائل، وسـأخبرك عـن أشـراطها، إذا ولدت الأمة ربهـا وإذا تطاول رعاة الإبل البهم في البنيان، في خمس لا يعلمهـن إلا الله، ثم تلا النبـي ﷺ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ ﴾ (لقمان: ٣٤) الآية، ثم أدبر فقال: ردوه فلم يروا شيئا فقال: هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم».

والقسم الأول من الحديث هو الذي يعنينا لأنه مطابق للقرآن فالإيمـان -كمـا وصفه النبـي ﷺ هو الذي ذكـره الله في الآية المتقدمة من سورة البقرة، وكذلك الإسلام والإحسان والله عنده علم السـاعة -ما في ذلك شـك- لأنه منصوص فـي القرآن فأما أشـراطها التي جـاءت في الحديث وأن الرجل الذي جاء يسـأل النبي كان جبريل أقبل يعلم الناس دينهم.

وفـي حديث آخـر -يرويه الشـيخان عن عبـد الله بن عمر- يذكـر النبي الأركان الخمسـة للإسـلام فيقول: «بني الإسـلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان».

وهذه الأركان كغيرها من الأعمال التي أمر الله بها أو ندب إليهـا ، والتي علمها النبي لأصحابه لا تُقبل من أصحابها إلا إذا حسـنت نيتهم وصدق إيمانهم حين يؤدونها ، ومن أجل ذلـك قال النبـي في الحديث الذي يروى عـن عمر ، والذي يوشـك ثقـاة المحدثيـن أن يجمعوا على صحتـه حتى قال بعضهم إنـه متواتر : «إنما الأعمال بالنيـات ، وإنما لامرئ مـا نـوى ، فمن كانت هجرتـه إلى الله ورسـوله فهجرته إلى الله ورسـوله ، ومـن كانت هجرته إلى دنيـا يصيبها أو امرأة يتزوجهـا فهجرته إلى مـا هاجر إليه» (صحيـح البخاري) ومعنـى ذلـك أن إخـلاص النيـة لله فيما يؤدي الإنسـان من الفرائـض : ومـا يأتي من أعمـال الخير والبر شـرط لصحة مـا يأتي ومـا يدع ، وقبول ذلـك من الله –عز وجـل– والنية لا تكون بالألسـنة وحدها وإنما يجـب أن تكون في أعماق القلوب سواء أنطق بها الإنسان أم لم ينطق.

ومن أجل هذا كله تأذن الله أن أعمال المنافقين لا تقبل ، وأنبأ بأنهم في الدرك الأسفل من النار وقال لنبيه :

﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾

(التوبة : ٨٠)

ونهـاه آخر الأمر عـن أن يصلي على أحد منهـم مات أبدا أو يقـوم على قبـره ، ذلك لأنهم كانـوا يقولـون بأفواههم ما ليس فـي قلوبهم ، يعلنون الإيمـان ويبطنون الكفر وكانـوا إذا قاموا

إلى الصلاة قاموا كسالى لا ينشطون لها ولا يقبلون عليها من قلوبهم، كأنما كانوا يستكرهون عليها استكراها.

ولم يكتف النبي بتعليم الناس حقائق الإيمان والإسلام والإحسان وإنما كان يعلمهم خصائص هذه الخصال الثلاث، وما ينبغي لأصحابها من العمل وما يجب عليه أن يجتنب في خاصة حياته وفى صلاته بالناس، فكان يعلمهم أن الإنسان لا يؤمن حتى يحب لأخيه المؤمن ما يحب لنفسه، وكان يعلمهم أن من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا ينبغي له أن يؤذي جاره، ولا أن يقصر في إكرام ضيفه، وكان يعلمهم أن جائزة الضيف يوم وليلة، وأن الضيافة ثلاثة أيام، وأن ما زاد على هذه الأيام الثلاثة من القرى فهو صدقة على الضيف.

وكان يعلمهم حتى الأشياء التي بينها الله في القرآن بيانا لا لبس فيه، فالله قد بين الوضوء في الآية الكريمة من سورة المائدة:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾

(المائدة: ٦)

فالله قد بيــن للناس في هذه الآية كيف يتوضئون للصلاة وأن عليهم أن يغتســلوا إن كانوا جنبا ، فإن لم يجدوا الماء للوضوء أو للاغتســال أو كان الماء يؤذيهم إن اصطنعوه لمرض يمنعهم من اصطناعه ، أو كانوا مســافرين فلهم أن يمســوا صعيدا طيبا وأن يمسحوا منه وجوههم وأيديهم إلى المرافق فذلك يجزئهم عن الوضوء والغســل جميعا ، ثم بين الله تعالى في آخر الآية أنه لا يريد أن يشق على عباده وإنما يريد منهم أن يطهروا .

وعلــى رغم ما في هــذا كله من الوضوح فقــد كان النبي ﷺ يتوضــأ للنــاس ليريهم كيــف يتوضئون وكان يتيمــم لهم أيضا ليريهــم كيف يتيممــون ، وكان يذكر لهم كيف يغتســلون كل هــذا ليكون المســلمون على ثقة مما يأتــون ويدعون ، وليكون النبي مؤديا لرســالته على أتم وجه وأحســنه ، وكان يلح عليهم في النظافة نظافة أجسامهم وثيابهم ومجالسهم بل نظافتهم في حياتهــم مع الناس ، فــكان ينهى الذين يأكلــون البصل أو الثوم أو أي شــيء تؤذي رائحته أن يدخلوا المســجد ويشــهدوا صلاة الجماعــة ، حتى لا يــؤذي بعضهم بعضــا وكان يرخص لهم في الصلاة فرادى فــي بيوتهم حتى يذهب عنهم ما يمكن أن يؤذي جلســاءهم ، وكان يلح عليهم في أن تكون طرقهم التي يمشون فيها نظيفة ، وينبئهم بأن إماطة الأذى عن الطريق فضيلة يكمل بها الإيمان .

وكان يكــره لمن عنده فضل من الماء أن يمنعه ابن الســبيل ومن تشتد حاجته إليه .

ثم كان يحثهم على الأمانة في معاملاتهم كلها في حفظ الودائع وأدائها إلى أصحابها وفى البيع والشراء وفى جميع أقوالهم وأعمالهم وكان يشدد عليهم في العدل في صلاتهم كلها، ويحرج على المختصمين بين يديه أن يجور بعضهم على بعض ولو بفصاحة الألسنة والبراعة في الجدل، وكان ينبئهم بأن من غلب خصمه باللسن أو قوة العارضة ثم قضى له بغير ما يستحق فإنما قضى له بقطعة من النار.

وكان بهذا كله ينفذ فيهم قول الله تعالى في سورة النساء:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾

(النساء: ٥٨)

وكان يشدد في تخويف أولى الأمر من الأئمة والولاة والقضاة بالعذاب الشديد إن جاروا في الرعية ولم يرفقوا بها ولم يرعوا العدل في أحكامهم تنفيذا لقول الله في الآية الكريمة من سورة النحل:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

(النحل: ٩٠)

ولم يكن شيء أبغض إليه من نقض العهود والحنث في الإيمان يبين للناس قول الله من سورة النحل:

﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا

تَفۡعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍۚ إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴾ (النحل: ٩١، ٩٢)

وكان شديد الحياء جدا وكان شديدا فيه على أصحابه، وكان يقول لهم إن الحياء شعبة من الإيمان، ثم كان لا يدع صغيرة أو كبيرة من أعمال الناس في حياتهم العامة والخاصة إلا بين لهم ما يحسن أن يأتوا منها، وما يحسن أن يتركوا، وكان يعظهم فيبلغ في الموعظة حتى يوشك أن يشرف بهم على اليأس، ثم يبشرهم فيبلغ في تبشيرهم حتى يفتح لهم أبواب الرجاء على مصاريعها، وكان كثيرا ما يقول لأصحابه: لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا.

ثم كان يحب اليسر في الأمر كله لا يخير بين أمرين إلا اختار أيسرهما، وكان يقول لأصحابه إنما بعثتم ميسرين لا معسرين، وكان يكره الغلو في الدين وتجاوز القصد في العبادة، بلغه أن رجلا من أصحابه ومن خيارهم هو عبد الله بن عمرو بن العاص أزمع أن يصوم الدهر ويقوم الليل فراجعه في ذلك أشد المراجعة، وذكره بأن لجسمه عليه حقا ولأهله عليه حقا وما زال به حتى ألزمه بعد ما رأى من تشدده أن يصوم يوما ويفطر يوما، وأنبأه أن ذلك كان صيام نبي الله داود.

وأبى على رجل من كرام أصحابه هو عثمان بن مظعون أن يترهب ويعتزل أهله وكان هو يشتد على نفسه في العبادة فيقوم

كثيــرا من الليــل، وربما واصل بيــن الليل والنهــار في صيامه، وكان أصحابه يريدون أن يصنعوا صنيعه فينهاهم عن ذلك أشد النهي كراهة أن يشددوا على أنفسهم فيشدد الله عليهم، ويقول لهــم في مواصلة الصوم: إني لســت كهيئتكم إني أظل يطعمني ربــي ويســقين، يريد أن الله يمنحــه من الصبر والجلد وحســن الاحتمال مالا يمنح غيره من أصحابه.

ونحن نروي لك شــيئا من موعظته لأصحابه لترى كيف كان يبلغ بوعظه أعماق النفوس ودخائل الضمائر.

قال لأصحابه ذات غداة:

«إنــه أتاني الليلة آتيان وإنهما ابتعثاني وإنهما قالا لي انطلق، وإني انطلقت معهما، وأنا أتينا على رجل مضطجع وإذا آخر قائم عليه بصخرة وإذا هو يهوي بالصخرة لرأسه فيثلغ رأسه فيتهدهد الحجــر ها هنا، فيتبع الحجر، فيأخــذه فلا يرجع إليه حتى يصح رأسه كما كان ثم يعود عليه فيفعل به مثل ما فعل المرة الأولى.

قال: قلت لهما: سبحان الله! ما هذان؟

قال: قالا لي: انطلق.

قال: فانطلقنا، فأتينا على رجل مســتلق لقفاه وإذا آخر قائم عليه بكوب من حديد وإذا هو يأتي أحد شــقي وجهه فيشرشــر شدقه إلى قفاه ومنخره إلى قفاه وعينه إلى قفاه.

قــال: ثم يتحــول إلى الجانب الآخــر فيفعل به مثــل ما فعل بالجانــب الأول فمــا يفرغ من ذلــك الجانب حتــى يصح ذلك الجانب كما كان، ثم يعود عليه فيفعل مثل ما فعل المرة الأولى.

قال : قلت : سبحان الله ! ما هذان ؟

قـال : قالا لي : انطلق فانطلقنا ، فأتينـا على مثل التنور ، فإذا فيه لغط وأصوات .

قال : فاطلعنا فيه ، فإذا فيه رجال ونساء عراة ، وإذا هم يأتيهم لهب من أسفل منهم فإذا أتاهم ذلك اللهب ضوضوا[١٨] .

قال : قلت لهما : ما هؤلاء ؟

قال : قالا لي : انطلق ، انطلق .

قـال : فانطلقنا فأتينا علـى نهر أحمر مثل الدم وإذا في النهر رجل سـابح يسـبح ، وإذا على شـط النهر رجل قـد جمع عنده حجارة كثيرة وإذا ذلك السـابح يسـبح ما يسبح ، ثم يأتي ذلك الذي قد جمع عنده الحجارة فيفغر له فاه فيلقمه حجرًا فينطلق يسبح ثم يرجع إليه كلما رجع إليه فغر له فاه فألقمه حجرًا .

قال : قلت لهما : ما هذان ؟

قال : قالا لي : انطلق ، انطلق .

قـال : فانطلقنا فأتينا على رجـل كريه المرآة ، كأكره ما أنت راء رجلًا مرآة ، وإذا عنده نار يحشها ويسعى حولها .

قال : قلت لهما : ما هذا ؟

قال : قالا لي : انطلق ، انطلق .

قال : فانطلقنا فأتينا على روضة معتمة فيها من كل نور الربيع وإذا بيـن ظهري الروضة رجل طويل لا أكاد أرى رأسـه طولًا في السماء وإذا حول الرجل من أكثر ولدان رأيتهم قط .

---

(١٨) أي ضجوا وصاحوا.

قال : قلت لهما : ما هذا ؟ ما هؤلاء ؟

قال : قالا لي : انطلق ، انطلق .

قال : فانطلقنا فأتينا إلى روضة عظيمة لم أر روضة قط أعظم منها ولا أحسن .

قال : قالا لي : ارق فيها .

قال : فارتقينا فيها فانتهينا إلى مدينة مبنية بلبن ذهب ولبن فضة فأتينا باب المدينة فاستفتحنا ففتح لنا فدخلناها فتلقانا فيها رجال شطر من خلقهم كأحسن ما أنت راء ، وشطر كأقبح ما أنت راء .

قال : قالا لهم : اذهبوا فقعوا في ذلك النهر .

قال : وإذا نهر معترض يجري كأن ماءه المحض في البياض .

فذهبوا فوقعوا فيه ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء عنهم فصاروا في أحسن صورة .

قال : قالا لي : هذه جنة عدن وهذا منزلك .

قال : فسما بصري صعدا فإذا قصر مثل الربابة البيضاء .

قال : قالا لي : هذاك منزلك .

قال : قلت لهما : بارك الله فيكما ، ذراني فأدخله ، قالا : أما الآن فلا وأنت داخله .

قال : قلت لهما : فإني قد رأيت الليلة عجبًا فما هذا الذي رأيت ؟

قال : قالا لي : أما إنا سنخبرك ، أما الرجل الأول الذي أتيت عليه يثلغ رأسه بالحجر ، فإنه الرجل يأخذ القرآن فيرفضه وينام

عــن الصــلاة المكتوبة ، وأما الرجــل الذي أتيت عليه يشرشــر شدقه إلى قفاه ومنخره إلى قفاه وعينه إلى قفاه فإنه الرجل يغدو من بيته فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق ، وأما الرجال والنساء العراة الذيــن في مثــل بناء التنور فإنهــم الزناة والزوانــي ، وأما الرجل الذي أتيت عليه يســبح في النهــر ويلقم الحجر فإنه آكل الربا ، وأما الرجل الكريه المرآة الذي عند النار يحشها ويسعى حولها فإنــه مالك خــازن جهنم ، وأما الرجل الطويــل الذي في الروضة فإنه إبراهيم ﷺ وأما الولدان الذين حوله فكل مولود مات على الفطرة .

قال : فقال بعض المسلمين : يا رسول الله أو أولاد المشركين !

فقال رسول الله ﷺ : وأولاد المشركين .

وأما القوم الذين كانوا : شــطر منهم حسن وشطر منهم قبيح فإنهم قوم خلطوا عملًا صالحًا وآخر سيئًا تجاوز الله عنهم .

وهــذا الحديث يرويــه البخاري بالنص الــذي رويناه ويوافقه عليــه مســلم ، وتظهــر فيــه الصحة لأنــه لا يعدو ما أنــذر الله به المذنبيــن من ألوان العــذاب إلا أن يتوبــوا ويصلحوا ، ولأن قوة لفظه وحسن تمثيله وإشراق عبارته كل ذلك يلائم ما نعرف من فصاحة النبي وروعة بيانه .

ففكــر فــي موقع هذا الــكلام من قلوب أصحــاب النبي حين ســمعوه وكيف خوف حتى ملأ القلوب رعبًا ، وكيف رغب حتى ملأ النفوس أملًا .

وكان النبــي ﷺ ربما عاقب بعض أصحابه فأبلغ في عقابهم

عـن أمر الله لـه بذلك إمعانًا فـي تأديبهم وضنا بهم أن يشـبهوا المنافقين في قليل أو كثير .

فهـؤلاء الثلاثة الذين كانوا مـن خيار أصحابه والذين تخلفوا عـن النبـي ولم يخرجـوا معه في غـزوة تبوك ، وإنمـا أقاموا في المدينـة وانتظروا فيهـا عودة النبي إليها فصنعوا صنيعًا يشـبه صنيـع المنافقين مـن أهل المدينـة وممن حولها مـن الأعراب أولئك الذين رغبوا بأنفسـهم عن رسـول الله واسـتحبوا الراحة على العناء والجهد وأشـفقوا على أنفسهم من عواقب الحرب ، وأولئـك الذيـن ذكرهـم الله فـي آيات كثيـرة من سـورة التوبة يلومهم ويعنفهـم ويأمر نبيه ألا يصلي عليهم إن ماتوا ولا يقوم علـى قبورهم ويأمره كذلك ألا يقبل منهم الخروج معه بعد هذا الذنب .

وقد كره الله ورسوله لهؤلاء الثلاثة من المؤمنين الصادقين أن يظهر من صنيعهم شيء يشبه قليلًا أو كثيرًا صنيع المنافقين .

وقـد ذكـر الله توبته على هـؤلاء الثلاثة ولكن بعـد أن أدبهم النبـي فأبلـغ في تأديبهـم نصحًا لهـم أولًا وموعظـة للمؤمنين الصادقين بعد ذلك .

والآيتـان اللتان ذكرت فيهما توبة الله على هؤلاء الثلاثة هما قول الله -عز وجل- :

﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١١٧ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ

خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

(التوبة: ١١٧، ١١٨)

وكان كعب بن مالك الأنصاري وأحد المنافحين عن النبي بشعره أحد هؤلاء الثلاثة، وقد حفظ لنا الشيخان قصة تخلفه كما تحدث هو بها وليس أبلغ منها في بيان تأديب النبي لأصحابه فنرويها لك هنا؛ لترى كيف كان النبي يشتد على الصادقين من أصحابه حين تجب الشدة عليهم تمحيصًا لقلوبهم وتنقية لضمائرهم.

قال كعب: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك غير أني كنت تخلفت في غزة بدر ولم يعاتب أحدًا تخلف عنها، إنما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد.

ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام وما أحب أن لي بها مشهد بدر وإن كانت بدر أذكر في الناس منها، كان من خبري أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر حين تخلفت عنه في تلك الغزاة، والله! ما اجتمعت عندي قبله راحلتان قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة، ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة غزاها رسول الله ﷺ في حر شديد، واستقبل سفرًا بعيدًا ومفازًا وعدوًا كثيرًا فجلى للمسلمين أمرهم؛ ليتأهبوا أهبة غزوهم

فأخبرهم بوجهه الذي يريد والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير ولا يجمعهم كتاب حافظ -يريد الديوان- .

قال كعب : فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن يستخفي له ما لم ينزل فيه وحي الله ، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال وتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه ، فطفقت أغدو لكي أتجهز معهم فأرجع ولم أقض شيئًا فأقول في نفسي : أنا قادر عليه فلم يزل يتمادى بي حتى اشتد بالناس الجد فأصبح رسول الله ﷺ والمسلمون معه ، ولم أقض من جهازي شيئًا ، فقلت أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم ألحقهم فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز فرجعت ولم أقض شيئًا ، ثم غدوت ثم رجعت ولم أقض شيئًا ، فلم يزل بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو وهممت أن أرتحل فأدركهم وليتني فعلت ! فلم يقدر لي ذلك فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفت فيهم أحزنني أني لا أرى إلا رجلًا مغموصًا عليه النفاق أو رجلًا ممن عذر الله من الضعفاء ، ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك فقال وهو جالس في القوم بتبوك : « ما فعل كعب » ؟ فقال رجل من بني سلمة : يا رسول الله ! حبسه برداه ونظره في عطفه ، فقال معاذ بن جبل : بئس ما قلت والله يا رسول الله ! ما علمنا عليه إلا خيرًا فسكت رسول الله ﷺ .

قال كعب بن مالك : فلما بلغني أن توجه قافلًا حضرني همي . وطفقت أتذكر الكذب وأقول : بماذا أخرج من سخطه غدًا ؟ واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي ، فلما قيل

إن رسـول الله ﷺ قـد أظل قادمًا زاح عنـي الباطل، وعرفت أني لـن أخرج منه أبدًا بشـيء فيـه كذب، فأجمعـت صدقه وأصبح رسول الله ﷺ قادمًا وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فيركع فيـه ركعتين ثم جلس للنـاس، فلما فعل ذلك جـاءه المخلفون فطفقـوا يعتذرون إليه ويحلفون له وكانوا بضعة وثمانين رجلًا، فقبـل منهـم رسـول الله ﷺ علانيتهـم وبايعهم واسـتغفر لهم ووكل سـرائرهم إلى الله فجئته، فلما سـلمت عليه تبسم تبسم المغضب، ثم قال: «تعال فجئت أمشـي حتى جلست بين يديه فقـال لي: ما خلفك؟ ألم تكن قـد ابتعت ظهرك؟ فقلت: بلى، إني والله لو جلسـت عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرج من سـخطه بعذر، ولقد أعطيت جـدلًا، ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني، ليوشـكن الله أن يسـخطك عليّ ولئن حدثتك حديث صـدق تجد عليّ فيه، إني لأرجو فيه عفو الله. لا والله ما كان لي من عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك، فقال رسول الله ﷺ: أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك، فقمت وثار رجال من بني سـلمة فأتبعوني، فقالوا لـي: والله! ما علمناك كنت أذنبت ذنبًـا قبـل هذا، ولقد عجـزت ألا تكون اعتذرت إلى رسـول الله ﷺ بمـا اعتذر إليه المتخلفون، قد كان كافيك ذنبك اسـتغفار رسول الله ﷺ لك، فوالله! مازالوا يؤمنونني حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي ثم قلت لهم: هل لقى هذا معي أحد؟ قالوا: نعم. رجلان قالا مثل ما قلت، فقيل لهما مثل ما قيل لك، فقلت: من

هما؟ قالوا، مرارة بن الربيع العمري وهلال بن أمية الواقفي، فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرًا فيهما أسوة، فمضيت حين ذكروهما لي.

ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت في نفسي الأرض فما هي التي أعرف فلبثنا على ذلك خمسين ليلة.

فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد، وآتى رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة فأقول في نفسي: هل حرك شفتيه برد السلام عليّ أم لا! ثم أصلي قريبًا منه فأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إليّ، وإذا التفت نحوه أعرض عني حتى إذا طال عليّ ذلك من جفوة الناس، مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة وهو ابن عمي وأحب الناس إلى فسلمت عليه، فوالله ما رد عليّ السلام فقلت: يا أبا قتادة! أنشدك بالله! هل تعلمني أحب الله ورسوله؟ فسكت فعدت له فنشدته فسكت، فعدت له فنشدته، فقال: الله ورسوله أعلم، ففاضت عيناي وتوليت حتى تسورت الجدار.

قال: فبينا أنا أمشي بسوق المدينة إذا نبطي من أنباط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل على كعب بن مالك؟ فطفق الناس يشيرون له حتى إذا جاءني دفع إلي كتابًا من ملك غسان، فإذا فيه أما بعد، فإنه قد بلغني

أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك فقلت لما قرأتها: وهذا أيضًا من البلاء، فتيممت بها التنور فسجرته بها حتى إذا مضت أربعون ليله من الخمسين، إذا رسولُ رسول الله ﷺ يأتيني فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك، فقلت: أطلقها؟ أم ماذا أفعل؟ قال: لا بل اعتزلها ولا تقربها وأرسل إلى صاحبيّ مثل ذلك فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك، فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر.

قال كعب: فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم فهل تكره أن أخدمه! قال: لا. ولكن لا يقربك. قالت: إنه والله ما به حركة إلى شيء. والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان، إلى يومه هذا. فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه! فقلت: والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ. وما يدريني ما يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها. وأنا رجل شاب؟ فلبثت بعد ذلك عشر ليال حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا. فلما صليت صلاة الفجر، صبح خمسين ليلة وأنا على ظهر بيت من بيوتنا. فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله قد ضاقت عليّ نفسي وضاقت عليّ الأرض بما رحبت سمعت صوت صارخ أوفى على جبل سلع، بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر. قال: فخررت ساجدًا

وعرفت أن قد جاء فرج. وآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر. فذهب الناس يبشروننا وذهب قِبَل صاحبي مبشرون وركض إلى رجل فرسًا وسعى ساع من أسلم فأوفى على الجبل. وكان الصوت أسرع من الفرس. فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبي، فكسوته إياهما ببُشراه. والله! ما أملك غيرهما يومئذ. واستعرت ثوبين فلبستهما. وانطلقت إلى رسول الله ﷺ. فيتلقاني الناس فوجًا فوجًا، يهنئونني بالتوبة يقولون: لتهنك توبة الله عليك.

قال كعب: حتى دخلت المسجد. فإذا رسول الله ﷺ جالس حوله الناس. فقام إليّ طلحة بن عبيد الله يهرول وهنأني والله ما قام إليّ رجل من المهاجرين غيره. ولا أنساها لطلحة.

قال كعب: فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ وهو يبرق وجهه من السرور: «أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك. قال: قلت أمن عندك يا رسول الله، أم من عند الله؟ قال: لا بل من عند الله». وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر. وكنا نعرف ذلك منه. فلما جلست بين يديه قلت، يا رسول الله، إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسول الله. قال رسول الله ﷺ: أمسك عليك بعض مالك، فهو خير لك قلت: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر.

فقلت: يا رسول الله! إن الله إنما نجاني بالصدق وإن من

توبتــي ألا أحــدث إلا صدقًا ما بقيت . فو الله ! مــا أعلم أحدًا من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث ، منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحســن مما أبلاني ما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرســول الله ﷺ إلــى يومــي هذا كذبًا . وإني لأرجــو أن يحفظني الله فيما بقيت .

وأنزل الله على رسوله ﷺ :

﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ ﴾

(التوبة : ١١٧)

إلى قوله :

﴿ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾

(التوبة : ١١٩)

فوالله ! ما أنعم الله عليّ من نعمة قط بعد أن هداني للإِســلام ، أعظم في نفســي مــن صدقي لرســول الله ﷺ أن لا أكون كذبته فأهلــك كما هلك الذين كذبوا . فإن الله قال للذين كذبوا ، حين أنزل الوحي ، شر ما قال لأحد . فقال تبارك وتعالى :

﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ ﴾

(التوبة : ٩٥)

إلى قوله :

﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾

(التوبة : ٩٦)

قــال كعب : وكنا قد تخلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له ، فبايعهم واستغفر لهم .

وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه.

فبذلك قال الله:

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾

(التوبة: ١١٨)

وليس الذي ذكر الله مما خلفنا عن الغزو، إنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه، فقبل منه.

فانظر إلى هذه القصة الرائعة وإلى ما فيها من العبر والموعظة، وإلى تأديب النبي لمن يحب من أصحابه الصادقين حين يحتاجون إلى التأديب، فهؤلاء الثلاثة قد تخلفوا ولم يكن لهم عذر من ضعف أو فقر أو عجز عن السفر، وإنما امتحنهم الله ببعض أعمالهم ليبلوهم ويطهر قلوبهم، وكان كثير من الناس قد تخلفوا عن هذه الغزوة، يعدهم كعب نيفًا وثمانين رجلا. فلما عاد النبي إلى المدينة أقبل المتخلفون فجعلوا يتكلفون المعاذير ويقولون للنبي غير الحق، وجعل النبي يقبل معاذيرهم ويستغفر لهم، لأنه -كما كان يقول دائمًا- لم يؤمر بالتنقيب عما في قلوب الناس. ولكن هؤلاء الثلاثة كانوا أشد إيمانًا بالله ورسوله، وأصدق حبًا لهما من أن يضيفا إلى تخلفهم خطيئة الكذب على النبي ﷺ. وهم يعلمون حق العلم أن ضمائر المتخلفين المنافقين لم تكن لتخفى على الله، وأن الله جدير أن ينبئ رسوله بسرائرهم. فآثروا الصدق وفاء لدينهم، وإشفاقا أن يفضح الله كذبهم

وتخلفهم فاعترفوا بذنوبهم وسمع النبي منهم وأعلن أنهم قد صدقوه ولم يعف عنهم مع ذلك. ترك أمرهم إلى الله يقضي فيه بما يشاء، ثم لم يلبث أن أمعن في عقابهم فأمر المؤمنين ألا يكلموهم وينظر هؤلاء الثلاثة فإذا هم قد اقتطعوا من الناس اقتطاعًا، وإذا هم في عزلة بغيضة إلى نفوسهم كان السجن أهون منها. ومن أجل ذلك لزم اثنان منهم بيوتهما فلم يخرجا منها ولم يتعرضا لجفوة الناس، وإنما أقاما يؤديان الصلاة في بيوتهما ولا يشهدان جماعة المسلمين. ثم يبكيان أكثر وقتهما. وأما كعب فقد كان جلدًا يحسن الاحتمال، فجعل يخرج ويغدو على الأسواق ويحتمل جفوة الناس متأذيًا بها، كأنه يبالغ في تأديب نفسه بالعقاب الذي فرض عليه. وهو يذهب إلى ابن عم له من أصحاب النبي فينشده الله ثلاثًا: أيعلم من أمره أنه محب لله ورسوله؟ فيسكت عنه ابن عمه حتى إذا ألح عليه كعب في المسألة أجابه بهذا الجواب اللاذع الممض: الله ورسوله أعلم. وما كان له أن يجيب بغير هذا فالنبي غاضب على هؤلاء الثلاثة، وغضبه من غضب الله. ثم كان كعب يذهب إلى المسجد ويشهد صلاة المسلمين ويصلي بعض النوافل قريبًا من مجلس النبي، ليرى أينظر النبي إليه أم يعرض عنه. وإذا هو يستكشف أن النبي ينظر إليه حين يقبل على صلاته.. فإذا نظر إلى النبي أعرض النبي عنه ولكن النبي يرسل إليه ذات يوم وإلى صاحبيه من يبلغهم أن النبي يأمرهم أن يعتزلوا نساءهم.

وليس في هذا شيء من الغرابة، فنساؤهم مؤمنات وقد صدر الأمر إلى المؤمنين باعتزالهم، فليعتزلهم نساؤهم أيضًا.. فأما كعب فقد أرسل زوجه إلى أهلها حتى يقضي الله في أمرهم. وبعد أن مضت عليهم خمسون ليلة في هذه العزلة، وقد أخذ الندم من قلوبهم أقوى مأخذ، أنزل الله توبته عليهم في الآيتين الكريمتين اللتين أثبتناهما منذ حين. وابتهج المؤمنون كلهم لذلك، فكانوا يهنئون هؤلاء الثلاثة بتوبة الله عليهم. وقد فرح كعب بهذه التوبة فرحًا لم يفرح مثله لشيء قبلها، وهم أن يتصدق بماله كله، فانظر إلى النبي يرفق به ويقبل منه الصدقة في وقت واحد. فيأمره أن يمسك بعض ماله ليعيش منه وينفق على أهله، وأن يتصدق بسائره، فأمسك سهمه من خيبر وتصدق بما عداه.

وعاهد النبي على ألا يتكلف ولا يكذب متعمدًا في حديث حتى يموت.

وتبلغ روعة هذه القصة أقصاها حين تقرأ في سورة التوبة تعذير الله للمتخلفين من المنافقين، بين أهل المدينة ومن حولها من الأعراب. فترى شدة هذا التعذير وعنفه، وتقرأ قصة هؤلاء الثلاثة فترى كيف نزلت عليهم رحمة الله كما ينزل الغيث على الأرض الميتة فيحييها بعد موتها.

وقد صورنا لك في كثير جدًا من الإيجاز مكان النبي بين أصحابه بشيرًا ونذيرًا، وشاهدًا وداعيًا إلى الله بإذنه، ومفقهًا للمؤمنين في دينهم، ومعلمًا لهم في عظائم أمورهم ودقائقها.

فلا غرابة في أن تكون السنة هي الأصل الثاني بعد القرآن الكريم، من الأصول التي تبنى عليها حياة المسلمين. فكل ما يعرض للمسلمين من الأمر في حياتهم من المشكلات يجب عليهم أن يردوه إلى الله ورسوله، يلتمسون له الحل في القرآن، فإن وجدوا هذا الحل فهو حسبهم، وإن لم يجدوه فعليهم أن يلتمسوه في سنة النبي، فيما صحت به الرواية عنه من قول أو عمل. ذلك أن النبي لم يكن ينطق عن الهوى وإنما كان يعلم الناس مما علمه الله، ويعلمهم في أكثر الأحيان عن أمر الله له بتعليمهم، ويستشيرهم فيما لم يعلمه الله من الأمر ويقبل مشورتهم. فإذا التمس حل المشكلات في القرآن فلم يوجد، والتُمس في السنة فلم يوجد، فالمسلمون يرجعون إلى أصل ثالث من أصول الأحكام في الدين، وهو إجماع أصحاب النبي. ذلك أن أصحاب النبي إن أجمعوا على شيء فأكبر الظن أنهم لم يجمعوا عليه إلا لأحد أمرين: فإما أن يكونوا قد عرفوا من قول النبي أو عمله ما لم يصل إلينا، وإما أن يكونوا قد اجتهدوا رأيهم واختاروا لأنفسهم، وهم خيار المسلمين وهم قدوة لهم، ولا سيما قبل أن ينجم بينهم الخلاف وتفسد الفتنة عليهم كثيرًا من أمرهم. فإن لم يجد المسلمون في القرآن ولا في السنة، ولا فيما أجمع عليه أصحاب النبي حلا لبعض مشكلاتهم فعليهم أن يجتهدوا رأيهم، ناصحين لله ورسوله وللمسلمين.

(٤)

وأمر السنة بعد ذلك مختلف عن أمر القرآن أشد الاختلاف، ذلك أن القرآن قد وصل إلينا متواترًا مجمعًا عليه، من أجيال المسلمين منذ حياة النبي إلى الآن، وإلى آخر الدهر ما بقي في الأرض مسلمون. توارثته الأجيال كما تلاه النبي، وكما كتبه عنه كتاب الوحي وكما جمع أيام أبي بكر، وكما نسخ في المصاحف أيام عثمان، وعلى ما كان بين المسلمين من اختلاف وانقسام وافتراق إلى فرق متباينة في الرأي، من خوارج وشيعة وجماعة، ثم على ما كان من الاختلاف بعد ذلك بين المسلمين في أصول الدين وفروعه وانقسام المتكلمين في الأصول إلى الكثرة المعروفة، وانقسام الفقهاء وأصحاب الفروع كذلك إلى شيع تتباعد حينًا وتتقارب حينًا، وعلى ما نزل بالمسلمين من الأحداث وما تتابع عليهم من الخطوب، وما كان من تنقل الحكم فيهم بين الأحزاب أولا وبين الأمم والأوطان ثانيًا.

على هذا كله ظل القرآن كما هو، لم يختلف المسلمون في نصه، فهو باق على الدهر لا يضره أن يختلف المسلمون في فهم نصوصه وفي تأويلها، ولا كذلك السنة لأن النبي لم يأمر بكتابتها بل يروى أنه كان يكره ذلك. فالاعتماد في روايتها على الذاكرة، وعلى ذاكرة الصالحين من المؤمنين. وكان أصحاب النبي يتشدد أكثرهم في رواية الحديث عن النبي، بل كانوا لا يقبلون حديثًا عن النبي إلا أن يشهد اثنان من عدول المسلمين أنهما سمعاه من النبي أو رأياه يعمله. وكان عمر

-رحمه الله- أشــد الخلفاء في ذلك، فكان ينذر من يتحدث عن النبي بالعقاب إلا أن يأتي بعدل من المســلمين، يشهد معه بأنه ســمع من النبي أو رأى منه مثل ما يروي المتحدث، هنالك كان عمر يقبل الحديث ويعمل به.

ولكن الأمور لم تمض على ذلك دهرًا طويلا، فلم تكد الفتنة تظــل المســلمين حتى اشــتد الخــلاف بينهم، وجعــل بعضهم يكفر بعضًا وجعلت الأحزاب على مر الزمن تكثر الحديث عن النبي يريد كل حزب أن يثبت أنه أشــد استمســاكًا بســنة النبي من غيره، ونشــأ القُصّــاص الذين كانوا يجلســون لوعظ الناس مرغبيــن ومرهبيــن، فأكثروا مــن الحديث وأضــاف كثير منهم إلــى النبي ما لم يقــل يرغبون في فضائل الأعمــال وينفرون من سيئاتها ولا يجدون حرجًا في أن يضيفوا إلى النبي ما لم يقل ما داموا لا يريدون إلا النصح للمسلمين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والنبي أول ناصح للمسلمين، وأول آمر بالمعروف وناه عن المنكر، فكل أمر بالخير أو نهي عن الشــر يمكن عند كثيــر من القُصــاص أن يحمل على النبي. ثم نشــأ الأشــرار من المتكلفين وذوي النيات الســيئة فأســرفوا فــي رواية الحديث، وأكثــروا من الكــذب وعرف ذلك خيــار المســلمين فأخلصوا أنفسهم لتصحيح الحديث، وتنقيته من كل مكذوب أو مشكوك في كذبه. وذهبوا في ذلك مذاهبهم المعروفة، فجعلوا يتتبعون رواة الحديث ينقدون حياتهم ويتحرون أمرهم، فمن وجدوا فيه مطعنًا بالكذب، أو الانحراف عن العدالة في الســيرة، أو ضعف

الذاكرة، أو قلة التثبت مما يروى، أو الأخذ عمن لا يصح الأخذ عنه، أعرضوا عنه ونبذوا حديثه، ونبهوا على ما فيه من علة، حتى نشأ عند المحدثين علم خاص بتصحيح الحديث.

وعلى رغم هذا كله ظل من الواجب على كل مسلم، حين يُروى له الحديث عن النبي ﷺ، أن يحتاط قبل الأخذ به، وأن يعرضه على القرآن، فإن كان لا يناقض القرآن في قليل ولا كثير، ولا يناقض المألوف من سيرة النبي وعمله، أخذ به وإلا وقف فيه.

وكذلك كان يفعل الصالحون من أصحاب النبي ﷺ، فقد قيل لعائشة -رحمها الله- إن بعض أصحاب النبي يروي عنه أنه قال: إن الميت يعذب ببكاء أهله عليه. فأنكرت هذا الحديث وقالت: اقرءوا قول الله -عز وجل-:

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾

(الأنعام: ١٦٤)

وقيل لها: إن بعض أصحاب النبي يزعمون أن النبي رأى ربه. فأنكرت هذا أشد الإنكار وقالت لمحدثها: اقرأ قول الله -عز وجل-:

﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾

(الأنعام: ١٠٣)

وقد رأيت كيف كان عمر يتشدد في رواية الحديث فليس بد إذن كما قدمنا من الاحتياط في قبول الحديث، حتى حين يرويه المصححون من المحدثين.

ولا بد أن نلاحظ أن بعض أعمال النبي قد وصلت إلينا متواترة لا معنى للشك فيها فقد علمنا بالتواتر أنه ﷺ كان يصلي الصبح ركعتين، والظهر والعصر والعشاء كل منها أربع ركعات، والمغرب ثلاث ركعات.

وعلمنا أنه كان يركع مرة في كل ركعة، ويسجد مرتين في كل ركعة، ويجلس بعد كل ركعتين، كل هذا في الفرائض المكتوبة، فلا معنى للجدال في ذلك، وعلمنا كذلك ما بيّن من نصاب الزكاة وما فرض فيها وعلمنا من القرآن ومن السنة العملية كيف كان يصوم، وكيف اعتمر وكيف حج، فجملة أركان الإسلام ثابتة بالقرآن أولاً، وبيان النبي العملي لها ثانيا.

وكثير من أعمال النبي وصل إلينا على نحو يقطع الشك، فقد عرفنا كيف كان يصلى صلاة العيدين، وكيف كان يصلى للاستسقاء، ولما يعرض من كسوف الشمس والقمر.

فجملة الأصول وتفصيلها بمعزل عن الشك، وإنما يكثر الشك ويختلف قوة وضعفا في بعض الفروع، وفيما يتصل بالترغيب في الفضائل وفى التنفير من الشر، ولاسيما وبعض أئمة الحديث -كأحمد بن حنبل رحمه الله- كانوا لا يرون بأسا برواية الحديث الضعيف، إذا كان متصلا بالفضائل.

ومهما يكن من شيء فالقرآن جامع لما يحتاج إليه المسلمون من أصول الدين وأكثر فروعه، والسنة الثابتة تفصل مجمله وتبين ما يحتاج منه إلى البيان فليس على خلاصة الإسلام وأصوله بأس من ضعف الضعفاء، وكذب الكذابين، وزيغ الزائغين.

(٥)

وكذلك استقامت للمسلمين حياتهم صافية نقية مبرأة من الاختلاف والتنازع، كأصفى وأنقى وأصدق ما تكون الحياة، كان النبي بين أظهرهم يردون إليه أمرهم كله، فيعلمهم مما علمه الله، فإذا جاءه من أمرهم ما ليس عنده علم فيه رده هو إلى الله -عز وجل-، فلا يلبث أن يأتيه الخبر اليقين من السماء فلم تتصل الأرض بالسماء قط كما كانت متصلة أثناء حياة النبي ومن أجل ذلك كان كعب بن مالك وصاحباه مشفقين من أن يعتذروا إلى النبي بغير الحق، فيكذبهم الله بقرآن يتلى على الناس، أو بوحي يلقى إلى النبي فيتحدث به إلى أصحابه ومن أجل ذلك أيضا أنبأ الله نبيه أثناء غيبته عن المدينة بكل ما كان المنافقون يعملون ويقولون، وأنبأه كذلك بأنهم سيعتذرون إليه وإلى أصحابه من تخلفهم حين يرجعون إليهم، وأمره أن يقول لهم لن نؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم وذلك في قوله -عز وجل- في سورة التوبة:

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (التوبة: ٩٤)

وكثيرا ما كان المسلمون يعرضون على النبي بعض أمرهم، فيقول لهم أحيانا ما عندي في هذا شيء، ثم لا يلبث أن يدعو من عرضوا عليه الأمر فينبئهم بحكم الله فيه، وأحيانا يظهر الإعراض

عن سائليه بأنه لم يأته علم من الله بما سألوه عنه، ثم ينزل القرآن فيقضي فيهم بحكم الله، كما كان من أمر ذلك الرجل الذي زعم لرجل من أصحاب النبي أنه وجد عند أهله غيره ولم يدر ماذا يصنع، وأشفق أن يقتله فيقتل به، فكلف صاحبه ذاك أن يسأل النبي في أمره وذهب صاحبه فسأل النبي، فأعرض عنه وأظهر الكراهة للسؤال، وقص الرجل على صاحبه ما رأى من كراهية النبي للمسألة، فأبى الرجل إلا أن يسأل النبي ففعل وأجابه النبي بأن الله قد أنزل فيه وفى صاحبته قرآنا، وأمره أن يدعو صاحبته فأنفذ فيهما ما قضى الله بالآية الكريمة من سورة النور:

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾

(النور: ٦)

ولست أعرف أبلغ من قول أم أيمن، حين كلمت في بكائها بعد وفاة النبي ﷺ فقالت: إنها إنما تبكي لانقطاع خبر السماء، ذلك أن وفاة النبي قطعت عن المسلمين هذا الخبر حقا فلم يكن وحي بعده، ولم يكن للذين قاموا بأمر المسلمين من الحلفاء إلا أن يصرفوا الأمور بما نزل من القرآن، وبما ثبت لهم من حديث النبي، بسماعهم هم أو بسماع العدول من أصحابهم.

وقد ظلت حياة المسلمين نقية صافية أيام أبي بكر -رحمه الله- كدرتها ردة العرب فلما عادوا إلى ما كانوا عليه أيام النبي من الطاعة في كل ما أمر الله، برئت حياة المسلمين من الشوائب، ورمى بهم أبوبكر الشام والعراق، ثم جاء عمر -رحمه الله- بعد

أبي بكر فاشتد إلى أقصى حدود الشدة في المحافظة على صفاء الحياة الإسلامية ونقائها، على نحو ما كانت عليه أيام النبي وأبي بكر، وبذل في ذلك من الجهد في دقيق الأمور وجسامها ما لم ينسه التاريخ بعد، وما أرى أنه سينساه آخر الدهر، ذلك أن المشكلات الجسام التي عرضت للمسلمين في حياة عمر كانت جديدة كل الجدة، لم يعرض مثلها ولا شيء قريب منها أيام النبي وأيام أبي بكر، فقد كانت غزوات النبي على خطرها يسيرة بالقياس إلى فتح بلاد الفرس، واقتطاع الشام ومصر من بلاد الروم، وكانت الغنائم التي تتاح للمسلمين أيام النبي شيئا لا يكاد يقاس إلى ما أتيح لهم من الغنائم أيام عمر، فكان من أيسر الأشياء أن ينفذ النبي فيها حكم الله الذي بينه في سورة الأنفال:

﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴾

(الأنفال: ٤١)

فكانت الغنائم تجمع للنبي فيحتجز منها الخمس، ينفق منه على ما بين الله في الآية الكريمة، ويقسم سائرها على المسلمين للراجل سهم وللفارس سهمان.

ومع أن الأمانة أيام النبي كانت كأقوى ما يمكن أن تكون في قلوب المسلمين، فقد كان النبي ﷺ كثيرا ما ينهى عن

الغلول، ويخوف منه أشد التخويف وأهوله وأنزل الله في الغلول قرآنا، فقال في سورة آل عمران:

﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾

(آل عمران: ١٦١، ١٦٢)

ومع هذا كله فقد غل بعض الناس من الغنائم أيام النبي، فذكر الرواة أمر ذلك الذي قتل بخيبر، فجعل الناس يتباشرون له بالشهادة أمام النبي، وقال ﷺ إن الشملة التي غلها لتشتعل حوله نارًا أو شيئا بمعنى ذلك.

قال الرواة فقام رجل فجاء بشراكين فألقاهما وكان قد احتجزهم فلما سمع ما سمع من النبي خاف فردهما.

كذلك كانت أمور الجهاد والغنائم أيام النبي، وأين هذا مما عرف المسلمون في حروبهم مع الفرس والروم، وفيما ملئوا به أيديهم من الغنائم التي لا يكاد المؤرخون يحسنون تصويرها ولا إحصاءها.

وجيوش المسلمين بعيدة عن مركز الخلافة بعدًا شديدًا، والخليفة قار بالمدينة لا يرى ما يصنع المسلمون بعد أن ينزل الله نصره عليهم، وإنما تأتيه أنباء النصر وترسل إليه أخماس الغنائم فيقسمها على من حضره من المسلمين، وينفق منها على نوائب الأمة.

والمسلمون في تلك الأيام لا يغنمون الأموال التي تنقل فحسب، وإنما يغنمون الأرض التي تفتح وما عليها من العقار،

وكل ذلك بعيد عن الخليفة، وأموره معقدة أشد التعقيد فالغنائم التي تنقل يمكن أن تخمس ويرسل خمسها إلى الخليفة ويقسم سائر أخماسها على الجند ولكن الغنائم الثابتة ماذا يصنع بها قائد الجيش، لا يستطيع أن ينقلها ولا أن يقسمها، ولا يستطيع الجند إن قسمت فيهم أن يقوموا عليها، فهم لم يرسلوا ليكونوا زراعا، وإنما أرسلوا للحركة المتصلة، لا تفتح عليهم مدينة إلا تجاوزوها إلى غيرها، فكل هذا كان جديدا بالقياس إلى الخلفاء.

ولم يكن بد لعمر من أن يضع نظاما يحصر هذه الغنائم ويكفل القيام عليها، ويكفل حقوق الجند فيها، وهذه الجيوش التي ترسل تباعا إلى الأرض البعيدة في الشرق والغرب، لم يكن بد من تهيئها للحرب قبل أن ترسل، ولم يكن بد من إمدادها بكل ما تحتاج إليه بعد إرسالها، ولم يكن بد من حكم المدن والأقاليم التي تفتح، ومن نشر الإسلام فيها، وأن يجري الحكم فيها على ما أمر الله أن تجري عليه الأحكام إلى غير ذلك من المشكلات التي لا تحصى، والتي جعلت تظهر ويتبع بعضها بعضا كلما أمعن المسلمون في الغزو وأبعدوا في الأرض، وقد جد عمر -رحمه الله- في حل هذه المشكلات وتدبير أمور هذه الدول الناشئة، التي كانت تكبر وتتسع رقعتها، وتزداد مشكلاتها يوما بعد يوم.

وقد وفق عمر إلى كل ما حاول من حل المشكلات وتدبير الأمر، وحكم الأقطار البعيدة عنه والقريبة منه، توفيقا لم يكن ينتظر من رجل من أهل مكة لم يعرف من أمور الدنيا إلا أيسرها، ولم يبل شئون الحكم قبل خلافته وهو بعد ذلك يحكم أمما

ليســت على حال العرب من البداوة، وإنما هي متحضرة ممعنة في الحضارة، قد عرفت من أنظمة الحكم ضروبا وألوانا.

وما رأيك في خليفة ينبئه أحد عماله بأنه قد حمل إليه خمس مئة ألف من الدراهم، فلا يصدقه وإنما يظن به الجهد والإعياء، ويأمره أن يذهب فيستريح ثم يأتيه من غد فإذا جاءه من الغد وأنبأه بما حمل إليه من المال صعد المنبر وأعلن إلى الناس: أن قد جاءه مال كثير، فإن شاءوا كاله لهم كيلا، وإن شاءوا هاله لهم هيلا، كل ذلك لنصف مليون من الدراهم، فكيف به حين جاءته الملايين الكثيرة والعروض المختلفة التي لا تكاد تحصى وإذا كان النجح قد أتيح لعمر، لما آتاه الله من عبقرية فهو كذلك قد أتيح لقواده الذين فتحوا الأرض، وعماله الذين حكموا الأقاليم وكلهم كان كهيئة عمر لم يبل من الحرب إلا أيسرها وأهونها شأنا، ولم يعرف من شئون الحكم إلا أدناها إلى السذاجة البدوية، فكيف بهم حين حكموا الشام ومصر والعراق وفارس وأتيح هذا النجح أيضا للجند الذين قهروا أعظم دولتين في الأرض حين ذاك: دولة الفرس ودولة الروم، وهم لم يعرفوا قط من شئون الحرب إلا ما كانوا يألفون من هذه الحرب الأولية، التي كانت تثار بين القبائل لم يعرفوا الجيوش الضخمة ولا أداة الحرب التي ابتكرتها الحضارة، ولا حصار المدن ولا اقتحامها، وهم مع ذلك قد انتصروا أي انتصار، ونشروا لولاء الإسلام في أقطار الأرض شرقا وغربا، وأزالوا من الأرض دولة عظيمة لم تستطع جيوش روما ولا

جيوش قسطنطينية أن تزعزعها وهى دولة الفرس الساسانيين وقد عرفت أن أكثر هؤلاء الجند كانوا قد ارتدوا بعد وفاة النبي ﷺ عن الإسلام مع قبائلهم، وأبوا أن يؤدوا الزكاة حتى قاتلهم عليها أبو بكر فانظر إليهم بعد أن عادوا إلى الإسلام كيف أحسنوا في سبيله البلاء وكيف جاهدوا فأمعنوا في الجهاد وكيف صبروا فأبلغوا في الصبر، وكيف جنوا نتيجة هذا كله نصرا مؤزرا؟

وما أشك في أن القرآن هو المؤثر الأول في هذا كله كانوا يقرءونه أو يقرأ عليهم فيملأ نفوسهم روعة، وقلوبهم إيمانا، ويدفعهم هذا كله إلى أن يفعلوا الأعاجيب، وإلى أن يتيحوا لقائد من قوادهم هو خالد بن الوليد أن يكتب إلى بعض محاربيه حين دعاهم إلى الإسلام أو إلى الخضوع وأداء الجزية، ثم قال لهم بعد ذلك: فإن أبيتم فإني قد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة، واقرأ إن شئت حديث الفتح في كتب التاريخ، وفى تاريخ الطبري خاصة، فسترى فيما تقرأ من العبر والعظات والأعاجيب ما يقنعك بأن بلاء المسلمين في تلك الحروب، وما أتيح لهم من الظفر، إنما كان نتيجة لأثر الإسلام والقرآن خاصة في نفوس أولئك المجاهدين.

وانظر إليهم حين يتلو عليهم القاص الذي كان يطوف على الجنود، فيعظهم ويحمسهم للحرب حين يتهيئون للقاء العدو.

انظر إليهم حين يتلو عليهم هذه الآية الكريمة، من سورة التوبة مثلا:

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

(التوبة : ١٢٠)

فأي غرابة في أن تملأهم هذه الآية، وأمثالها من آيات القرآن الكريم، ثقة وأمنًا وأملا واطمئنانًا إلى أنهم من غير شك ظافرون بإحدى الحسنيين. فإما الانتصار على العدو، والفوز بما في أيديهم من الملك وزهرة الحياة الدنيا، مع الأجر العظيم عند الله، وهو خير من كل ما ظفروا به، وإما الفوز بنعمة الشهادة والحياة عند الله، فرحين بما آتاهم الله من فضله، ومستبشرين بالذين لم يلحقوا بهم من بعدهم، ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون. كما يقول الله -عز وجل- في الآية الكريمة من سورة آل عمران.

وانظر إليهم حين يقرءون أو يتلى عليهم قول الله من سورة الأنفال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾

(الأنفال : ١٥، ١٦)

كيـف تمتلئ قلوبهم ثقة بأنهم حين أزمعوا الخروج للجهاد، قد باعـوا الله أنفسـهم وأموالهم بأن لهم الجنة، يقاتلون في سـبيل الله فيقتلون ويقتلون، وعدًا على الله حقًا في التوراة والإنجيل والقرآن.. كما يقول الله -عز وجل- في الآية الكريمة من سورة التوبة:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾

(التوبة: ١١١)

فهـم يُقبلون علـى الجهاد وهم مطمئنون إلـى أنهم قد باعوا نفوسهم وأموالهم لله بالجنة. فالموت أحب إلى الصادقين منهم مـن الحياة، لأن نعيم الحياة زائل ونعيـم الله باق خالد، وكلهم يرهـب الفرار من العدو، أكثر ممـا يرهب الموت، فهم واثقون بأن أمـام الفارين منهم جهنم يُضطـرون إليها وبئس المصير.. وهـم بذلك يصدقون مـا كتب خالد - رحمه الله - من أن جنوده يحبون الموت كما يحب عدوهم الحياة.

ومـن أجل ذلك أقبل بعض قواد المسـلمين، وهـو أبو عبيد بن مسـعود، أيـام عمر بجنـده متعرضًا لعدوه مـن الفرس فعبر إلى العدو بجيشـه نهرًا، وغامـر فإذا العدو أكثر منه قوة وأعظم منه بأسًـا، وكان يسـتطيع حين رأى ذلك أن يعبر النهر ويرجع بجنده إلى مواقعهم، ويلتزم خطة الدفاع أو ينتظر المدد، ولكنه ذكـر الآية الكريمة من سـورة الأنفال فكره الفرار، وأقدم فقاتل

حتى قتل -رحمه الله- وامتحن المسلمون في تلك الوقعة محنة عظيمة ولم ينج من نجا منهم إلا بعد الجهد كل الجهد. وبلغت قصة هذا الجيش عمر -رحمه الله- بالمدينة فبكى واسترحم لقائده وقال: لو انحاز لكنت فئته، يريد أنه لو رجع واستمد الخليفة لما كان ذلك فرارًا، وإنما هو التحرف للقتال والتحيز إلى من وراءه من المسلمين، ينصرونه ويمدونه بالقوة والعتاد.

والله قد أذن للمسلمين في الآية الكريمة، التي أثبتناها آنفًا من سورة الأنفال، أن يرجعوا عن العدو متحرفين للقتال أو متحيزين إلى فئة تنصرهم. كذلك كان بلاء المسلمين في الفتوح، لا يقبلون بلاء أقل منه حتى عاب بعضهم سعد بن أبي وقاص لما عجز عن القتال مع جيشه يوم القادسية، فأدار الموقعة من حصن كان فيه، لما أعجزه المرض عن الحركة والخروج، فقال قائلهم:

ألم تر أن الله أنزل نصره وسعد بباب القادسية معصم
فأبنا وقد آمت نساء كثيرة ونسوة سعد ليس فيهن أيم

وكذلك استقامت حياة المسلمين أيام الشيخين: أبي بكر وعمر، كلاهما ساس الناس كما كان النبي ﷺ يسوسهم أثناء حياته، والتزم عمر القرآن وسيرة النبي وأبي بكر ورأي الصالحين من الصحابة، في حل ما عرض له من المشكلات التي نشأت عن الفتوح واتساع الدولة وانتشار الجيوش وكثرة الغنائم والفيء، وتنظيم أمور الأرض التي ظهر عليها المسلمون في البلاد المفتوحة، فكان كلما عرضت له مشكلة التمس حلها في كتاب الله، فإن لم يجد ففي سُنة رسول الله وسيرة الخليفة من قبله، فإن

لـم يجد دعا أولي الرأي من المهاجرين والأنصار فشـاورهم حتى يجد الحل للمشكلة أو المشكلات التي عرضت له.

وكان تفـوق عمـر فـي جهاده نفسـه حتـى قهرهـا وذللها، وألزمها سـيرة النبي وأبي بكر، من الزهد والقناعة، ومن الصبر والاحتمال، ومن إيثار المسلمين على نفسه والاكتفاء بما يقيم الأود، على رغم ما كان يجبى إليه من كرائم الأموال ونفائسها، وعلـى رغم مـا كان يغري الناس من زهـرة الدنيا ونعيمها، كان تفـوق عمر في جهاد نفسـه وقهرهـا على هذا النحـو أروع من تفوقه فيما حاول من إقامة الدولة الناشـئة، ثم كان يشـتد على الناس ولا سـيما الذين رأوا النبي وصاحبوه، وعرفوا كيف رفض الدنيا، وكيف آثر عليها الآخرة. فكان يمسك كبار الصحابة في المدينـة ولا يأذن لهم بالخروج منها. فـإذا هم أحدهم بالجهاد أبـى عليه. وقال: قد كان في جهادك مع رسـول الله ما يجزئك. كان يخـاف عليهم أن يفتتنـوا إذا رأوا الأقاليم التي فتحت على المسـلمين. وكان يخاف منهم أن يفتتن الناس بهم في الأمصار والأقاليم. فكان يمسـكهم في المدينة حماية لهم ولعامة الناس مـن الفتنة. وكان في هذا موفقا أشـد التوفيق. وسـترى الدليل علـى ذلك واضحًا حين أذن عثمان لكبـار الصحابة بالتفرق في الأرض، فـكان ذلك مـن مصادر الفتنة التي حادت بالمسـلمين عن الجـادة، وضربت بعضهـم ببعض، وجعلت بأسـهم بينهم شـديدًا، ثم كان شديدًا على قريش خاصة، وعلى مسلمة الفتح منهـم بنوع أخص. كان يعرف ذكاءهم ومهارتهم في اكتسـاب

المال وإيثارهم للثراء ورغد العيش، فكان يحميهم من أنفسهم ومن أن يتهافتوا في النار كما كان يقول.

وكان شديدًا على أسرته من آل الخطاب، يكره أن يغتروا أو أن يغتر الناس بأنهم رهط أمير المؤمنين. ثم كان شديد المراقبة لأهل المدينة ومن حولها، يريد أن يعرف من قرب حاجاتهم وأن يبلغ من رضاهم ما يستطيع، ولم يعرف المسلمون خليفة كان أشد على ولاته في الأقاليم يدعوهم إلى لقائه في الموسم من كل عام، ويدعو مع كل واحد منهم ذوي الرأي في إقليمه. فإذا التقوا في موسم الحج سأل الولاة عن رعيتهم وسأل الرعية عن ولاتها. وكان كثيرًا ما يبرأ إلى الله مما يمكن أن يتورط الولاة فيه من جور أو خطأ أو تقصير، ولذلك كانت نكبة المسلمين بقتله حين قتل أعظم وأكبر من أن توصف.. وما أشك في أن عمر -رحمه الله- لو مدت له أسباب الحياة لأقام الدولة الإسلامية على أسس تعصمها من التفرق والانقسام، ولكن الله بالغ أمره قد جعل لكل شيء قدرًا.

وولي أمور المسلمين بعده عثمان، فاستقامت له الأمور أعوامًا فيها رضي عن الناسِ ورضي الناس عنه، ومضت جيوش المسلمين في الفتح شرقًا وغربًا، ولكنه وسع على الناس فأسرف الناس على أنفسهم، ولان لقريش فطمعت فيه قريش. ووصل بني أمية رهطه فأغراهم بالغنى، وفتح أمامهم أبواب الطمع واسعة حتى طمعوا فيه هو فاستأثروا به، وتسلطوا عليه حتى غلبوا على أمره كله. فجعلوا يولون ويعزلون والخليفة يقر ما يفعلون.

وكان عثمان حين ولي الأمر قد تقدمت به السن فبلغ السبعين أو جاوزها. فلم يلبث أن ضعفت مقاومته للطامعين من قريش عامة، ومن بني أمية خاصة.

وما هي إلا أن تنتشر في الأقاليم كلمة السوء، فيفتن الناس بمن رأوا من كبار الصحابة، كطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام. ويعسف الولاة فتظهر الفتنة ولا تلبث الأقاليم والأمصار أن تنكر من أمور الحكم أشياء، وتنتهي أمور الأقاليم إلى الثورة، وإذا الجنود تأتي من البصرة والكوفة ومصر، فيشكون ويحتال بعض الصحابة -وعليّ خاصة- في أن يأخذ لهم الرضا من عثمان وتوشك الأزمة أن تنحل ولكن البطانة من بني أمية ينقضون ما أبرم الخليفة ويغرون بعض الولاة برعيتهم سرًا، ويستكشف الثائرون هذا الإغراء الذي ختم بخاتم الخليفة عن غير علم منه، فيرجعون إلى المدينة ويحتلونها ثم يحاصرون الخليفة في داره، وما يزالون على حصارهم حتى يتسوروا الدار ويقتلوا الخليفة في النهار المبصر.

وبمقتل عثمان -رحمه الله- تفتح أبواب الفتنة على مصاريعها. وليس من شك في أن السخط على حكم عثمان لم يكن مقصورًا على الأمصار والأقاليم، بل كان في المدينة نفسها منكرون لنظام الحكم ضائقون بغلبة بني أمية للخليفة على أمره. وكان من أهل المدينة مشنعون على عثمان ومشهرون به. فلما قتل عثمان حكم الثوار المدينة حكمًا عسكريًا أيامًا حتى دفن الخليفة سرًا بليل.

ثـم أقبل النـاس على علـيّ -رحمـه الله- فبايعـوه، بايعه أكثرهـم عن رضا، وبايعه بعضهم عـن كره، وأبى معاوية في الشـام أن يؤمن لهـذه البيعة وذهب فريق مـن أصحاب النبي إلى البصرة مغاضبين، على رأسـهم أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكـر، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام. وكلاهما من كبـار الصحابة ومن رجال الشـورى الذين اختاروا عثمان للخلافة ومن العشـرة الذين توفي النبي ﷺ وهو عنهم راض وبشـرهم بالجنة. واعتزل فريق من المهاجرين والأنصار أمر الناس فلم يشـاركوا في الفتنة وكان منهم سعد بن أبي وقاص وعبـد الله بـن عمر من أكابر قريش وكان سـعد من العشـرة الذين بشـروا بالجنة، وهو القائد المظفر الذي أبلى أحسـن البـلاء في فتـح بلاد الفرس. وقـد جيء به ليبايـع عليًا فأبى البيعة وقال لعليّ: ما عليك مني من بأس. فأمر عليَّ بتخليته وكفله هو. وجيء كذلك بعبد الله بن عمر فأبى أن يبايع فأمر عليّ بتخليته وقال له بين الجاد والمازح: ما علمتك إلا سيئ الخلق.

ولم تتم البيعـة لعلي حتى نظر فإذا هو بين عدوين: أحدهما بالبصـرة يرأسـهم طلحـة والزبيـر وعائشـة، والآخـر بالشـام يرأسـهم معاوية بن أبي سـفيان. فلم يرد بدًا من أن يقاتل هذين الفريقيـن ليردهمـا: إلـى الطاعـة ولتجتمع كلمة المسـلمين بعـد أن تفرقت فيعودوا أمـة واحدة كما كانوا أيـام النبي وأيام الشـيخين أبـي بكر وعمر. ولا بـد من الاعتراف هنـا بأن عليًا

-رحمه الله- لم يبدأ بحرب قط إلا بعد أن دعا إلى الصلح ورغب فيه وألح في الدعوة وحاج مخاصميه حتى أظهر عليهم حجته وأثبت في وضوح لا لبس فيه أنه لم يشارك في قتل عثمان ولم يظاهر عليه، وإنما نصح له ما استطاع النصح، ورد الثائرين عن المدينة وكاد يحسم الفتنة لولا غدر بني أمية من بطانة الخليفة. وأنه كذلك حاول أن يعين عثمان وأن يحميه من الثائرين به والذين ظاهروهم عليه. ولكن خصوم عليّ كانوا حراصًا على الحرب يظهرون المطالبة بدم عثمان ويطلبون أن يسلم إليهم عليّ من قتل عثمان أو شارك في قتله وكان علي يأبى إلا أن ينفذ حكم الله على وجهه، فيخضع الناس قبل كل شيء لإمام واحد ثم يحتكمون إليه في قتل الخليفة المقتول. فيقيم حد الله كما ينبغي أن تقام الحدود، في ظل النظام والأمن لا في ظلمة الفتنة والانقسام.

وكذلك لم يجد عليّ بدًا من الحرب بعد أن بذل الجهد كل الجهد في الإصلاح بينه وبين طلحة والزبير وعائشة ومن تابعهم من أهل البصرة. فكان يوم الجمل الذي عظمت فيه المحنة على المسلمين وقد اقتنع الزبير بن العوام -رحمه الله- بخطئه فرجع عن الحرب ولكنه قتل غيلة في طريقه إلى الحجاز.

ومضى طلحة في القتال حتى قتل غيلة هو الآخر أثناء الموقعة، رماه رجل من بني أمية -هو مروان بن الحكم- الذي أفسد على عثمان أمره كله فقتله.

ويقول الرواة إن طلحة نقل من مصرعه ودمه ينزف، وهو

يقول : اللهم خذ لعثمان مني حتى ترضى . . فقد اعترف هو أيضًا بخطئه قبل أن يموت . وثبتت عائشة في هودجها على جملها ذاك الذي قتل حوله من المسلمين عدد غير قليل . وكان من خيارهم محمد بن طلحة بن عبيد الله ، قتل وهو آخذ بزمام الجمل ، وقال قاتله :

وأشعث قوام بآيات ربه ... قليل الأذى فيما ترى العين مسلم
شققت له بالرمح جيب قميصه ... فخر صريعًا لليدين وللفم
يذكرني حاميم والرمح شاجر ... فهلا تلا حميم قبل التقدم
على غير شيء غير أن ليس تابعًا ... عليًا ومن لا يتبع الحق يندم

وصرع عبد الله بن الزبير فلم ينج إلا بعد مشقة وجهد ، وكان المسلمون يقتتلون حول الجمل وعائشة تحمس أهل البصرة للقتال ، حتى أشار عليّ بعقر الجمل ، فلما عقر تفرق الناس وانهزم أهل البصرة ونقلت عائشة في هودجها لم يمسسها أذى . وبعد أيام ردها عليّ مكرمة إلى المدينة ، فقرت في بيتها الذي ما كان لها أن تفارقه ، بعد أن قال الله لنساء النبي في الآيتين الكريمتين من سورة الأحزاب :

﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾

(الأحزاب : ٣٣ ، ٣٤)

وأقام عليّ بالبصرة حتى ضبط أمرها، ثم عاد إلى الكوفة فأقام فيها وجعلها عاصمة للخلافة وأكبر الظن أنه نقل عاصمة الخلافة إلى الكوفة ليعصم المدينة من أن تكون دار حرب، فهو قد كان يروي عن النبي ﷺ أنه حرم المدينة كما حرم إبراهيم مكة، وأعلن أن من أحدث في المدينة حدثا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفًا ولا عدلًا.

وجعل عليّ يسفر إلى معاوية من الكوفة، يعرض عليه الطاعة ويدعوه إلى الصلح، وإلى جمع كلمة المسلمين وحقن دمائهم والدخول فيما دخل فيه الناس. وكان المسلمون قد قبلوا بيعة عليّ في جميع أقطار الأرض الإسلامية شرقًا وغربًا، إلا الشام فقد أقام معاوية في دمشق يطالب بدم عثمان ويرفض كل صلح يعرض عليه.

فلم يجد عليّ بدًا من حربه، فسار بجيشه حتى بلغ صفين، فوجد معاوية قد سبقه في أهل الشام إلى الماء يريد أن يظمئ عليًا وجيشه فاقتتل القوم على الماء حتي غلب أصحاب عليّ عليه، ولكن عليا -رحمه الله- أبى أن يظمئ معاوية وأهل الشام، فتركهم يشربون ويسقون أنعامهم، ويأخذون من الماء حاجتهم، وسعى السفراء بين الفريقين وعليّ يعرض الصلح دائما، ويظهر حجته وحجة من معه على أهل الشام، ولكن معاوية وعمرو بن العاص أبيا إلا القتال فكان القتال، وجعل المسلمون من الفريقين يتفانون وكانت الحرب سجالًا تدور الدائرة على أهل الشام يومًا وعلى أصحاب عليّ يومًا آخر.

ولكن عاقبة الحرب كادت تكون لعلي، وكاد جيش الشام يهزم، وزعم الرواة أن معاوية هم أن يركب فرسه للهرب، لولا أنه ذكر شعرًا فثبت هذا الشعر قلبه، وهو هذه الأبيات:

أبت لي عفتي وأبى بلائي ... وأخذي الحمد بالثمن الربيح
وإجشامي على المكروه نفسي ... وضربي هامة البطل المشيح
وقولي كلمة جشأت وجاشت ... مكانك تحمدي أو تستريحي
لأدفع عن مآثر صالحات ... وأحمي بعد عن عرض صحيح

وقد وجد له عمرو بن العاص مخرجًا من هذا الحرج، فاقترح أن ترفع المصاحف على الأسنة، وأن يدعا عليّ وأصحابه إلى كتاب الله يحتكمون إليه، فيحقون ما أحق ويبطلون ما أبطل. وجازت الحيلة على كثير من أصحاب علي، وعلى أهل اليمن منهم خاصة، فاستكرهوا عليا على الهدنة وحاول عليّ أن يمتنع عليهم وعرف أنها خدعة، ولكن أهل اليمن أبوا إلا قبول الهدنة وأنذروا عليا، فاضطر كارهًا إلى الإذعان لرأي الكثرة من أصحابه، وتقررت الهدنة بين الفريقين، على أن يرسل كل فريق منهما حكمًا يرضاه، وعلى أن يجتمع هذان الحكمان فيقضيان بما قضى به القرآن بين الفريقين المختصمين. واشتد معاوية وأصحابه في كتاب الهدنة، فأبوا أن يلقب عليّ نفسه أمير المؤمنين، واضطر عليّ إلى أن يمحوها، وذكر صلح الحديبية حين أبت قريش على النبي في كتاب الهدنة أن يسمي نفسه رسول الله، فمحا هذا الوصف واكتفى باسمه ولست أدري أتفاءل عليّ حين ذكر يوم الحديبية أم لا؟. ولكن عاقبة

الهدنة على كل حال لم تشبه عاقبة الهدنة التي أمضاها النبي ﷺ مع أهل مكة، كانت عاقبة هدنة الحديبية فتحًا قريبًا ونصرًا مؤزرًا، وكانت عاقبة الهدنة في صفين فرقة واختلافًا على عليّ أي اختلاف، وفي هذه المواقع التي كانت بصفين قتلت ألوف كثيرة من المسلمين من أهل العراق وأهل الشام.

وكان بين قتلى أصحاب عليّ عمار بن ياسر الذي كان يقاتل في حماسة أي حماسة، وهو شيخ قد بلغ التسعين أو جاوزها وكان يقاتل عن إيمان أي إيمان بأنه يدافع عن الحق، وكان يرتجز:

نحن ضربناكم على تنزيله والـيوم نضربكم على تأويله
ضربًا يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله
أو يرجع الحق إلى سبيله

وكان يوم قتل يحرض الناس ويقول: من رائح إلى الجنة؟ اليوم ألقى الأحبة: محمدًا وحزبه.

وكان قتل عمار تثبيتًا لعلي والصالحين من أصحابه وتشكيكًا لمعاوية ومن معه، ذلك أن كثيرًا من المهاجرين والأنصار قد سمعوا النبي ﷺ يقول، وهو يمسح رأس عمار أثناء بناء المسجد: ويحك يا بن سمية! تقتلك الفئة الباغية.

وكان رجل من صالح الأنصار، هو خريمة بن ثابت يشهد صفين مع علي ولكنه لم يكن يقاتل كأن قلبه لم يخل من بعض الشك، فلما رأى مقتل عمار بسيوف أهل الشام قال: الآن ظهر الحق. وقاتل حتى قتل.

فأمـا معاويـة وعمرو بن العاص فما أسـرع ما وجـدا مخرجًا مـن هذا الحرج، فقالا : لم نقتله وإنما قتلـه الذين جاءوا به إلى الحـرب. وأذاعـا مقالتهما هذه فـي أهل الشـام، تثبيتًا لقلوب الذين أدركهم شيء من الشك والقلق.

ورجع علي إلى الكوفة مرجعًا لم يكن ينتظره، ذلك أن جيشه اختلف عليه، رضيت كثـرة الجيش بالهدنة وفرضت على علي أن يقبل اختيار أبي موسـى الأشـعري حكمًا، وقد اختار معاوية عمـرو بـن العاص وأبت قلة مـن جيش عليّ هـذه الهدنة ورأتها مخالفة للقـرآن، فكان الناس يقتتلون ويتضاربون ويتشـاتمون فـي طريقهم إلى الكوفة، ثم وصـل عليّ إلى الكوفة فلم ير فيها إلا مظاهـر الحزن والحداد، لكثرة من ذهب معه من أهل الكوفة ثم لم يعد بعد أن لقي مصرعه بصفين.

ولم يلبث المنكرون لأمر الهدنة أن نظموا أمرهم وخرجوا من الكوفة أرسـالا، وكتبوا إلى إخوانهم في البصرة فانضموا إليهم وأعلنوا العصيان، بل أعلنوا أكثر من العصيان أعلنوا أن عليا وأصحابه الذين قبلوا الهدنة، قد كفروا لأنهم خالفوا عن أمر الله حين قال في الآيتين الكريمتين من سورة الحجرات :

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

(الحجرات : ٩، ١٠)

ولمـا كان علـيّ قد عـرض الصلح غيـر مرة علـى معاوية وأصحابـه فرفضـوه، ثم كانـت الحرب بينهـم، فكان يجب علـى علي وأصحابه فيمـا رأى الخوارج أن يمضوا في الحرب حتى يقضي الله أمره، فيحـق الحق ويبطل الباطل ولكنهم لم يمضـوا في الحرب وإنما قبلوا التحكيم فحكموا الرجال في دين الله، والله وحده هو أحكم الحاكمين وما كان ينبغي لعلي وأصحابه أن يضعوا السـيوف حتى يفيء معاوية وأهل الشـام إلى أمر الله.

ومـن هنا اتخذ الخوارج لأنفسـهم شـعارًا من هـذه الكلمة: لا حكـم إلا لله، أي لا حكـم إلا لله بواسـطة الحرب ينصر الحق ويهـزم الباطـل. وكانـوا كثيرًا مـا يجهرون بدعوتهـم هذه في مسـجد الكوفة، وربما قاطعوا بها عليا أثناء خطبته. وكان على يقول: كلمة حق أريد بها باطل ثم قوي أمر هذه الفئة حين التقى الحكمان فلم يصنعا شـيئا وإنما اختلفا وتشـاتما وافترقا كما التقيـا، لأن عمـرًا أعلن خلعه لعلـي وإثباته لمعاويـة، ولأن أبا موسـى زعم أنـه كان اتفق مع عمرو على خلـع الرجلين جميعًا وجعل الخلافة شـورى بين المسـلمين. فلم يتحـرج عمرو بن العـاص من أن يخالف عمـا تراضى عليه الحكمـان، وقد رفض علـيّ هـذا الحكم طبعًـا وقبله معاويـة وعادت الحـرب بينهما سيرتها الأولى.

هنالك ازداد الخوارج ثقة بأنهم على الحق، وبألا حكم إلا الله، وكثر خروجهم من الكوفة سرا حتى أصبح لهم شيء من قوة.

وقد تجهز عليّ مرة أخرى للقاء أهل الشام، ولكن أشير عليه أن يفرغ من هذه الفئة التي خرجت عليه، وجعلت تفسد في الأرض وتسفك الدماء ترى كل من تبع عليا ومعاوية كافرًا حلال الدم والمال.

وقد أرسل علي إلى الخوارج عبد الله بن العباس ليحاورهم ويحاول إقناعهم بالرجوع إلى الجماعة، ولكن ابن عباس لم يصنع شيئًا فذهب إليهم علي بنفسه فناظرهم وأقنع كثيرا منهم بالرجوع، ولكن آلافا منهم أبوا عليه فاضطر إلى قتالهم، فقاتلهم وظهر عليهم وهم بعد ذلك بالمضي إلى الشام، ولكن المنافقين من أصحابه أشاروا عليه بالعودة إلى الكوفة ليصلحوا من أمرهم بعد هذه الموقعة، وليذهبوا إلى عدوهم بما ينبغي لهم من العدد والعدة فعاد بهم إلى الكوفة ولكنه لم يخرج منها تفرق أصحابه إلى أهلهم وأقبلوا على أعمالهم، وزهدوا في الحرب حتى أيئسوا عليا منهم، فجعل يدعوهم ويلح في دعائهم ولكنهم لا يسمعون منه ولا يستجيبون لدعائه، حتى قال ذات يوم في خطبة له: لقد أفسدتم علي رأيي بالعصيان حتى قالت قريش: ابن أبي طالب رجل شجاع، ولكن لا علم له بالحرب لله أبوهم! ومن يكون أعلم بها مني؟ ثم أنشد- فيما زعم الرواة- هذين البيتين:

تلكم قريش تمناني لتقتلني ... فلا وربك ما بروا ولا ظفروا
فإن قتلت فرهن ذمتي لهم ... بذات ودقين لا يعفو لها أثر

فقد قتل -رحمه الله- ومنذ قتله أظل المسلمين شر لم تنقشع سحبه إلى الآن، فقد انقسمت الأمة إلى فريقين عظيمين: فريق يرى أن عليا هو الإمام الشرعي للأمة وأن الإمامة يجب أن تكون في ولده، وفريق آخر يذهب إلى ما ذهبت إليه جماعة المسلمين بعد وفاة النبي حين اختاروا أبا بكر للخلافة، وحين بايعوا بعده عمر لا يرون أن الخلافة تورث في أهل البيت، وإنما يليها من كان كفئا لولايتها من صالحي المؤمنين، واشتد العداء بين هذين الفريقين وجعل بعضها يكفر بعضا. ونجم بينهما فريق ثالث وهو فريق الخوارج الذي ذهبت ريحهم الآن، والذين كانوا يكفرون الشيعة والجماعة معا ويستبيحون دماءهم وأموالهم.

صدق علي في بيته ذاك، وصدق عثمان -رحمه الله- من قبله حين قال لمحاصريه إن تقتلوني لا تصلوا جميعا أبدا، وقد قتلوه فلم يصلوا جميعا أبدا، انقسموا شيعا وأحزابا، وكان كل فريق منهم لا يستحل الصلاة مع الفريق الآخر وكانت الدنيا وزهرتها مصدر هذا الخلاف، ومصدر ما جرى من دماء، ومصدر ما بقي من آثاره إلى اليوم.

وقد اجتمعت لمعاوية أقطار البلاد الإسلامية كلها بعد أن صالحه الحسن بن علي -رضي الله عنه- فسمى نفسه أمير المؤمنين، ولكنه لم يسر سيرة من عرفنا من أمراء المؤمنين، وإنما جعل الخلافة ملكا وأورثها ابنه من بعده، فاستلحق زيادا.

ورغب به عن أبيه عبيد، والله ينهي أشد النهي في القرآن عن هذا الاستلحاق وأمثاله في قوله من سورة الأحزاب:

﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

(الأحزاب : ٤ ، ٥)

وكان زياد يعرف أباه عبيدا الرومي حين قبل هذا الاستلحاق ، وفرح به وقد نهى رسول الله ﷺ عن هذا الاستلحاق وأمثاله حين قال -فيما روى الشيخان - : « ومن ادعي لغير أبيه فليتبوأ مقعده من النار » وحين قال -فيما روى الشيخان- أيضًا : « من رغب عن أبيه فهو كفر » .

ثم تتابع الخروج على الكتاب والسنة ، لأن الإثم يدعو الإثم ، ولأن حب الدنيا لا يقنع صاحبه . فالله قد حرم مكة في القرآن ، وحرم النبي المدينة فيما روى الشيخان عن علي . وقد استباح بنو أمية المدينة ومكة جميعًا .

وأصبح مال المسلمين ملكًا للخلفاء ، ينفقونه كما يحبون لا كما يحب الله ، وفيما يريدون لا فيما يريد الله من وجوه الإنفاق . فكان معاوية يشتري ضمائر كثير من أهل الكوفة والبصرة ليفسدهم على عليّ ، ثم ظل على ذلك بعد أن استقام له الأمر ، وجعل يتألف قلوب الناس حول عرشه بمال المسلمين ، لا يرى بذلك بأسًا ولا يرى فيه جناحًا ، ومضى الخلفاء من بني

أمية على سنته فأسرفوا في أموال المسلمين، وتجافوا عن سيرة النبي والشيخين من بعده وعلي -رحمه الله-.

وكان عليّ كثيرًا ما يقول لأهل الكوفة: إني لأعرف ما يصلحكم ولكني لا أفسد نفسي بصلاحكم وصدق عمر -رحمه الله- حين قال: لو ولوها -يريد الخلافة- ابن أبي طالب -لحملهم على الجادة-. وقد هم عليّ أن يحمل المسلمين على الجادة، ولكن المسلمين أبوا عليه، أو أبت عليه ظروف الحياة الجديدة التي أتيحت للمسلمين بعد الفتح من إحياء سنة النبي وصاحبيه...

وما أشك في أنه -رضي الله عنه- كان يحسن السياسة كل الإحسان، وكان جديرًا لو اصطنعها أن يجمع إليه الناس ويوحد كلمتهم، ولكنه آثر الدين على الدنيا. فلم يشتر ضمائر الناس، ولم يستبح ما حرم الله ورسوله، وأبى أن يصلح الناس ويفسد نفسه وذكر أنه سواء مات أو قتل فسيلقى الله وسيحاسب عما عمل في حياته، وذكر قول الله للمؤمنين في سورة المائدة:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ ﴾

(المائدة: ١٠٥)

فحرص رضي الله عنه على أن يهتدي، وبلغ من ذلك ما أراد، وفارق الدنيا راضيًا مرضيًا لم يحتمل خطيئة ولم يقترف إثمًا.

(٦)

وعن انقسام المسلمين إلى هذه الأحزاب الثلاثة : الشيعة والخوارج والجماعة ، لم ينشأ ما أشرنا إليه من الشر المادي في حياتهم حسب ، بل نشأ شيء آخر ليس أقل مما ذكرنا خطرًا ، وهو تفرق المسلمين في الرأي وتفرقهم في الدين نفسه . فقد جعل بعضهم يكفر بعضًا ، وجعل رأي بعضهم يسوء في بعضه ، حتى لم يأمن خارجي لرجل من الشيعة أو الجماعة ولم يأمن رجل من الشيعة أو الجماعة لخارجي ، ثم لم يأمن رجل من الشيعة لرجل من الجماعة ، ولم يأمن رجل من الجماعة لرجل من الشيعة فساد رأي بعضهم في بعض ، وقامت الحياة بينهم على السيف أحيانًا ، وعلى الغش والنفاق أحيانًا أخرى . . . وجاء الحجاج بعد زياد وبنيه فملأ العراق شرًا ونكرًا .

ولم يكف هذا كله بل فسدت الحياة العقلية للمسلمين نفسها فهذه الأحزاب المختصمة كانت تقتتل بالسيف حين يتاح لها الاقتتال بالسيف ، وكانت تختصم بالألسنة حين تضطر إلى الأمن والدعة فنشأت المناظرات بين الجماعة والشيعة والخوارج ، وجعلوا يلتقون في المساجد وفي مساجد العراق خاصة ليختصموا ، ويحاج بعضهم بعضًا .

وما أسرع ما نشأت الفرقة في داخل الأحزاب ، فتفرقت الشيعة فرقًا ، وانقسم الخوارج إلى طوائف ، وانشق من الجماعة من انشق وألفوا فرقًا وأحزابًا ، حتى كان بيت الحماسة مصورًا لأمرهم أبرع تصوير ، وهو :

وتفرقوا شيعًا فكل جزيرة   فيها أمير المؤمنين ومنبر

وعن هذه المناظرات نشأت الفرق الكلامية، فللشيعة فرقها، وللخوارج فرقهم، ومن الجماعة نشأت المرجئة ونشأت المعتزلة ولم تلبث المعتزلة أن انقسمت فرقا أيضًا، وأهل السنة أنفسهم لم يعصموا من هذا التفرق، فذهب بهم الجدل مذاهبه، وإذا نحن أمام فرق من المتكلمين تتجاوز السبعين، كلها يقول: لا إله إلا الله، فيعصم دمه ونفسه وماله، وحسابه بعد ذلك على الله، كما قال النبي ﷺ لأصحابه في بعض الحديث ولكنهم على ذلك يكفر بعضهم بعضًا، ويستبيح بعضهم دم بعض، ويستبيح السلطان امتحان المخالفين له في المذهب بالفتنة العظيمة والبلاء الشديد. وليس من شك في أن هذا الجدل والاختلاف وتفرق الرأي قد ملأ الدنيا علمًا وجعل للأمة الإسلامية تاريخًا فكريًا رائعًا خصبًا.

ولكن ليس من شك أيضًا في أن هذا كله قد ضر الدين أكثر مما نفعه، وأساء إلى الإسلام أكثر مما أحسن إليه.

وتستطيع أن تتصور هذا في وضوح حين توازن بين أصحاب النبي، الذين كانوا يسمعون القرآن وحديث النبي فتصدق عقولهم وتؤمن قلوبهم، ولا يخطر لهم أن يجادلوا فيما سمعوا؛ لأن القرآن واضح كل الوضوح، ولأن الحديث الصحيح الذي يثبت عن النبي واضح كل الوضوح أيضًا، ولأن من سفه النفس وسخف الرأي أن يسمع أحد أن يقول الله أو يقول رسوله فيختصم الناس فيما قال الله ورسوله.

تستطيع أن توازن بين أصحاب النبي الذين سمعوا القرآن ينبئهم بأن الله سميع بصير، وبأنه عليم حكيم، وبأنه واحد، وبأنه قدير، فلم يخطر لواحد منهم أن يسأل عن هذه الصفات التي وصف الله بها نفسه: أهي زائدة عن ذاته أم هي عين ذاته، كما اختلف المسلمون حين جعل المعتزلة ينكرون أن تكون لله صفات تقوم بذاته، وإنما صفاته هي ذاته وسموا أنفسهم من أجل ذلك أصحاب التوحيد وحين جادلهم خصومهم في ذلك فأكثروا وأسرفوا وسموهم معطلين وكما اختصموا في قول الله:

﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾

(الفتح: ١٠)

وجعلوا يتساءلون عن هذه اليد التي أضافها الله إلى نفسه، استعملت في القرآن مجازًا أم حقيقة كذلك في السمع والبصر وما إليهما من الصفات التي ذكرت في القرآن.

وتستطيع كذلك أن توازن بين أصحاب النبي حين سمعوا الله يعد الكافرين بالعذاب الخالد المقيم، ويعد المؤمنين بالنعيم الخالد المقيم، ويخوف المذنبين من المسلمين عقابه الشديد ولا يوئيسهم مع ذلك من عفوه ومغفرته، ويعدهم عفوه ومغفرته إن تابوا وأصلحوا.

سمع أصحاب النبي هذا كله فلم ينكروا ولم يسرفوا في السؤال ولم يتورطوا في الجدال، وسمع المتكلمون ذلك فجعلوا يسألون، أو جعل فريق منهم يسأل عن مقترف

الكبيـرة : أمؤمن هو أم كافر ؟ ثم لم يسـتطيعوا أن يقولوا إنه كافـر ، لأنـه يعلن أن لا إلـه إلا الله ، ولم يسـتطيعوا أن يقولوا إنـه مؤمن ، لأنه خالف عن أمـر الله باقتراف الكبيرة ، فزعموا أنـه ليس مؤمنًـا ولا كافر وإنما هو في منزلـة بين المنزلتين ، وقالوا : إنه فاسـق وحظروا على الله العفو عن مقترف الكبيرة لأنه إن عفا لم يكن عادلا والعدل واجب لله ، كما حظروا على الله عقـاب المؤمن الـذي لم يذنب لأنه إن عاقبه لم يكن عدلا ولجـوا فـي هذه المقالات حتى أسـرفوا على أنفسـهم وعلى الناس ، وحتى أغروا بأنفسـهم شـاعرًا كأبـي نواس الذي قال لبعض المعتزلة :

فقل لمـن يدعي في العلم فلسفة
حفظت شيئًا وغابت عنك أشياء
لا تحظر العفو إن كنت أمـرًا فطنا
فـإن حـظـرا لـه بـالـديـن إزراء

وقال قائلهم : إنه لا تقبل شهادة طلحة والزبير –رحمهما الله– فـي باقة بقل لأنهما في زعمه قد خالفا عن أمر الله ولم ينسـوا إلا شـيئًا واحدًا ، وهو أن الله عز وجل يقول في سورة النساء :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾

(النساء : ٤٨)

ويقول في سورة الزمر :

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

(الزمر : ٥٣)

فهؤلاء الوعيدية ييأسون ويئسون الناس من عفو الله ورحمته ومغفرتـه ، إذا أذنبـوا على حيـن أن الله في هاتيـن الآيتين ، وفي آيـات أخرى مـن القرآن يفتح لهم أبواب الأمل واسـعة وقد بينا فيمـا مضى من هذا الحديث أن الله –عـز وجل– توعد الناس إن اقترفوا الذنوب حتى يشرف بهم على اليأس ، ثم يفتح لهم باب الأمـل حتى يعصمهم من هذا اليـأس ، ويغريهم بالتوبة والإقلاع عـن الذنوب ومـا أكثر ما يقـرن الله وعده بوعيـده كما قال في سورة الحجر :

﴿ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾

(الحجر : ٤٩ ، ٥٠)

وهـذا الاختلاف بين الفرق الإسـلامية يرجع قبل كل شـيء إلـى الفتنة التي سـادت بقتل عثمان –رحمـه الله– وبما كان من الحرب بين أصحاب النبي بعد مقتله ، فالفرق الأوَل التي نشأت عـن هذه الفتنة اختصمت فيما بينها أشـد الاختصام حتى قالت الخوارج بكفر علـي وأصحابه ، وكفر معاوية وأصحابه ، وقالت الشـيعة بكفر معاوية ومـن ناصره من أهل الشـام وجعلت هذه الفرق تتقاذف بالكفر وأبى المعتزلة من أصحاب النبي ، كسعد

بن أبي وقاص ومحمد بن مسلمة أن يشاركوا في شيء من هذه الفتنة وأبوا كذلك أن يكفروا أحدًا من المسلمين، حتى كان بعضهم يقول: لا أقاتل حتى تأتوني بسيف ينطق فيقول: هذا مؤمن وهذا كافر، وكره قوم هذا التقاذف بالكفر، والحكم فيما لا ينبغي أن يحكم فيه إلا الله وحده فوقفوا موقف الإرجاء، وتركوا أمر هؤلاء المختصمين إلى الله يقضي بينهم يوم القيامة فيما اختلفوا فيه، فيحسن ثواب البر ويشدد عقاب الفاجر إن شاء أو يخففه أو يعفو عنه.

وتجاوزت المعتزلة التي نجمت فيما بعد ما ألف الصالحون من القصد فأغرقوا في تحكيم العقل فيما لا يستطيع العقل أن يحكم فيه، تكلموا أولا فيما تكلمت فيه الفرق القديمة من هذا التقاذف بالكفر فاخترعوا المنزلة بين المنزلتين، وقرروا أن مقترف الكبيرة ليس مؤمنًا ولا كافرًا، وإنما هو فاسق خالف عن أمر الله فلم يعد مؤمنًا، وأظهر الإسلام واعترف بوحدة الله وصدق نبيه فلم يصر إلى الكفر، ورتبوا على هذا المذهب أن مقترف الكبيرة لا تقبل شهادته في الدنيا وأنه مخلد في النار بعد الموت.

وبينما كان المسلمون يختصمون في هذه المسائل لقوا اليهود والنصارى وغيرهم من الفرس والهند، وجادلوهم في دياناتهم كما جادلهم أولئك في الإسلام فعرفوا من مذاهبهم في الدفاع عن دياناتهم أشياء لم يكونوا يعرفونها، ثم لم يلبثوا أن عرفوا ألوانًا من الثقافات الأجنبية، والثقافة اليونانية خاصة،

والفلسفة اليونانية على وجه أخص فتأثروا بهذا كله واتخذوا وسيلة إلى الدفاع عن دينهم كما فعل النصارى واليهود، ثم مضوا إلى أبعد من ذلك فآمنوا بالعقل وحكموه في كل شيء وزعموا أنه وحده مصدر المعرفة، وأنه هو الذي يحسن ويقبح من أعمال الناس حسنها وقبيحها. وأنه يستطيع أن يعرف الله، وأن يعرفه بقوته، سواء جاءته الأنبياء الهداة إلى الله أو لم يجيئوا وقد غرهم إيمانهم بالعقل فدفعهم إلى شطط بعيد ولم يخطر لهم أن العقل الإنساني ملكة من ملكات الإنسان، وأن هذه الملكة كغيرها من ملكات الإنسان محدودة القوة، تستطيع أن تعرف أشياء وتقصر عن معرفة أشياء لم تهيأ لمعرفتها وهذا هو الذي فتح عليهم أبواب هذا الاختلاف الذي لا ينقضي، وجعلهم فرقًا نيفت على السبعين.

ثم لم يكفهم هذا كله فزعم الزاعمون منهم أن النبي ﷺ قد نبأ بهذا الاختلاف، ونبأ بعدد الفرق التي ستنشأ في الإسلام، ونبأ بأن فرقة واحدة منها هي الناجية -في الحديث الذي رواه رواتهم- وأن سائرها هالك. وذلك كله في الحديث الذي رواه رواتهم، والذي أكاد أقطع بأنه اخترع بآخره، مهما يكن السند أو الأسانيد التي ركبت له، هو قولهم عن النبي: ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، الناجية منها واحدة والباقون هلكى. قيل: ومن الناجية؟ قال: أهل السنة والجماعة. قيل: ومن أهل السنة والجماعة؟ قال: «ما أنا عليه اليوم وأصحابي».

والشيء الذي لا شك فيه أن كثرة هذه الفرق، وما يضاف إليها من المقالات، إنما نشأت عما كان من التقاء الإسلام بالديانات والثقافات الأجنبية على اختلافها ونحن نعلم كيف فتن كثير من المسلمين بالفلسفة اليونانية، وبما رأوه من أن فلاسفة اليونان قد استكشفوا ألوانًا من المعرفة لم تكن تخطر للعرب على بال، في شئون الرياضة والطبيعة والطب. وهم قد رأوا فلاسفة اليونان قد تجاوزوا بعقولهم ما تستطيع أن تعلم إلى ما لا تستطيع أن تعلم، فبحثوا عن الله وعن صفاته وخصائصه، وذهبوا في ذلك مذاهبهم المعروفة، فما يمنع المتفلسفين من المسلمين أن يذهبوا مذهب هؤلاء الفلاسفة من اليونان، وأن يحاولوا أن يستكشفوا بعقلهم الطبيعة وما وراء الطبيعة، وما يمنع المتكلمين من أن يذهبوا مذهب الفلاسفة فيعملوا العقل فيما لا يحسن العقل أن يعمل فيه من البحث والنظر، ويتخذوا وسائل الفلسفة سبيلًا إلى محاجة غيرهم من أصحاب الديانات الأخرى، فيعود عليهم هذا كله بالاختلاف فيما بينهم، كما اختلف غيرهم من أصحاب الديانات الأخرى حين عرفوا الفلسفة وأقحموها في شئون الدين -وهذا هو الذي جعل المعتزلة مثلًا يقرءون القرآن والسنة فيرون أن الله قد وصف نفسه بصفات فيبحثون عن هذه الصفات، ويأبون إلا أن يصلوا فيها إلى ما يرون أنه الحق. وهم قد قرءوا في القرآن أمر الله للناس أن يتفكروا ويتدبروا، ليعلموا أن هذا العالم بما فيه من العجائب والنظام الدقيق لا يمكن أن يوجد من غير موجد له،

فظنـوا أن العقل يسـتطيع أن يعـرف كل شـيء، وأن يعرف الله ذاته، وحقائق ما يصف به نفسـه من الصفات فتورطوا في أشياء أسـاغتها عقولهم ولا تسـتطيع عقولنا نحن أن تسيغها، ولسنا في حاجة إليها لنحسن الإيمان بالله والعلم بقدرته، وبما وصف نفسـه به من الصفات، لأننا قد عرفنا أن العقل الإنسـاني ليس مـن القوة والنفـوذ بحيث ظن فلاسـفة اليونان ومـن تبعهم من متفلسـفي النصارى واليهود والمسـلمين، وإنما هو كما يقول أبو نواس:

قد حفظ شيئًا وغابت عنه أشياء.

وانظـر إلى رجـل حكيـم كأبي العـلاء، كيف غـره الإيمان بالعقل فظن أنه هو الإمام ولا إمام غيره، وأنه وحده يهدي الناس في المسير والإرساء فقال في الرد على بعض غلاة الشيعة:

كذب الظن لا إمام سوى العقل مشـيرًا في صبحه والمساء
فـإذا ما أطعته جلب الرحمة عنـد المسير والإرسـاء

وكيف انتهى به إيمانه بالعقل إلى مقالة لا يسيغها الدين ولا يقرها الإسلام في قوله:

قلتـم لنـا خـالـق حكيـم قلنـا صدقتـم كـذا نقـول
زعمتـموه بـلا مكـان ولا زمـان ألا فقـولـوا
هـذ كـلام لـه خبـيء معنـاه ليسـت لنـا عقـول

فعقله لم يسـتطع أن يتصور الخالق الحكيم في غير زمان ولا مكان، فاضطره ذلك إلى أن يصف الخالق الحكيم بما يصف به سائر المخلوقات من الخضوع للزمان والمكان، وهذا سخف لا يقول به مؤمن.

وأكبر الظن أن أبا العلاء نفسه لم يثبت عليه، فهو يقول في قصيدة أخرى:

أما ترى الشهب في أفلاكها انتقلت
بقدرة من مليك غير منتقل

وما يجوز عليه التحيز في مكان يجوز عليه الانتقال منه إلى مكان غيره، ولا يجوز أن يقضي أبو العلاء على الخالق الحكيم القادر الذي يؤمن به بالعجز، وبالتزامه مكانًا واحدًا لا يريمه، إن كان مستقرًا في مكان.

وكل هذا وأمثاله عند أبي العلاء وغيره، من الذين غرهم العقل فأسرفوا في الإيمان به، وحكموه فيما لا يستطيع أن يحكم فيه، لا يدل إلا على الحيرة والعجز، والقصور عن بلوغ الحقيقة التي حاولوا أن يبلغوها.

ومثل ذلك يقال في المجسمة والمشبهة وكل الذين حاولوا أن يعرفوا الله بعقولهم معرفة دقيقة ولم يكتفوا بما اكتفى به النبي ﷺ وأصحابه -رحمهم الله- من قبول نص القرآن وفهمه في يسر وسماحة، وفي غير تكلف ولا إسراف في التأويل والله -عز وجل- ينبئنا في القرآن بأنه أنزل الكتاب فيه آيات محكمات هن أم الكتاب وآخر متشابهات، وبأن الذين في قلوبهم زيغ يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، مع أن العلم بتأويله موقوف على الله -عز وجل-، وبأن الراسخين في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا، وذلك في قوله -عز وجل- من سورة آل عمران:

﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٧ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴾

(آل عمران : ٧ ، ٨)

وهذه هي المقالة التي يجب على كل مؤمن أن يقول بها ويتخذها دينًا ، ولست أدري أيصل العقل يومًا إلى أن يبلغ ما لم يبلغه إلى الآن من القوة أم لا ، ولكن الشيء المحقق هو أن عقل القدماء وعقل المحدثين من أصحاب الفلسفة والعلم مازالا أضعف وأقصر باعًا من أن يصلا إلى استكشاف حقيقة الله ، أو البحث عن صفاته وإصدار هذه الأحكام التي أصدرها الفلاسفة والمتكلمون ، اغترارا بالعقل واستجابة لما لا تنبغي الاستجابة له .

ومن أجل هذا أقول : إن المؤولين من المحدثين كالمؤولين من القدماء قد استجابوا لعقولهم القاصرة واغتروا بها ، وقالوا فيما ليس لهم أن يقولوا فيه ، وطمعوا فيما ليس لهم أن يطمعوا فيه ولو تواضع أولئك وهؤلاء ، وأوقفوا أنفسهم حيث تنتهي بهم قوتهم ، لكان خيرًا لهم والذين افتتنوا بهم من الناس .

فهؤلاء الذين يزعمون أن الطير الأبابيل ، وما رمت به جيش الحبشة أمام مكة ، إنما كانت وباء من الأوبئة ، وكانت الحجارة ضربا من الميكروبات . إنما يقولون هذا من عند أنفسهم وهم

يعلمـون حـق العلم أن النبـي وأصحابه لم يفهموا هذه السـورة علـى هذا النحـو ، وما كان لهـم أن يفهموها على هـذا النحو ، فهم لـم يكونوا يعرفـون الميكروب ، وما كان لهـم أن يعرفوه والذين يقولون : إن السـماوات السبع التي تذكر في القرآن هي الكواكب السـيارة ، إنما يرجمون بالغيـب ويقولون ما لم يقله النبي وأصحابه ، ومصدر هذا أنهم يريدون أن يلائموا بين القرآن ومستكشـفات العلـم الحديـث ، فيضطرهم ذلـك إلى تكليف النصـوص من التأويل مـا لا تحتمل ، وليس علـى الدين بأس أن يلائـم العلـم الحديث أو لا يلائمه ، فالدين مـن علم الله الذي لا حـد له ، والعلـم الحديث كالعلـم القديم محـدود بطاقة العقل الإنساني ، وبهذا العالم الذي يعيش الإنسان فيه .

ومن أسخف السخف أن نحاول الملائمة بين ما لا حد له وما هو محدود بطبعه ، وصدق الله حين أنبأ بأن الراسـخين في العلم يقولـون : ربنـا لا تزغ قلوبنـا بعد إذ هديتنا وهـب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب .

وشـر آخر نشأ عن اختلاف هذه الفرق فملأ حياة المسلمين فسـادًا أي فسـاد ، وهـو الغلو فـي التأويـل إلى أبعد مـا يتصور العقـل ، وإلى غيـر ما يفهم صراحـة من نصوص القـرآن وذلك حين اضطرت بعض الأحزاب إلى أن تسـر دعواتها ، وتستخفي بمذهبها في السياسـة أولا وفي الدين بعد ذلك كهؤلاء الباطنية الذيـن زعموا أن العلم بالديـن علمان : علم الظاهر وهو ما عليه الناس في كثرتهم وعلم الباطن وهو ما هم عليه وجعلوا يتركون

ظاهر النص لأنه لا يليق إلا بعامة الناس ولا يلائم خاصتهم، ثم يلتمسون للنص تأويلًا يخالف كل المخالفة ما يفهم منه لغة، وما فهمته جماعة المسلمين حيث سمعوا النبي يتلو عليهم القرآن ويبين لهم ما أنزل إليهم، وغلوا في ذلك كل الغلو حتى أحدثوا لأنفسهم دينًا لا يدين به غيرهم من المسلمين فأفسدوا الدين والعقل معًا. ثم نشأ التصوف ونشأ في أول أمره زهدًا غلا فيه أصحابه وأنكره النبي ﷺ، فهو قد رد على عثمان بن مظعون -رحمه الله- رهبانيته، وشدد على عبد الله بن عمرو بن العاص حين أزمع أن يصوم الدهر وحين غلا في قراءة القرآن، وأراد أصحابه على أن يأخذوا دينهم بالرفق والسماحة، وذكرهم بما أنبأهم به القرآن من أنه يريد بهم اليسر ولا يريد بهم العسر، ومن أنه لم يجعل عليهم في الدين من حرج، وأمر الغلاة منهم في الصيام والقيام أن يصوموا ويفطروا وأن يقوموا ويناموا، وألا يحرموا على أنفسهم ما أحل الله لهم بل بالغ النبي ﷺ في ذلك حتى استخفى من أصحابه ببعض عبادته مخافة أن يشق عليهم، وأن يتقيدوا به فيتكلفوا ما لا يطيقون، ونهاهم عن أن يواصلوا في صومهم فيصوموا الليل والنهار جميعًا. فلما قالوا له: إنك تواصل قال: إني لست كهيئتكم، إني أظل يطعمني ربي ويسقيني، يريد أن الله قد منحه من القوة والجلد على عبادته ما لم يمنحهم.

وعلى رغم هذا ظهر الزهد، وأبى فريق من صالحي المسلمين إلا أن يرفضوا لين الحياة، ويشددوا على أنفسهم

في العبادة والتقشـف والإعراض عـن اللذات . وليس بهذا كبير بأس ، فالناس أحرار في أن يزهدوا إن أطاقوا الزهد ولم يسـوءوا به أحدًا ، ولكن هذا الزهد لم يلبث أن تطور حين نشـأت الفرق وجعل أمره يتعقد شـيئًا فشـيئًا ، حتى نشـأ عنه التصوف الذي عـرف في أواخر القرن الأول ، وازداد تعقيدًا حين اشـتد اتصال المسـلمين بالثقافات الأجنبية ، فلم يلبث التصوف أن تأثر بما عرف المسـلمون مـن ثقافة الهند والفرس ، ومـن ثقافة اليونان خاصـة ، وتحول الزهد من تفرغ للعبادة وإمعان فيها إلى محاولة الاتحـاد بالله أو بالاتصال به ، أو معرفته عن طريق الإشـراف ثم اختلـط التصوف بمذاهـب الباطنية فازداد تعقيـدًا إلى تعقيد ، وانحرف عما عرف الناس من شئون الدين ، وأصبح مذهبًا بعينه بل أصبح مذاهب يختلف فيها المختلفون ، وتكلم المتصوفون بأشـياء أنكرها الفقهاء والمحدثون والمتكلمون وامتحن فيها بعضهـم محنة شـديدة انتهـت أحيانًا إلى القتـل والصلب كما جرى على الحلاج .

وليـس التصـوف مقصورًا على الإسـلام بل هـو معروف في الديانات الأخرى وفي المسـيحية خاصة ولكن متصوفة الإسلام أسرفوا على أنفسهم ثم أسرفوا بعد ذلك على الناس ، فصار أمر التصوف بعد أن فشـا الجهـل والجمود إلى ألوان من الشـعوذة والدجـل حتـى أصاب عامـة الناس منه شـر كثير ، لـو رآه أئمة الصوفية الأولون لضاقوا به أشد الضيق وأنكروه أعظم الإنكار .

ثـم لم يقف أمـر الاختلاف بين المسـلمين عندمـا وصفنا ،

ولكنهم اختلفوا في استنباط الأحكام التي يحتاج إليها الناس في حياتهم الاجتماعية، بل في عباداتهم أيضا اختلافًا كثيرًا نشأ عنه جدل لا يحصى بين الفقهاء.

فكان أهل الحجاز في القرن الأول والثاني يستنبطون الأحكام من القرآن والسنة، وما أجمع عليه أصحاب النبي، وما عمل به الممتازون منهم، يرون أن أصحاب النبي لا يجمعون على شيء إلا أن يكونوا قد استندوا في إجماعهم على سنة من النبي، ويرون أن الممتازين من الصحابة قد اشتد اتصالهم بالنبي حتى فقهوا الدين حق فقهه وتحروا سنته في أحكامهم. وكان أهل العراق يستنبطون الأحكام من القرآن والسنة والإجماع، ولكنهم لا يكرهون أن يلجئوا إلى الرأي إذا أعوزتهم هذه الأصول واشتد الجدال بين أولئك وهؤلاء، وكثر الخلاف بين أصحاب الرأي أنفسهم فكثر الكلام في الفقه، كما كثر الكلام بين الذين اشتغلوا بأصول الدين إلى اختلاف الفرق القديمة في استنباط الأحكام فللشيعة فقههم وللخوارج فقههم، كل يقيم مذهبه في استنباط الأحكام على مذهبه في السياسة وفي أصول الدين أيضًا.

وكذلك بلغ الخلاف بين المسلمين في الأصول والفروع أقصى ما كان يمكن أن يبلغ ثم أدركهم ما يدرك الأمم قبلهم وبعدهم من الضعف والجهل والانحطاط فصار أمرهم إلى شر عظيم.

وقبل الحديث عن الجهل وما ترك في حياة المسلمين من شر يشقون به إلى الآن، لا بد من وقفة قصيرة عند ألوان من

التعصب نشأت عن كثرة الفرق في الأصول والفروع جميعًا، فكما كانت الأحزاب السياسية في أول الأمر تتقاذف بالكفر، ويستبيح بعضها دم بعض حين تمكنه الفرصة، أو يتاح له الخروج على السلطان، جعلت فرق المتكلمين تتقاذف الكفر أحيانًا وبالفسق غالبًا، وتستبيح امتحان الناس بالسجن والضرب والقتل، إن أتيح لها الاتصال بالسياسة والاستيلاء على عقول الحكام وقلوبهم كالذي كان حين غلب المعتزلة على عقل المأمون، وألقوا في قلبه مقالتهم هذه السخيفة، التي لا تقدم ولا تؤخر في فقه أصول الدين وفروعه، والتي لم يدفع إليها إلا الغلو في البحث والإمعان في الجدل، وهي مقالتهم في خلق القرآن فهم قد أنكروا أن تكون لله صفات تقوم بذاته، وقرروا أن الله عالم بذاته وقادر بذاته إلى آخر ما قرروا فيما يسمونه التوحيد ونظرًا لأن الله قد أنبأ في القرآن بأنه كلم موسى تكليما، وبأنه أنزل القرآن على محمد ﷺ، وأمر النبي أمرًا مباشرًا بأن يبلغ الناس عنه ما أنزل إليه، وأمره أمرًا مباشرًا غير مرة بأن يقول لهم أشياء مختلفة، يوجه بعضها إلى المسلمين ويوجه بعضها إلى الكافرين ويوجه بعضها إلى الناس جميعًا، فقد استنبطوا من كل هذا أن كلام الله مخلوق محدث قد أنشأه الله بعد أن لم يكن وأنزله على أنبيائه فهو كغيره من الكتب التي ينشئها الناس، إلا إنه هنا قد أنشأه الله كما أنشأ غيره من المخلوقات ولو قالوا مقالتهم هذه ولم يفتنوا بها الناس لكان حسابهم إلى الله وحده، ولكنهم سيطروا على المأمون وأقنعوه بمقالتهم هذه، وأقنعوه

أيضًا بأن القول بغيرها إشراك بالله وخروج من الدين، لأن قدم القرآن معناه أن يكون هناك قديمان، مع أن القديم واحد لا شريك له ولا نظير له في القدم، وهو الله -عز وجل- ثم لم يكفهم ذلك فحملوا المأمون على أن يفرض رأيهم هذا على المسلمين، ويبدأ بعلمائهم وفقهائهم ومحدثيهم، واستجاب لهم المأمون بعد تردد وجعل يمتحن علماء المسلمين ويفرض هذه المقالة على كل من يعمل في خدمة الدولة بل في خدمة الأمة من القضاة والعمال والشهود، وقرر أنه ليس في حاجة إلى أن يستعين على خدمة الدولة الإسلامية بالمشركين، وألزم العمال أن يمتحنوا القضاة في ذلك فمن أجاب إلى رأيه أقر على عمله ومن أبى صار إلى العزل، وأمر القضاة أن يمتحنوا الشهود ولا يقبلوا إلا شهادة من يقول برأيه ويعلن إيمانه بأن القرآن مخلوق ثم جعل يمتحن الفقهاء والمحدثين، فمنهم من أجاب إلى رأيه تقية وتجنبًا لاحتمال المكروه، ومنهم من أبى فتعرض للسجن وتعرض للضرب ولو عاش المأمون لتعرض خصومه من العلماء للقتل، فهو قد أمر عامله على بغداد أن يمتحن جماعة من العلماء، فمن أجاب إلى رأيه أطلقه ومن خالف عن رأيه ضرب عنقه وأرسل إليه رأسه.

وكان حين أصدر هذا الأمر إلى عامله على بغداد قد خرج من العراق محاربًا للروم والناس جميعًا يعرفون أن أحمد بن حنبل -رحمه الله- لقي في هذه المحنة بلاء عظيمًا فصبر صبر الأبطال واحتمل السجن الطويل والحرمان الشديد والضرب

المبـرح الـذي أضعفه إلى أن توفي ، وأكبـر الظن أن المعتزلة صـاروا بالمأمون فـي هذه المقالة إلى شـيء يشـبه الجنون ، ولـولا أنـه قد مات في سـفره ذاك لمـلأ الأرض شـرًا ونكرًا ، ولكن الواثق والمعتصم سـارا في هذه المسألة سيرة المأمون مع شيء من القصد ، فلم يصلا بالممتحنين إلى القتل كما هم المأمون أن يفعل ، وإنما اكتفيا بالسـجن والضرب والحرمان ولولا أن المتوكل ألغى هذه المحنة وعاد إلى القصد في حكم المسلمين لتعرض أمر الخلافة العباسية لخطر أي خطر .

قد أشـرنا آنفًا إلـى الحلاج وقتله وصلبه وقد حدث شـيء من هذا الامتحان لبعض العلماء في الغرب الإسـلامي ، فمنهم من سـجن كابن رشـد ، ومنهم مـن حرقت كتبـه كابن حزم ، وليـس لهـذا كله مصـدر إلا أن الغلاة من الأحـرار كالمعتزلة في المشـرق ، والغلاة من المحافظيـن كالفقهاء في المغرب الإسلامي ، قد استطاعوا أن يستأثروا ببعض الحكام ويفرضوا عليهـم غلوهم في الـرأي ، وأخذهم الناس بمـا لم يعرف عن النبي ﷺ والذين يقرءون القرآن والسنة يعرفون ما لقي النبي وأصحابـه المؤمنون مـن المنافقين في المدينـة وفي باديتها ويعرفـون أن النبـي ﷺ لـم يعرض لأحد منهم بسـوء ، وإنما احتملهـم صابـرا عليهـم مطاولا لهـم ، طامعًا فـي أن يثوبوا يومًا إلى الرشـد ، أو أن تمسهم رحمة من الله فتخلص قلوبهم للدين ، وكان يسـتغفر لأحيائهم ويصلـي على موتاهم ، حتى قال الله له :

﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ ﴾

(التوبة: ٨٠)

وقال له:

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ ﴾

(التوبة: ٨٤)

وربما عرض عليه عمر بن الخطاب أو غيره من أصحابه أن يقتلوا بعض المنافقين فلم يأذن لأحد منهم في ذلك.

وقد روى الشيخان أن شيئا من الخصومة وقع بين رجل من المهاجرين ورجل من الأنصار في غزوة بني المصطلق، وتعصب لكل واحد منهما نفر من أصحابه، فبلغ ذلك عبد الله بن أبي بن سلول، رأس المنافقين من أهل المدينة، فقال: لئن رجعنا المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل وارتفعت القصة إلى النبي ﷺ فسأله عمر بن الخطاب أن يأذن في قتل هذا المنافق، فأبى وقال: لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه، وذكر الله هذه المقالة التي قالها عبد الله بن أبي بن سلول فقال في سورة المنافقين:

﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾

(المنافقون: ٨)

واعترض رجل على إعطاء النبي من غنائم حنين لبعض المؤلفة قلوبهم، وواجه النبي باعتراضه، فقال: اعدل يا محمد فإنك لم تعدل فلم يزد النبي في جوابه على أن قال

ويحك! فمن يعدل إذا لم أعدل؟ واستأذنه بعض أصحابه في قتل هذا الرجل فأبى.

وإذن فقد علم الله ما أضمر المنافقون من الكفر في قلوبهم فلم يحرض النبي عليهم، ولم يأذن له في قتل أحد منهم، وإنما نهاه أن يصلي عليهم إن ماتوا أو يقوم على قبورهم.

ولم ينطق النبي عن الهوى حين قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله. فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله» (صحيح البخاري).

وحين قال: «ألا لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعكم رقاب بعض» (صحيح البخاري) وكان الفقهاء والمحدثون الذين هم المأمون بقتلهم يقولون: لا إله إلا الله فيعصمون بها دماءهم وأموالهم ثم لم يكونوا يقولون هذه الكلمة بألسنتهم وإنما كانوا من صالحي المؤمنين وأصحاب الورع والزهد فيهم، ومن الخلفاء العباسيين من غلا في امتحان بعض الناس وأسرف في قتلهم يأخذ بعضهم بالشبهة والوشاية وسوء القالة، كالذي صنع المهدي حين تتبع الزنادقة فقتل منهم أفرادًا لم يتثبت من كفرهم وإنما أخذهم بسوء القالة وسعي بعض الناس فيهم بالسوء وغلا في ذلك حتى أمر بعض وزرائه أن يقتل ابنه بيده وقال له: قم فتقرب إلى الله بدمه وكل هذا إسراف لم يأته النبي ولا نعرف أن خلفاءه الراشدين قاتلوا أو قتلوا المسلمين، إلا حين جاهروا بالخروج من الدين وأظهروا له العداوة، ولم يعصموا دماءهم وأموالهم بالإسلام.

ولست في حاجة إلى أن أذكر زيادًا، ذلك الذي أعلن في خطبته المشهورة أنه سيأخذ البريء بالمسيء والصحيح في دينه بالسقيم، ولا أذكر الحجاج الذي أسرف في القتل بغير الحق، فقد كان زياد والحجاج طاغيتين أطلق خلفاء بني أمية أيديهما وأيدي غيرهما من ولاة العراق في دماء الناس وأموالهم فأفسدوا وأمعنوا في الفساد.

وجملة القول إن الغلو في الرأي، وحمل الناس على مالا يؤمنون به، وأخذ الناس بالشبهة وقتلهم أو تعذيبهم بالظنة، كل هذه أشياء ينكرها الإسلام ويأباها أشد الإباء ويبرأ الله ورسوله منها، ولا يعمد إليها من حكام المسلمين إلا الذين يطيعون الهوى ويمتنعون على العقل ويخالفون عن القوانين الصريحة للدين.

وعن اختلاف الأحزاب واختصامها بالسيف أحيانًا، وباللسان غالبًا في القرن الأول وصدر من القرن الثاني، وعن اختلاف الفرق بعد ذلك ولجاجها في الخصومة، نشأت الدعوة السرية لبعض المذاهب السياسية، وكان هذا مصدر اضطرابات كثيرة زعزعت أحيانًا مركز الخلافة في دمشق أولًا، وفي بغداد بعد ذلك.

ونظر المسلمون ذات يوم فإذا هم خاضعون لثلاثة من الخلفاء أضعفهم الخليفة العباسي في بغداد ذلك الذي لم يكن له من الحكم إلا ظاهره وكان الخليفة الثاني في مصر بعد أن أنشأ الفاطميون مدينة القاهرة واستقروا فيها وكان الخليفة الثالث

في قرطبة بالأندلس حيث آوت سـلالة الأمويين التي فرت حين نشأت الدولة العباسية في المشرق فأنشأت دولتها في الأندلس ضعيفة أول الأمر قوية بعد ذلك.

وكانـت هذه الـدول الثـلاث تتنافس أشـد التنافس ويبغض بعضهـا بعضًـا أعظم البغـض قد انقسـم بنو هاشـم إلى خلافة عباسـية فـي بغداد وخلافـة علوية في القاهرة وقـام بنو أمية في قرطبة يبغضون العباسـيين والعلوييـن جميعًا وظهر بين علماء الأندلـس رجل كابن حزم لم يتـردد في الجهر بأن تعدد الخلفاء جائـز لا بـأس به، وقـد رأيت من قبـل أن الله أمر المسـلمين أن يعتصموا بحبله جميعًا ولا يتفرقوا.

فانظر إلى ما صار إليه اعتصامهم بحبل الله من الفرقة والانقسام واستباحة الحرب بينهم مع أن النبي والصالحين من أصحابه لم يكونـوا يبغضون شـيئًا كما كانوا يبغضون الفرقة والانقسـام، حتـى روي عن النبي ﷺ قوله: «من حمل علينا السـلاح فليس منـا» (صحيح البخاري) وقد روينا لك غير مرة قوله ﷺ: «ألا لا ترجعـوا بعدي كفارًا يضـرب بعضكم رقاب بعض» (صحيح البخـاري) وليس لشـيء مـن هذا كله مصـدر إلا افتتـان الناس بزهـرة الحياة الدنيا وانحرافهم عما أراد الله للمسـلمين من أن يقيموا أمرهم كله على العدل والمساواة والإنصاف واختلافهم في فهم القرآن تأثرًا بالأهواء واسـتجابة لما كان يملأ نفوسـهم من الطموح.

(٧)

على أن هذا كله لم يلبث أن صار إلى شـر عظيم حين غلبت العناصـر الأجنبيـة علـى شـئون الحكـم فأقامت هذه الشـئون علـى المنافـع غير حافلة بمـا يأمر به الله من العـدل والإنصاف والمساواة والشعور المتصل بهذه الرقابة الرهيبة التي فرضها الله علـى الناس فراقب أعمالهم الظاهرة ونياتهم الباطنة، وأنبأ بأنه سيسـأل الناس عما تعمل جوارحهم وما تضمر قلوبهم أعرضوا عن هذا كله وأقاموا أمور الحكم على المنافع العاجلة لأنفسـهم ولأعوانهـم وذوي خاصتهم ولم يحفلوا بالعامة ولم يفكروا في أن للأمـة حقوقًا يجب أن تؤدى إليها، وعليها واجبات يجب أن تحمل على أدائها؛ بل نظروا إلى الأمة على أنها وسـيلة لإرضاء المطامـع وأداة لتحقيق المـآرب والأصل الدينـي في كل حكم صالـح أن تكـون الأمة غاية وتكـون الحكومة وسـيلة، وتكون الغاية الكبرى التي تشـترك فيهـا الحكومة والأمة هي إرضاء الله بتحقيـق العـدل ومحو الجـور حثيما وجد، وشـعور الحاكمين والمحكومين جميعًا بأنهم لم يخلقوا عبثًا ولم يتركوا سـدى، لم يسـتخلفوا في الأرض ليفسدوا فيها ويسفكوا الدماء ويطغى بعضهم على بعض ويسـتغل بعضهم نشاط بعض، وإنما خلقوا ليصلحوا ويحسـنوا ويعملوا على أن يلقـوا ربهم كما يجب أن يلقـوه أتقياء أنقياء مبرئيـن من الذنوب والآثـام التي تعرضهم لهـا الفتنة، وإيثـار المنافع العاجلة الفانية علـى المنافع الآجلة الباقية.

ثم لم يكتف الحكام الأجانب بهذا كله ولكنهم جهلوا اللغة العربية فلم يقدروها حق قدرها ولم يلتفتوا إلى أنها لغة القرآن والسنة والثقافة وإن إهمالها إهمال لهذا كله، وأن عاقبة هذا الإهمال إنما هي الجهل، جهل الدين أولًا وجهل الثقافة والعلم ثانيًا، والانتهاء آخر الأمر إلى أن تقوم أمور الناس على الجهل الذي يناقض العلم وعلى الجهل الآخر الذي يناقض الحلم والأناة وكبح الشهوة وقهر الناس، وأخذها في أمرها كله بالحق والعدل والمساواة بين الناس وأداء الواجبات مهما تثقل.

فأهملوا ما كان يجب عليهم أن يعنوا به من الدرس والبحث وتعمق الأصول واستخراج فروع الأحكام التي تلائم حياة الناس على مر الأيام وتطور الظروف.

ومن أجل هذا كله غاضت تلك الينابيع الغزيرة التي كانت تمد عقول الفقهاء بهذا الإنتاج الخصب الرائع، الذي لا نعرف أنه أتيح لأمة قديمة قبل الأمة الإسلامية، حتى الأمة الرومانية التي برعت في الفقه وتعمقته.. وقد كان فقهاء المسلمين في أول أمرهم يجتهدون في فهم القرآن والسنة وسيرة الصالحين من أصحاب النبي، ويستنبطون الأحكام من هذا كله، لا يصدهم عن ذلك شيء، ولا يردهم عنه رضا السلطان عنهم أو سخطه عليهم، ولا التفاف الناس حولهم أو انصرافهم عنهم، فأنشئوا هذا العلم الخصب وذهبوا فيه المذاهب. وكان اختلاف مذاهبهم نافعًا للناس في حياتهم العامة، وفي حياتهم الخاصة كان مذكيًا لعقولهم وقلوبهم

أولا، وكان بعد ذلك يوسع عليهم ألوان الحل لما كان يعرض لهم من المشكلات.

وكان الناس يجدون، حين يطلبون العلم، في العناية بالفقه وتعمقه، والتصرف في معضلاته، حتى إذا أهمل العلم والدين وجمد العقل وانقطع التفكير الخاص صار الناس إلى هذا التقليد البغيض، يتحرج علماؤهم من الاجتهاد، ويطمئن عامتهم إلى هذا التقليد، وفرضت على الأمصار والأقاليم مذاهب هؤلاء الأئمة الأربعة: مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل، رحمهم الله.

وفرغ الفقهاء لدرس مذهب من هذه المذاهب يجادلون عنها ويتكلفون التعمق لها، يقلد كل جماعة منهم إمامًا من هؤلاء الأئمة ويضعون مذهبه موضع التقديس، لا ينحرفون عنه ولا يغيرون فيه. ثم انتهى أمرهم إلى التعصب لأئمتهم والتنكر لغيرهم من المجتهدين، حتى أضاعوا علمًا كثيرًا ذهب مع الزمن لشدة الانصراف عنه وقلة التفكير فيه، ثم تعصب أصحاب الأئمة الأربعة لأئمتهم فثارت بينهم الخصومات السخيفة التي لا تغني عنهم ولا عن عامة الناس شيئًا.. ثم صار العقل الفقهي إلى شيء من التحجر، وجعل الفقهاء يبدءون ويعيدون فيما قال قدماؤهم، لا يزيد متأخر على متقدم شيئًا، ثم صار الفقه إلى كتب تقليدية مختصرة توضع لها الشروح وتضاف إليها الحواشي.. وجعل شباب الطلاب يحفظون المختصرات عن ظهر قلب، ويختلفون إلى أساتذتهم ليسمعوا منهم شروحًا وحواشي.. يفهمون منها ما يستطيعون ويتركون منها مالا

يحسنون فهمه، وأتيح لبعض البلاد الإسلامية حكام يقلدون مذهبًا من المذاهب، فيفرضونه على المحكومين، ويختارون القضاة من فقهاء هذا المذهب لا يتجاوزونه إلى غيره.. وجمدت العامة مع الفقهاء فأصبح هذا الشعب يدين بمذهب أبي حنيفة، لا يستبيح أن تحل مشكلاته بحكم مذهب آخر.. وشعب آخر يدين بمذهب مالك لا يعدوه إلى غيره، وأتيح لبعض الشعوب أن يكون من أبنائه الحنفية والشافعية والمالكية والحنابلة، ولم يحفل الحكام بذلك ولم يهتموا له، وإنما اكتفوا بأن يختاروا لكل أصحاب مذهب قضاة من أهل مذهبهم.

وكذلك كان في مدينة كالقاهرة قاض للحنفية، وآخر للشافعية وثالث للمالكية، وعلى هذا النحو. وأي شر أعظم أثرًا في حياة الناس من ألا يجمعهم قانون واحد تقوم عليه الأحكام فيهم، وتحل به المشكلات التي تعرض لهم.

ولم يكن الكلام أحسن حظًا من الفقه.. فقد انتهى أمره إلى الجمود والعقم. وفرض على الناس مذهب بعينه من مذاهب المتكلمين، يراه علماؤهم دينًا ويرون ما عداه من المذاهب انحرافًا عن الجادة وجورًا عن الطريق، وأصابه ما أصاب الفقه من اختصار الكتب ووضع الشروح والتعقيب عليها بالحواشي حتى أصبحت العقول أدوات لا عمل لها إلا أن تبدئ وتعيد، وتهذي في غير انقطاع كما يهذي المحمومون...

وكذلك صار أمر المسلمين إلى هذا النكر الذي عرضهم لألوان من المكروه ما كانوا ليتعرضوا لها لو سلكوا طريق قدمائهم. فلم يتركوا عقولهم تصير إلى هذا الجمود والخمود...

وإذا بلغت الشعوب هذا الحد من الضعف ضعفت حكوماتها فلم تجد من القوة إلا ما يمكنها من ظلم الرعية واستذلالها واستغلالها.. ولم تستطع أن ترد عن نفسها ولا عن شعوبها طمع الطامعين فيها، وكيد الكائدين لها ومكر الماكرين بها، واعتداء المعتدين عليها، بل ربما وجدت الشعوب شيئًا من السرور والرضا بسقوط حكوماتها وانهزامها أمام العدو المغير... فهي طامعة في شيء من العدل قليل أو كثير عند المغيرين عليها والمحتلين لبلادها، نسيت كرامتها وجهلت هذه الكرامة وغفلت عن حقوقها وعن واجباتها أيضًا، وطمعت في شيء واحد هو أن تخلص من هذا الشر الجاثم عليها.

وكذلك كثر المغامرون أولا، وكثر معهم الاضطراب والفساد، ثم جاء المستعمرون فوجدوا كل شيء قد مهد للاستعمار. ففتحوا واستعمروا، وفتحوا أبوابًا من الآمال الكاذبة أمام هذه الشعوب اليائسة...

ولم يصر شأن علوم اللغة العربية والعلوم العقلية إلى خير مما صارت إليه أمور الفقه والكلام، تقليد في هذه كالتقليد في تلك، وجمود مطبق في هذه كالجمود المطبق في تلك.

شمل القصور ملكات العقول كلها، فلم تبتكر شيئًا ولم تحسن التفكير في شيء، بل لم تحتفظ بقديمها نفسه، وإنما خلت بينه وبين الجهل يلقى من دونه حجبًا كثافًا وأستارًا صفاقًا.

ولو أن هذا الجهل المطبق رد عقول الناس إلى فطرتها الأولى، وجعلها متهيئة لتلقي ما يمكن أن ينقل إليها من علم جديد، لكان قليل هذا العلم الجديد جديرًا أن يذكرها بكثير علمها القديم. ولكن الناس أحبوا الجمود واطمأنوا إليه، وحرصوا على الاستمساك به، ورأوا كل جديد بدعة أي بدعة وإثمًا أي إثم، بل رأوا إحياء التراث القديم نفسه شرًا يجب اجتنابه، وينبغي للرجل الكريم أن يتقي شره، ووصفوا إحياء القديم العربي في الأدب واللغة والفلسفة بأنه عناية بالقشور وإهمال للباب، واللباب بالطبع هو ما يبدءون وما يعيدون فيه من الكلام المعقد الذي لا يغني عنهم ولا عن غيرهم شيئًا.. ولم يقصر هذا الجمود على وطن بعينه من الأقطار العربية والإسلامية، ولكنه جثم على العالم الإسلامي كله كما تجثم ظلمة الليل على الأرض، وأبطأ إسفار الشمس التي تذود هذه الظلمة عن القلوب والعقول جميعًا، حتى أصبح العالم الإسلامي نهبًا للطامعين فيه والمعتدين عليه من المستعمرين الغربيين.

ثم كان الاتصال بهؤلاء الغربيين حين أقبلوا عليهم مستعمرين لهم، فنبههم أو نبه أقلهم من هذا النوم العميق، وإذا

هـم يشـعرون على مر الزمن بما تتابع عليهـم من الكوارث وما أطبق عليهم من الجهل، حتى ناموا واستيقظ الناس، وسكنوا وتحرك الناس. وإذا هؤلاء الأقلون يحاولون إيقاظ الكثرة النائمة، ويبلون في ذلك أحسن البلاء، ويحتملون في سبيله فنونًا من النكير والتشهير والأذى.

وما أظن المصريين نسوا جهاد جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده -رحمهما الله- في هذه السبيل، وما لقيا من السخط عليهما والمكر بهما، والتنكر لمن ذهب مذهبهما أو اختلف إلى دروسهما. وليس لهذا مصدر إلا أن النائمين يكرهون اليقظة، ويكرهون بالطبع من يدعوهم إليها، كما أن الذين استراحوا إلى الجمود لا يبغضون شيئًا كما يبغضون الحركة والداعين إليها.

ومع ذلك فقد نامت الأمة الإسلامية قرونًا طوالا، ولكنها حين استيقظ بعض الممتازين منها ودعوها إلى اليقظة في إلحاح، أتيح لها في الوقت القصير شيء لا بأس به من التنبه بل شيء لا بأس به من التقدم وإن لم تزل بعيدة أشد البعد عن أن تكون جديرة بتاريخها الإسلامي البعيد.

وما أحب أن أثبط الهمم، ولا أن أفل العزائم، ولا أن أشيع اليأس، ولكني أقول ما أقول تقوية للأمل وتمضية للعزم وإلحاحًا مع الملحين في أن يثوب الناس إلى أنفسهم، ويتمثلوا هذه الآماد البعيدة أشد البعد بينهم وبين قدمائهم من جهة، وبينهم وبين الأمم الحديثة المتحضرة المسيطرة

على العالم الحديث من جهة أخرى. ليعلموا أن الطريق بينهم وبين الرقي الصحيح طويلة شديدة الطول، شاقة عظيمة المشقة، وأنهم قد أتيح لهم الآن شيء من يقظة تمكنهم من أن يختاروا بين اثنتين: إحداهما: أن يظلوا كما هم الآن أيقاظًا كالنيام ونيامًا كالأيقاظ. فيتعرضوا لخطوب أشد هولا وأعظم أثرًا من الخطوب التي تتابعت عليهم. والثانية: أن يستيقظوا حقًا ويستدركوا ما فاتهم حين وقفوا ومشى الناس، ليصبحوا أكفاء لقدمائهم من جهة، وأندادًا للذين يحاولون أن يستذلوهم من جهة أخرى. ويجب عليهم أن يذكروا أن حكامهم من الأجانب في العصور الماضية كانوا جهالا ففرضوا عليهم الجهل، وأن الطامعين فيهم الآن بعيدون كل البعد عن الجهل، فسيكون ظلمهم لهم أقوى وأعنف من ظلم حكامهم الأجانب فيما مضى.

والمستعمرون في هذا العصر الحديث يوشكون أن يفرضوا عليهم ضروبًا من العلم قد تخرجهم من الجهل، ولكنها ستقطع الأسباب حتمًا بينهم وبين تاريخهم وتفنيهم في الأمم المستعمرة إفناء.

فلينظروا بين هاتين الخطتين وليختاروا إحداهما، وما أرى إلا أنهم سيختارون، بل عسى أن يكون كثير منهم قد اختار بالفعل، خطة اليقظة والنهوض.

(٨)

وسبيلهم إلى هذه اليقظة الخصبة واحدة لا ثانية لها، وهي أن يذكروا ما نسوا من تراثهم القديم، لا ليقولوا إنهم يذكرونه، بل ليعرفوه حق معرفته، ويفقهوه جد الفقه، ويحسن المتخصصون منهم العلم بدقائقه وتيسيره لغير المتخصصين.

هذه واحدة، والثانية أن يستدركوا ما فاتهم من العلم الحديث، ويبتغوا إليه الوسائل التي تتيح لهم أن يتحققوه كما يتحققه أصحابه، وأن يوطنوه في بلادهم ويجعلوه ملكًا لهم، وأن يبذلوا من الجهد ما يمكنهم في يوم قريب من ألا يكونوا فيه عيالا على المستأثرين به، بل من أن يشاركوا فيه مشاركة الأنداد الأكفاء.

بهذه الخطة وحدها يستطيعون أن يسلكوا سبيل قدمائهم، الذين عرفوا حق المعرفة كيف يحافظون على ما ورثوا من العرب القدماء: الجاهليين والمسلمين الأولين. وكيف يدرسونه أحسن الدرس وأوسعه وأعمقه. وعرفوا في الوقت نفسه كيف يأخذون الثقافات الأجنبية، وكيف يسيغونها ويتمثلونها ويضيفون إليها من عند أنفسهم، وكيف ينشرون نور المعرفة بهذا كله في البلاد التي تستأثر بالعلم الآن، وتريد أن تفرض عليهم سيطرتها.

وواضح أن هذا الحديث لا يطمع في أن يرسم للمسلمين خطة دقيقة للرقي، وإنما يطمع في شيء هو أهون من ذلك،

ولكنه عظيم الخطر إلى أبعد ما يمكن أن يعظم الخطر لأمر من الأمور، وهذا الشيء متصل بالإسلام وحده. فالقرآن بين أيدي المسلمين يقرءونه ويسمعونه ويتعبدون به، ولكن الذين يفهمونه حق فهمه من بينهم يمكن إحصاؤهم، ويجب أن يكونوا من الكثرة فوق الإحصاء، ويجب أن يتجاوزوا به أنفسهم، وأن ينشروا العلم الصحيح به بين الناس.

والثابت من سنة النبي ﷺ محفوظ قد نشر في الكتب، وجعل كثير من الناس ينظرون فيه، ولكن الذين يفقهونه أقل من القليل. ويجب أن يكثروا وأن ينشروا منها على الناس ما يبين لهم حقائق القرآن أولا، ويفقههم في أمور دينهم ثانيًا.

وسيرة الخلفاء الصالحين من المسلمين معروفة منشورة يقرؤها المؤرخون، ولكن العلم بها لا ينبغي أن يقصر بها على المؤرخين، وإنما يجب أن يشيع بين الناس، وأن تيسر لهم قراءته وفهمه. وعلم العلماء سجل في الكتب ينشر قليله، وأكثره ما زال نائمًا كما نامت الأمة الإسلامية، فيجب أن يفيق من نومه. وأن يكون قريب التناول للذين يحسنون درسه وفقهه من العلماء.

وهذا كله لا يكفي، لأنه لا يزيد على أنه ترقية للعقول وتزكية للأفهام. وويل للعلم بشئون الدين وحقائقه إذا لم يتجاوز العقول والأفهام إلى القلوب والأمزجة، ويؤثر في الضمائر أعمق التأثير، ويؤثر في السيرة الظاهرة لهم أعمق التأثير أيضًا.

وقد عرضت في هذا الحديث صورة إن تكن شديدة الإيجاز، فإنها شديدة الوضوح لحياة النبي ﷺ وأصحابه، رحمهم الله.

فلو لم يكن لهذا الحديث أثر إلا أن يقرأه الناس، ويجتهدوا ما استطاعوا في أن يحملوا أنفسهم على أن يسيروا في أمور دينهم ودنياهم سيرة النبي وأصحابه والصالحين من المسلمين، وينفوا عن أنفسهم وعقولهم وقلوبهم ما أصابها من التقليد والجمود وما استقر فيها من السخف والأوهام. لو لم يكن لهذا الحديث أثر إلا هذا لكان قد بلغ بعض ما أردت، حين أخذت في إملائه، وصدق الشاعر القديم حين قال:

وما أدري إذا يممت أمرًا ... أريد الخير أيهما يليني
أألخير الذي أنا أبتغيه ... أم الشر الذي هو يبتغيني؟

والله يعصمنا من الشر ويوفقنا :إلى الخير، وهو قد قال في كتابه العزيز:

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾
(البقرة: ١٨٦)

فعسى أن يجيبنا إلى هذه الدعوة، وله الحمد أولا وآخرًا.

الفهرس

❊❊❊